الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

سياسة
خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الاوسط

لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ، تخصص تاريخ حديث ومعاصر

لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
1- احمد صاري	أستاذ التعليم العالي	قسنطيـــنة	رئيسا
2- علي أجقوا	أستاذ محاضر	بسكــــرة	مشرفا ومقررا
3-احمد صغيري	أستاذ تعليم عالي	قسنطينة	عضوا مناقشا
4-مصطفى حداد	استاذ محاضر	باتـــنــة	عضوا مناقشا

اعداد الطالب :كليل صالح

تحت اشراف الاستاذ :
د : علي اجقو

السنة الجامعية : 2006-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

إلى أساتذتي الكرام ، إلى الأستاذ الدكتور علي اجقو الذي كان أخا، وصديقا وأستاذا ، لم يبخل بنصائحه وتوجيهاته في اثراء طرائق بحثي وعملي.

إلى الأستاذ الدكتور مناصرية يوسف الأخ والصديق ،والأستاذ .

إلى العاملين بالمكتبات الوطنية ودور الأرشيف.

إلى كل أستاذ علمني حرفا ،وفتح أمامي آفاق الدراسة والعلم .

عرفانا مني بالجميل اشكرهم جزيل الشكر والتقدير

الإهداء

إلى عائلتي الكبيرة ، الجزائر ، إلى والدي المجاهد ووالدتي المكافحة ، إلى أم دعاء ،إسلام،شكري ،جمال ، إلى كل صانع ملحمة الجهاد بالجزائر إلى أولئك الأبطال الذين استشهدوا دفاعا عن هذا الوطن وعقيدته .. أبناء يعقوب ، أبطال المقاومة الجزائرية ، أبطال الثورة التحريرية . إلى أبناء الأوراس الأشم.

إلى كل هؤلاء الذين صنعوا مجد الجزائر ورفعتها ومكانتها وقوتها .

أهدي بحثي المتواضع هذا.

مقدمة

مقدمة

مع مطلع القرن الخامس عشر بدا واضحا أن الإمارات الثلاثة المغاربية أصبحت ضعيفة وتلاشت قدراتها على مواجهة الحملات الصليبية حيث ساهمت الصراعات العائلية في تدميرها إضافة إلى تمرد القبائل في إقليم وهران ،مستغانم ، مزفران ، تنس و مازونة التي ضلت ترفض السيطرة وتسعى للمحافظة على وجودها و اتجاهها نحو الثورة مستفيدة من الصراع داخل الأسرة الحاكمة على إعلان استقلال هذه القبائل. أمام سيطرة الإسبان والبرتغاليين على السواحل اضطرت إلى الجلاء عن السواحل هروبا من سياسة الملاحقة و الحقد الصليبي .

أما الأندلسيون المهجرون فقد تمكنوا من الاستقرار في شمال إفريقيا في محاولة لاسترداد الأرض، يدفعهم الحقد على الطرد و خيانة العهود التي قطعها فرديناند على نفسه [1]فتوزعوا عبر كل النقاط الساحلية و أوجدوا نمطا جديدا للمقاومة هو الجهاد البحري .نتيجة لذلك سعت الإمارات الإيطالية في الفترة نفسها لربط العلاقات التجارية مع مملكة تونس و إمارات شرق الجزائر والاتفاق على تنظيم دورات بحرية لحماية السفن من القرصنة غير أن ظهور الإسبان بسياستهم الصليبية و اعتداءاتهم المتكررة على الموانئ المغاربية قوضت كل الجهود الإيطالية في تنمية العلاقات التي ستصبح بظهور العثمانيين و اتصالهم بالحفصيين عاملا أساسيا في تراجع مكانتها التجارية، كما فقد بنو زيان ذلك التعاطف الإسلامي و أصبحوا يعيشون بين ديانتين الإسلامية و المسيحية .[2]

كانت إمارة بنو زيان قد قبلت الرضوخ لسلطة المحلة القبلية، أما في المغرب الأقصى فقد كان بنو مرين منقسمين إلى العديد من الإمارات التي تعيش حالة عدم الاستقرار وبالتالي فان الوضع العام يمكن تلخيصه كالتالي : فمن مصر شرقا إلى غاية المحيط الأطلسي لا توجد أدنى سلطة مركزية قادرة على بسط نفوذها و تلاشت العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين العالم الإسلامي و المسيحي أمام سيطرة البرتغال على الموانئ المغربية (سبته, طنجة، أزمور،صافي، مزفران و دكالة) كما ظهر الإسبان وقاموا باحتلال حصن باديس وسيطروا على سبته، مليلة، المرسى الكبير،وهران، حصن الجزائر ، بجاية و حصن حلق الوادي أمام تونس، أما الجنويين فاحتلوا

---

[1] حرية ممارسة الشعائر الدينية وحماية الحقوق المدنية والملكية، إلى جانب احترام خصوصياتهم الاجتماعية....

[2] Braudel (Fernand) : la Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II, Ed/ l'Etoile, Paris 1966, pp 12-25

جيجل وبالرغم من كثرة المؤسسات الأوروبية فقد كانت "القرصنة"الإسلامية نـشطة علـى السواحل الإيطالية و الإسبانية و لا تستطيع السفن التجارية الأوروبية الملاحة في حوض المتوسط إلا ضمن تشكيلات كبيرة و تحت حماية سفن مسلحة لمواجهة البحارة المسلمين المتمركـزين في جزيرة جربه ثم طرابلس ثم شرشال.[1]

كانت هذه الحالة العامة السياسيةفي أواخر العهد الحفصي، المريني، الزياني، حالة من التأخر والانحطاط والتفكك،وتغلب عليها عدم الاستقرار ، وكثرة التنازع على السلطة ،وعدم الانتباه للأخطار المحيطة بهم من جانب الأعداء القادمين من الضفة المقابلة للبحر المتوسط ،وإهمال أمـر الحكم والشعب معا . فبنوزيان بتلمسان،وبنومزغنة الثعالبة بمدينة الجزائر، وبنو حفص بتـونس وشرق الجزائر كانوا في نزاع مستمر، سواء بين الأسر الحاكمة أو داخل الأسرة نفسها ،وكانت إسبانيا على علم تام بالأوضاع ،وربما لها يد في ما كان يقع من تناحر كمقدمة لتنفيذ مخطـط طويل الأمد للسيطرة على المنطقة.[2]

المبحث الأول: انحطاط وتراجع قوة المغرب الإسلامي وبداية المخـاطر الخارجية:

I- انحطاط وتراجع قوة المغرب الإسلامي:

تعرض المغرب الإسلامي لمجموعة من التحولات منذ الأيام الأولى للفتح، وإذا كانت الموجة الأولى للفتح قد وحدت بين مراكز القوى المختلفة، فإنهيار الحكم الأموي وقيـام الحكـم العباسي، ثم قيام الحكم الأموي في الأندلس قد أدى إلى نوع من التمزق المؤقت الذي ما لبـث أن تمخض عن حركات إصلاحية دينية كرد على الدعوات التي أفرزتها حركة الفاطميين الـتي ترعرعت في المغربالإسلامي قبل أن تنتقل إلى مصر، ولعل أفضل تغـيير لتلـك الحركـات الإصلاحيةهو ظهور المرابطين ،ثم الموحدين أبناء عبد المؤمن،ولم يكن ظهور هـذه الحركـات وتطورها سلميا،وإنما رافقها عنف دموي ملبث أن ترك رواسب عميقة[3]،وكان لابد لها من

---

[1] علي التاج(الصادق): العلاقات الاقتصادية بين العالم الإسلامي والأوربي خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ط1 ،دار العلم للملايين ، بيروت ،1977 ،ص-ص 23-36.

[2] الزياني(محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم بوعبدلي (المهدي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1978 ص-ص 107-138.

[3] أمليلي (محمد بن مبارك): تاريخ الجزائر القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 12.

ن تتفاعل لتأخذ أبعادها في التأثير عن مستقبل المغرب الإسلامي .إذ ما كادت دولة الموحـــدين تضعف حتى ظهر نوع من استقلال مراكز القوى الناجم عن ضعف المركزية، فكا ن من أبـــرز مراكز القوى في بلاد المغرب:

1-دولة بني حفص التي اتخذت من تونس قاعدة لها، فكانت حدودها تمتـــد مـــن طرابلس حتى شرقي الجزائر في المفهوم الحالي للحدود ، عاشت هذه الدولـــة 312 سنة من 1229-1541.

2-دولة بني زيان: وقد جعلوا من وسط المغرب الأوسط وغربها مقرا لهم وقاعدة لكيانهم وظلت قائمة مدة 294 سنة من 1236-1530.

3-دولة بني مرين وقد جعلوا من المغرب الأقصى قاعدة لهـم ومستقرا ودامت 358 سنة من 1196 إلى 1554 وانتهت سلطتها على الجزائر عام 1393.

وقد ساعد هذا الانحلال في أواخر القرن 15 على غزوه من طرف الأجانب، فقد أصبح شرقي المغرب و أوسطه و أقصاه بسبب هذه الفوضى عبارة عن فسيفساء سياسية بانقسام مملكة بني عبد الواد في تلمسان و مملكتي بني حفص وبني مرين إلى عدد لا يحـــصى مـــن الإمـــارات والقبائل أو مجموعات مستقلة ومناطق نفوذ الأولياء ،وقد أقامت الموانئ أنواعا من الجمهوريات بدأت في ممارسة النشاط البحري .[1] وقد بقيت هذه الكيانات قوية، صلبة حتى إذا ما استترفت قدرالها في الحروب الداخلية و الخارجية ووصلت إلى مرحلة من الانهيار المريع الذي فتح المجـــال أمام المزيد من التمزق فأصبحت الأقلية الحاكمة على استعداد للتعاون مع أي ســـلطة أو قـــوة داخلية أو خارجية للمحافظة على وجودها على الرغم من ظهور هذه التحـــولات العنيفـــة في بعض الأحيان فان الإمارات لم تفكر في القيام بأي نشاط قد يعيد لها نفوذها وقوتهـــا باســـتثناء محاولة بنو مرين للسيطرة على المغرب الإسلامي بكامله، لكنهم اصطدموا بقوة الحفصيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين وأدى ذلك إلى صدامات داميـــة لم تحقـــق الهدف المنشود في توحيد المغرب الإسلامي وإنما أدت إلى نتيجة مـــضادة تمامـــا ،إذ اســـتترفت

---

[1] جوليان (شارل أندري) : تاريخ إفريقيا الشمالية ،– تونس –الجزائر – المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، الجزء 2، ط 2تعريب مزالي(محمد) ، و بن سلامة(البشير)، الدار التونسية للنشر، ص.ص 321-322.

الدولتين معا،وخلال هذا الصراع المرير كان على الزيانيين في المغرب الأوسط دفع ثمن التمـــزق عن طريق التناوب في الخضوع لهؤلاء ولأولئك تبعا لتغير موازين القوى .

كما انهار بذلك أقوى دعم للأندلسيين وهم المرينيون الذ ين قدموا الدعم طوال حـــروب الاسترداد وتحول جبل طارق إلى مركز لتجميع المتطوعين للجهاد في بلاد الأندلس.

II-بداية ظهور المخاطر الخارجية:

كان ذلك الموقف السائد والمشجع للدول المسيحية خاصة إسبانيا للتوســـع والتوغـــل في أراضى المغرب الإسلامي إذ ساعد علىانحلال بلاد ا لمغرب المطامع الإسبانية أكثر [1] فلاحـــظ أحد كتاب الملوك الكاثوليك قائلا سنة 1495م "إن الحالة النفسية والمادية في كامـــل الـــبلاد الإسلامية (الكافرة) بلغت حدا من الانهيار قد تحقق المصالح المادية وتجعل من انتصار العقيـــدة المسيحية أمرا مفروغا منه ...إن إبرام اتفا قية مع البرتغال تمنح له غرب المغرب سيشكل عامـــل وحدة لانتزاع الباقي من أراضي المسلمين الذين يحاولون جمع كلمتهم مع ملك السودان المصري لمقاومة أصحاب الجلالة .. وتمكن صاحب الجلالة من الوصول إلى بيت المقـــدس واســـترجاع أورشليم.." [2]فقامتسلبانيا بأول محاولة جس النبض فهاجمت قواها مدينـــة تطـــوان ســـنة 1400م فدمرتها وتكرر الموقف ذاته سنة 1415م عندما قام ملك البرتغال باحتلال مدينة سبته [3]وقد شجع هذا الوضع الذي وصفه توفيق المدني نقلا عن المؤرخ الفرنسي شـــارل أنـــدري جوليان قولإن"العائلات المالكة الحفصية و الزيانية و المرينية، كانت قبل ذلك تلمـــع لمعانـــا منيرا، فلنغمست في حروب طويلة مزمنة ورو ت أرض هذه البلاد بالـــدماء،ثم ســـقطت في مهاوي الانحطاط ،فطوال قرن كامل لم يبق لأمراء هذه العائلات المالكة من السلطة إلا اسمهـــا كما انكالملوك لا يفكرون إلا في إحباط المؤامرات والفتن التي يثيرها ضد هم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على الأرض ،أو إخما اد الثورات التي تقوم بها قبائل ولقد ضـــربت الفوضـــى أطنابها فيكل مكان ،فسكان قسنطينة وسكان مدينة الجزائر وأهل الشرق ألوهراني لم يعترفوا بسلطة أحد عليهم ،أما بالمغرب الأقصى فإن أمراء عائلة بني مرين قد اقتطع كل واحد منـــهم

[1]Villiers (Pauline) : Marine Royale, Corsaires et Trafic dans l’Atlantique de Louis XIV à Louis XVI, Presses Universitaires du Septentrion, Lille ,1991 p-p. 120-132

[2] Hawser (Henri) : la Prépondérance Espagnole, Reed, Paris, 1933, p-p. 118-154

[3] محمود (السيد): تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة الشباب الجامعة، مصر، 2000، ص 129.

لنفسه إمارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه ،فهذه الفوضى قد سهلت مهمة البرتغاليين والإسبانيين سواء في احتلال البلاد أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها.

رغم أن سياسة الأسبان كانت مبنية على تقارير الجواسيس الذين زاروا المنطقة فــان خوف الملك الأسباني فرديناند من ردة فعل عنيفة من جانب دول المغرب الإسلامي [1]منعته من التحرك،إلا أن الراهب خمينيس [2]تمكن من إقناعه بأن الخلاف والشقاق المستحكم هناك لــن سمح لأهلها بالإقدام على مثل هذا العمل لاستعادة الأندلس ،و إتقاءا لخطر اتحــاد إســلامي موسع في إفريقيا ضد الصليبية الإسبانية ، قرر الملك الأسباني فرديناند إرسال عام 1501وفــدا إلى مدينة القاهرة عاصمة دولة المماليك لعقد معاهدة صداقة وحسن تعامل بين الأسبان ودولــة المماليك.كنتيجة لمشكلة السباق الاستعماريين البرتغال وإسبانيا لاحتلال المغرب الإســلا مي فقد كاد النزاع أن يتحول إلى حرب ،لولا تدخل البابا وقسم النفوذ في العالم وفقا لمــا نــصت عليه معاهدته تورد-سيلاس (Tordo.Sillas)سنة 1495.وأعقب ذلك الاتفاق على اقتــسام المغرب الإسلامي وفقا لمعاهدة فيلا فرنكا (Villa-Franca) عام 1509م [3].

مع نهاية القرن الخامس عشر،كانت دولة البرتغال تحتل في المغرب الأقصى مــدن ســبته وطنجة وأصيلا وازمور والصويرة وأسفي مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة بين مصب نهــري أم الربيع وتنسيفت على المحيط الأطلسي ، أما الأسبان فقد احتلوا بالبلاد المغربية (صخرة باديس-فاليس-ومدينة مليلة) وانطلق الإسبانيين لتطوير الحرب الصليبية ضد المغرب الأوسط ،ولقــد تطلب الإعداد لهذه الحملات الصليبية الجديدة إعدادا طويلا وإمكانيات كبيرة،بدأها البابــا في روما بالعمل على وضع كل الإمكانات البشرية والمادية تحت تصرف الملوك الإسبان من أجــل إبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس أولا، ثم إخضاع بلاد الشمال الإفريقي للحكــم المــسيحي ثانيا،ومن أجل ذلك أصدر البابا أمره السامي لكل المسيحيين بأن يــستمروا في دفــع الــضريبة

---

[1] المدني (احمد توفيق): حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976، ص-ص67-71.

[2] الراهب خمينيس: فراي دون فرانسيسكو خمينيس ســسنيروس (Ximénés) أو (Cisneros) و اسمــه François Jiménez de كاردينال: ولد في قشتالة 1436-1517 تم تعيينه أمينا لسر المملكة 1492 ثم كاهنــا لطليطلــة 1495 ثم حاكما لقشتالة حتى وفاة الملكة 1504 ثم رئيسا لمحاكم التفتيش (1506-1516) و فتح وهران 1509 اشــتهر بقــسوته الوحشية في إبادة المسلمين. و كان المحرض الأساسي لاحتلال مدن المغرب في محاولة لتنصير مسلمي المغرب.

[3] والتي نصت على منح المغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول إسبانيا على المغرب الأوسط.

كر وزادا[1] للملوكسبانيا من أجل الحرب الإفريقية ضد المسلمين ولكن عندما توفيت الملكة إيزابيلا تركت وصية طلبت فيها لمن يتولى الحكم من الملوك بعدها بتحقيق الأمنية الغالية على قلبها التي كانت تود لو أنها قد حققتها بنفسها - ،ألا وهي احتلال إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد المارقين والزنادقة الكفار [2].وتحت ضغط الكنيسة وتحفيز الراهب خمينيس جهزت اسبانيا جيشها وأسطولها لغزوشمال إفريقيا ، فبادر البابا بنشر قرار يعطي به الولاية لملوك أسبانيا على كامل الأرض التي يفتحونها بالمغرب،وكان نفس البابا اسكندر السادس-بورجيا الشهير-(Alexandre VI Borgia)[3] قد أصدر سنة 1494 عهدا يبارك فيه الحرب الصليبية على البلدان الإسلامية بشمال إفريقيا . رغم هذا فان عمليات الاحتلال لم تتم بشكل عملي إلا في شكلها الضيق ، إذ اكتفى الأسبان باحتلال الموانئ الشمالية والبرتغاليين احتلال الموانئ الغربية تمهيدا لتحقيق الأهداف المسطرة.

المبحث الثاني:الأوضاع الداخلية:العلاقة بين الكيانات السياسية المغاربية:

تمكن الموحدون من توحيد المغرب الإسلامي ورد الهجمات الصليبية فبسطوا نفوذ المسلمين في الأندلس بعد انهيار دولة الأمويين سنة 1031م وظلت مسيطرة على البحر المتوسط وجبل طارق، لكن بداية من القرن الثاني عشر أصابها انهيار وكانت هزيمة حصن العقاب عام 1214أول هزيمة فعلية للمسلمين في الأندلس أمام المسيحيين وبداية مرحلة حرب الاسترداد فأعلن بنو مرين بالمغرب الأدنى الحرب على الموحدين واستقلوا به عام 1255م كما قام أبو زكريا الحفصي بالاستيلاء على تونس وبجاية وتلمسان و أقام الدولة الحفصية عام 1248م[4]. و الملاحظ أن عوامل الضعف بدأت في دول المغرب الإسلامي حينما فقدت السلطة المركزية نفوذها على القبائل، فأصبحت سلطة الحاكم مقتصرة مباشرة على المدن الكبيرة لكنها لا تتدخل عمليا في شؤون القبائل الداخلية وسمح بظهور الفئات الدينية - المرابطين - الذين

---

[1] ضريبة مفروضة على كل مواطن مسيحي، تحول إلى صندوق الكنيسة لتمويل الحرب ضد المسلمين.Croisada

[2] وهي الصفة التي يطلقها المسيحيون على المسلمين منذ الحروب الصليبية الأولى.

[3] اسكندر الرابع –بورجيا (Alexander Borgia) من مواليد جاتيفا (Jat Iva)في إسبانيا في سنة 1431.أصبح بابا من سنة 1492 حتى سنة 1504 وقد مارس دورا سياسيا كبيرا حتى أطلق عليه أنه أمير أكثر منه بابا أو رجل دين-اشتهر بقسوته في تنظيم الحرب ضد المسلمين.

[4] علي التاج : المرجع السابق ، ص 254.

استأثروا بالعمل الديني إذ. كان الوضع العام السائد يطبعه التنافس والصراع ، حيث كان الحفصيون في صراع حول السلطة فان القبائل المتواجدة في تونس و بجاية و قسنطينة كانت في حالة تمرد وولاء تجاه السلطة التي ستكون عاملا مساهما في منع الاستقرار خاصة القبائل التي كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى في مواسم القحط.[1]

I-الكيانات السياسية في المغرب الإسلامي وطبيعة العلاقات المتبادلة:

1- الدولة الزيانية:

بعد سقوط الدولة الموحدية ظهرت دولة مستقلة في تلمسان تحت اسم بني زيان ، كانت سلطتهم تمتد على جزء كبير من أرض المغرب الأوسط .وقد بدأ استقرار بني عبد الواد في منطقة تلمسان وظهر أمرهم في عهد الوحديين، حيث ربطوا مصيرهم معهم وأخلصوا لهم وخاصة في فترة الاضطرابات الشديدة إثر الغارات التي شنها بن غانية على المغربيين الأدنى والأوسط في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر.

ففي الوقت الذي دمرت المدن المجاورة لتلمسان فقد نجحت تلمسان في الدفاع عن نفسها، وأصبحت قاعدة المغرب الأوسط باعتبارها ملتقى لعدة طرق تجارية بين البحر والصحراء وبين المغرب الأوسط والأقصى ذات النشاط التجاري الهام حتى في فترات الأزمات المختلفة التي مرت بها .وقد نال بنو عبد الواد مكانة لدى الموحدين وحصلوا على امتيازات اقتصادية وسياسية ولكن بمجرد أن بدأ تقهقر السلطة المركزية استغلوا هذا الضعف لتوطيد أقدامهم في منطقة تلمسان واستقرارهم بها.[2]

بدت العلاقات بين هذه القوى، المغاربية معقدة ومتقلبة، فكانت تلمسان في موقف حرج نتيجة للتنافس التقليدي بينها وبين المرينيين، فكان هذا يدفعها إلى الوقوف ضدهم إلى جانب الموحدين وهذا الولاء لم يكن في صالحها، لأن قوة الموحدين بدأت تنهار بينما تزداد قوة المرينيين باستمرار ومن جهة أخرى كانت تلمسان تحاول الاستيلاء على المغرب الأوسط فاصطدمت بمطامح الحفصيين المتفوقين عليها .كانت الظروف العامة ملائمة لقيام دولة بني عبد

---

[1] نوشي(أندري) بريان (أندري) لاكوست (ايف) : الجزائر بين الماضي والحاضر ،ترجمة ،اسطنبولي (رابح) و عاشور (منصف) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1984 ،ص-ص 116-122.

[2] بورويبة(رشيد) وآخرون: الجزائر في التاريخ (3) العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984 ،ص،ص 312-313.

الوادحيث المرينيون والموحدون منهمكون في الصراع على المغرب الأقصى وعاصمة الحفصيين بعيدة، إلا أن الظروف الداخلية في مملكة بني عبد الواد خاصة والمغرب الأوسط عامة لم تكن تسمح بقيام دولة قوية إذ أ ن فوضى القبائل العربية ومنافسة بعض بطون زناته كبني توجين، وآل منديل أمراء مغراوة لها ،إضافة إلى الظروف الجغرافية للمنطقة والطابع الرعوي لها ومطامع الجيران الأقوياء فرضت على مملكة بني عبد ألواد البقاء طوال تاريخها محصورة بين إمارتين مهددة على الدوام من ج يرانها،حيث تخضع أحيانا للاحتلال أو الحماية وأحيانا أخرى تتمتع باستقلال يشوبه الاضطراب الداخلي والتهديد الخارجي .فالحفصيون كانوا يطمحون إلى وراثة ملك الموحدين فهاجموا تلمسان وعندما لم يكن باستطاعة الموحدين تقديم العون لها قررت التصالح معهم وأعلنت استعدادها للتعاون معهم والقبول بقيادتهم .كما اضطرت بعد سلسلة هزائم أمام المرينيين إلى التهادن معهم في محاولة لاستغلال تدخل المرينيين في الأندلس فسع ت إلى عقد حلف مع بني الأحمر ملوك غرناطة الذين بدءوا يتآمرون ضد المرينيين، بعد أن استنجدوا بهم- واشترك ملك قشتالة المسيحي في هذا الحلف -، وحاول المرينيون إقناع بنو عبد ألواد بالتخلي عن هذا التحالف ولكن دون جدوى، حيث عاد الن زاع من جديد بين المملكتين مما جعل بني عبد الواد يقتنعون بوجوب تغيير سياستهم بالإقلا ع عن سياسة المجابهة مع المرينيين وأن يتخذوا معهم موقفا دفاعيا وأن يصرفوا جهدهم إلى التوسع نحو الشرق على حساب الحفصيين.(1)

فسعى أبو سعيد عثمان 1283-1304م سلطان بنو عبد ألواد إلى تطبيق سياسته الجديدة فتهادن في بادئ الأمر مع المرينيين وانصرف إلى إخضاع قبائل توجين وآل منديل ومحاو لة الاستيلاء على متيجة و بجاية وتشجيع القبائل العربية الثائرة على الحفصيين، فلجأ الحفصيون إلى التحالف والتعاون مع المرينيين ضدها فاضطر الزيانيون للعودة إلى سياسة الدفاع .ونجح المرينيون سنة 1337م في احتلال تلمسان بعد حصار دام عامين فخضعت لهم عشر سنوات حتى تحررت سنة 1348م مستغلة فشل المرينيون في حملاتهم في المغرب الأدنى، ثم عادوا لاحتلالها سنة 1352م و لم تتخلص من هذا الاحتلال حتى سنة 1359م وفي هذه الفترة أعاد أبو حمو الثاني تأسيس الدولة بعد تحرير تلمسان وأطلق عليها اسم الدولة الزيانية، وظلت هذه الدولة أكثر من

(1) بوروينة وآخرون:نفس المرجع، ص-ص374-379.

نصف قرن تتحمل ثقل ضغط المرينين الذين عملوا على الإ يقاع بين أفـراد الأسـرة الزيانيـة وتشجيع بعضهم وتقديم المساعدة لهم ضد منافسيهم . لم تتخلص تلمسان من التهديـد المـريني حتى أوائل القرن 15م إذ نجح السلطان أبو مالك عبد الواحـد 1411-1440م في مطـاردة المرينيين حتى فاس واستطاع مد سلطته إلى غاية وهران حيث كان ميناؤها متنفس لهم[1] ووسع من تبادله التجاري مع الدول الأوروبية و قبائل الصحراء .[2] لكن توسعه في الجزائر الـشرقية الحفصية فتح باب الصراع مع الحفصيين ، حيث هاجم السلطان الحفصي أبو فارس تلمـسان ودخلها عام 1424 ثم نصب عليها أميرا زيانيا مواليا له لكن هذا الأمير بمجرد أ ن وطد أمـره بتلمسان رفض السيادة الحفصية [3] وقد اتبع الحفصيون الأسلوب المـريني في إثـارة الدسـائس والمنافسات بين أفراد أسرة الزيانيين مما ساهم كثيرا في انتشار التمرد والفوضى وكثرة تعاقـب الحكام وقصر مدة حكمهم، فكان هذا عاملا في تمزق هذه المملكة و إفلات معظـم المغـر ب الأوسط من قبضتها فتقلصت مساحتها وضعفت وتفككت . لما استقلت المناطق الواقعـة بـين المملكة الزيانية و الممتلكات الحفصية . فأصبح المغرب الأوسط يعيش حالـة مـن أللآمـن، إذ استقلت بلاد القبائل و أصبحت تحت سلطة إمارة كوكو وأمست المنطقة بين عنابة والقل تحت سيطرة حاكم قسنطينة الحفصي.[4] حاول بنو عبد ألواد التصدي للأخطار القائمة ففكـروا في نقل عاصمة دولتهم إلى مدينة الجزائر إلا أن سرعة القوتين المجاورتين حالـت دون اسـتمرارها كدولة مؤثرة في المنطقة.[5]

2-الدولة الحفصية:

صنع الموحدين الدولة الحفصية للقضاء على ثورة ابن غانية وتمرد بعض القبائل وتنسب إلى أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي في قبيلة المصامدة في جنوب المغرب الأقصى ،وكان من أصحاب محمد بن تومرت وقد عين ابن عبد الواحد على تونس سـنة 1206م مـن طـرف الخليفـة الوحدي ثم انفصلت الدولة الحفصية عن الموحدين في عهد أبي زكريا يحي الحفـصي الـذ ي

---

(1) التنسي (محمد بن عبدالله) : تاريخ بني زيان ،ملوك تلمسان ، ترجمة محمود بو عباد ، م . و .ك، الجزائر، ص .ص 8-9

(2) Rosseuw (Saint – Hilaire) Histoire d'Espagne, Tome. S, Edition la Presse Universitaire, Madrid, p-p.157-200

(3) جوليان: المرجع السابق ، ص-ص 322-327.

(4) محمود: المرجع السابق،ص 129.

(5) جوليان : المرجع السابق ، ص-ص. 200-207.

أعلن الاستقلال و أطلق اسم أمير المؤمنين على نفسه عام 1228م كماقام بضم جميع الأراضي طرابلس و تونس و قسنطينة و الجريد و الزاب و جزء من الجزائر و وهران . و تكمن من ضم تلمسان بعد أن قضى على المنافسة المرينية و سيطر على سبته كما تحصل على مساندة العديد من الإمارات الأندلسية،و عندما شعر بضعف سلطة الدولة الموحدية، إستولى أبو زكريا يحي على قسنطينة وبجاية سنة 1230م وفتح الجزائر و الشلف وسائر أوطان مغراوة كما استكمل فتح تلمسان سنة 1242م.[1]

لما أحس بنو مرين بخطر الحفصيين استمالوا بني عبد ألواد للوقوف في وجه هذا الخطر . وكانت عاصمة الجزائر الحفصية هي بجاية ثم صارت الأهمية إلى قسنطينة، غير أنها سرعان ما دب فيها الضعف نتيجة لعامل أساسي وهو الحروب المستمرة بين أبناء الأسرة الحاكمة وبين الحفصيين و المرينيين و الزيانيين من جهة أخرى وضعف شخصياتهم وخاصة في أواخر عهد الدولة الحفصية وقلة اهتمامهم بشؤون الدولة هذه العوامل وغيرها مجتمعة أدت إلى سقوط الدولة الحفصية ونهايتها بعد أن أصبحت خاضعة للأسبان بموجب معاهدة الحماية الموقعة سنة 1535.فقد ظل العهد الحفصي في صراع مع القبائل العربية [2]خاصة قبائل أولاد بليل الذين تمكنوا من الوصول إلى العاصمة و محاصرتها عام 1460 و أصبحت تونس مسرحا للفوضى و الأمراض [3]كما انه خلال هذه الفترة تمكنت الدول الأوروبية أيضا من عقد العديد من التحالفات توجب امتيازات تجارية مكنت من ا لتدخل في شؤون الإمارات المتصارعة تمهيدا لإزالتها، كما استقلت قسنطينة و بجاية و أصبحت ممالك مستقلة تحت سلطة أفراد من الأسرة الحفصية.و نظرا للحروب الأهلية التي دامت قرابة قرن ونصف بين الإمارات الحفصية و المرينية و الزيانية، فظل الشمال الإفريقي يعيش حالة من الفوضى دمرت وحدته وقضت على بعض المحاولات التي قام بها أمراء الدوليتين لتوحيد البلاد ، عدا بجاية التي ظلت مزدهرة ومستقرة تحت سلطة أحد أفراد عائلة الحفصيين إلى غاية 1510 حين تمكن بيدرو نفارو[4] من احتلالها .

---

[1] بوروينة وآخرون : المرجع السابق ،ص –ص425-436.

[2] التنسي: المرجع سابق ،ص.ص 9-10و 78.

[3]جوليان :المرجع السابق ص .ص185-186.

[4] لعب هذا الأمير دورا هاما في احتلال الأسبان للشواطئ الجزائرية وتونس وطرابلس وكان بحار مغامرا أصله من بيسكاي جلبه الملكان الكاثوليكيان ، واستعملاه لتوسع بهما في الشواطئ الإفريقية ، وكان أول والي على وهر ان ولكن بعد الحرب بين فرنسوا الأول والأسبان وأسره

أما علاقات الحفصيين بالأمم المسيحية فقد كانت حسنة في عمومها غلب عليها الطابع التجاري نظرا لـ تأثير استقرار الأندلسيين بتونس وذلك بفضل الهدنة الـتي عقـدها السـلطان الحفصي مع صقلية و اراغون عام 1424 بعد أن فشلت حملة ألفونس الصقلي (Alphonse) للسيطرة على جربه ،كما حاول الملك " الفونس" عام 1435 على رأس أسطول احتلال جربه للمرة الثانية لكنه فشل، فاضطر إلى عقد معاهدة سلم مع الحفصيين، و مـع فلورنـسا عقـد السلطان الحفصي عام 1423 معاهدة سلم و تجارة ثم وسع الاتفاقية لتشمل جنوه أيضا عـام 1433.[1]

3-الدولة المرينية:

بالرغم من انتماء بني مرين وبني عبد الواد إلى زناته فقد كانت الخلافات بينـهم كـبيرة ومستمرة وتعدت إلى اندلاع حروب، و لم يعرف المغرب الأوسط من المرينيين سـوى محاولـة السيطرة ومد النفوذ . إذ لم تعرف الدولة المرينية حدودا واضحة طوال فترة وجودها فـبجانـب نفوذها في بعض المناطق بالأندلس، فقد استولى أبو الحسن من جديد على ندرومة وهنين سـنة 1324م.كما استولى على عدة مدن بالمغرب الأوسط كوهران وتنس و مليانة و مدينة الجزائر عام 1335م، ثم دخل بجاية فرفع عن أهلها ربع الضرائب المفروضة عليهم وترك بها حاميـة ثم توجه إلى قسنطينة وواصل تقدمه إلى تونس فسيطر عليها . أما تلمسان عاصمة دولة بني عبد الواد فقد تعرضت للحصار ست مرات كان أشدها ذلك الذي ضربه أبو يعقـوب السـلطان المريني على تلمسان و دام ثماني سنين وثلاثة أشهر وأيام، مات فيها نحو 120 ألـف شـخص ورغم ذلك فقد فشل في احتلالها و لم يرفع الحصار إلا بمقتل السلطان المريني على يـد أحـد مماليكه سنة 1306م[2] ونتيجة لذلك اكتست الدولة المرينية طابع السياسة الحربية في جميـع علاقاتها مع جيرانها خاصة الدولة الزيانية و الحفصية، بينما ظلت عاجزة عن مواجهة المخـاطر الخارجية إلى أن أصابها الضعف كغيرها من دويلات المغرب ، كما كان لدور الجالية اليهوديـة وتدخلها في المجال الاقتصادي والسياسي العنصر الأساس في تراجع قوة الإمارات المرينية.

=الملك في رافين سنة 1512 و لم يفده الفرنسيين، فاختار التجنيد في الجيوش الاسبانية سنة 1522 ثم قبض عليه شارل الخامس ووضـعه في السجن عام 1529.

[1] Joly (Dominique) : Le Dico des Pirates et de Corsaires, Edition de la Martiniene,Paris ,2005 p, 126

[2] Godard (Léon) : Histoire du Maroc, Edition Atlas, Paris, 1965, p, 394

II-نتائج هذا الصراع:

بدأت منطقة المغرب العربي تشهدضعفا بسبب الخصومات القائمة بين الزيانيين وبني مرين منذ نشوء مملكتيهما من جهة [1] وبينهما وبين الحفصيين من جهة أخرى، نتيجة لرغبة هؤلاء في مد حدودهم أخذوا يتوسعون في المغرب الأوسط ،فسيطروا على بجاية و قسنطينة وأصبح بنو زيان تحت رحمتهم ، مما زاد هذا الوضع تعقيدا و تفاقم انحلال الأخلاق والطوائف الصوفية ، وانتشار نفوذ الزوايا ، وأعمال الحكام التعسفية [2].

في المغرب الأقصى ظهر البرتغال في شواطئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، كما ظهر الأسبان وأصبحت سفنهم تسعى إلى إنشاء مراكز حربية استعمارية سماها الأسبان بريسيديوس (Presidios)والبرتغال فرونتيرا(Franteiras) ومن جهة تكونت الطوائف في صحراء الجزائر وتونس وانفردت بالحكم وانفصلت عن السلطة المركزية لتلمسان أو تونس أو فاس وأخذت عصابات قطع الطرق وحجز القوافل في النمو وتكونت إقطاعية مغاربية في الأقطار الثلاثة من العائلات الثرية والدينية محاولة فرض نفسها على الممالك المرينية ثم الوطاسية والزيانية والحفصية، كما ظهرت الطوائف الصوفية في جميع أنحاء البلاد ، وحاولت اكتساب المال والثروة والسلطة والإفلات من الخضوع للحكم الشرعي وأصبحت تحل وتعقد و تعين المتمردين على الحكم الرسمي وتأسس لهما دويلات ذلك فضلا عن تكوين شبه جمهوريات بحرية في موانئ شواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي مثل طرابلس، جربه، بجاية، جزائر بني مزغنة ،شر شال ،وهران وتطوان.... [3]

هذه الحالة أخذت في تزايد في أواخر القرن الخامس عشر وأدت إلى اجتماع الشروط للتدخل الأجنبي- الإسباني والبرتغالي، خاصة بعد ظهور اسبانيا التي استطاعت تحقيق وحدتها إثر سقوط غرناطة عام 1492بدأت عملية الاضطهاد المنظم ضد المسلمين بقيادة الكاردينال خمينيس ابتداء من عام 1501 تنفيذا لوصية الملكة إيزابيلا قبل موتها في 24 نوفمبر 1504..

كما ظهرت الملاحة الأوروبية في السواحل المغاربية واحتل الأسبان النقاط الإستراتيجية الهامة بشمال إفريقيا وتوسعوا في الأراضي الإسلامية وكانواقد اكتشفوا أمريكا ،وظهر شارل

---

(1) بوروينة و آخرون :المرجع السابق ،ص-ص 155-157.

(2) جلال (يحي) : المغرب العربي الكبير ، المكتب الجامعي الحديث ،ط2 ، مصر ، 1982 ،ص.ص 16-17.

(3)Amoura (Amar) : Résume de l’Histoire de l’Algérie ,Edition ,Raïhana, 2002 ,p117-119.

الخامس[1] الذي جمع على رأسه تقريبا تيجان أوروبا كلها . كما ظهـــر العثمـــانيون في آســـيا الصغرى وفي أوربا، وضعف ت التجارة العربية في البحر المتوسط التي كانـــت مـــصدر اقتـــصاد المسلمين، وطبقت إسبانيا سياسة جديدة، سياسة أكل الرمانة حبة حبة وفقا للمثـــل العـــامي القشتالي الرمانةتأكل حبة حبة [2]،وبذلك فتح باب الصراع المسيحي الإسلامي مـــن جديـــد عقب اتفاق البرتغاليين والأسبان تحت رعاية البابا اسكندر السادس عام 1493 حول اقتـــسام المستعمرات وحل النـــزاع بينهما على أساس انفراد إسبانيا باحتلال الأراضي الإفريقية بالمغرب الأوسطوالبرتغال على غربي المغرب وجدد هذا ا لاتفاق عام 1509 على أساس احتلال المواقع الحيوية والحساسة لأفريقيا كي يضعوا حدا لحروبهم،فشيد ا لاسبان على الشواطئ الإفريقية قلاعا وحصونا سموها بنيون (Penôn)أي الصخرة أو طوري في المراس أمام المدن الكـــبرى المغربيـــة ومن ثم أخذوا يحاربون الشواطئ والأراضي الداخلية.

المبحث الثالث: الأوضاع الخارجية: سقوط الأندلس- ظهور الخلافة العثمانية-والتحرشات الإسبانية و البرتغالية:

كان العالم خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر خاضعا لنفوذ عملاقين هما الخلافة العثمانية في الشرق و إسبانيا المسيحية في الغرب، قوة تحاول السيطرة على شمال إفريقيا وقـــوة تدافع عن وجودها . فلما شرعت إسبانيا في التوسع الاستعماري في شمال أمريكا وإفريقيا قابلتها الخلافة العثمانية بالفتح في آسيا وشرق أوروبا وحاولت مد نفوذ فتحها نحو إفريقيا قصد قطـــع الطريق أمام إسبانيا ،ففتحت مصر عام 1514 وكان الخلفاء العثمانيون على علم تام بالحالة التي يمر بها شمال إفريقيا ولذلك قرروا أن تنشأ دولة على أنقاض الإمارات الـــتي بلغـــت مرحلـــة الشيخوخةوالانهيار المستحكمإذ كانت أخبار مأساة المغرب والأندلس تصل أسماع الخلفاء ، ففكر البعض منهم في إعلان الحرب على إسبانيا وغزوها ، لكن بعدها حال دون ذلك فاضطر وا إلى إرسال أبناء يعقوب وبحارة آخرون للتدخل لإنقاذ المسلمين وكان سبب اتجاه العثمانيين نحو شمال إفريقيا يكمن في اكتشافهم لانتقال مركز الثقل باتجاه إسبانيا بعد اكتشافها لأمريكا ومـــا

---

[1] شارل الخامس أو شار لكا ن :ابن فيليب الجميل وجان المجنونة 1500-1558ملك إسبانيا عام 1516 وملـــك ألمانيـــا 1519 خاض حربا ضد فرنسا دامت 30سنة استولى على روما ودمرها عام 1527 وتونس 1535 وحاول تشكيل تحالف دولي ضد الجزائر بحملة اعتبرها هو غاية تسير لكنها فشلت.

[2] Grano a grano se hade comer la granada

تدره من ثروة سخرتها لتمويل حملاتها ضد المسلمين ، بالإضافة إلى اقتناع الخليفة بما جاء في رسالة احمد بن القاضي الفقيه أبو العباس احمد بن القاضي الزواوي لعروج يذكر فيها " إن بلادنا بقيت إليك أو لأخيك أو للذئب" ويقصد بالذئب الأسبان[1]

I-سقوط الأندلس وبداية الحروب الصليبية الجديدة[2]

بدأالصراع الإسلامي المسيحي في العصر الحديث بتلك الدعوة التي وجهتها الكنيسة الكاثوليكية لجميع الأمم الأوربية تدعوها إلى أن تثأر للهزيمة التي لحقت بالمسيحيين في المشرق الإسلامي، فبدأت الحملات على قرطاجة بدعوى أن دول المغرب الإسلامي ترسل أساطيلها لمضايقة الأساطيل الأوربية في حوض البحر المتوسط ،فكانت أول حملة صليبية قام بها لويس التاسع وانتصر فيها الجيش الحفصي في 05سبتمبر 1370م كانت بمثابة إعلان عن قيام الحروب الصليبية من الأندلس واتخذ النزاع وحرب الاسترداد صفة الحرب المقدسة و ما لبث البابا ورجال الدين البسطاء أن صار لهم يد في توجيهها[3] و بدأت حشود المقاتلين تتدفق من كل أنحاء أوروبا لقتال المسلمين في الأندلس.

استنزف هذا الصراع المستمر من قوة العرب المسلمين حتى تمكن القشتاليون من الاستيلاء على طليطلة سنة 1085م فاعتبر المسيحيون بأن استعادة عاصمتهم القديمة هي نقطة التحول في الصراع وذلك للانتقال من الدفاع الشامل إلى الهجوم الشامل .و اشتدت دعوة الفرسان المسيحيين للقدوم إلى إسبانيا لمحاربة المرابطين كما بذل رجال الكنيسة جهدا كبيرا في المساعدة و تم إخطار الحجاج بأنه من الخير لهم إنفاق أموالهم في الحروب التوسعية لمحاربة المسلمين بدلا من إنفاقها في الحج إلى البقاع المقدسة المسيحية ب فلسطين.لقد تزعم الصراع ضد المسلمين خلال تلك الفترة كل الملوك المسيحيين لكن مع اتحاد ملك اراغون فرديناند[4] الذي تزوج بملكة قشتالة

---

[1] بن علي شغيب (المهدي) : أم الحواضر في الماضي والحاضر – تاريخ مدينة قسنطينة – مطبعة البعث، الجزائر، 1980 ص.ص54-57.

[2] استعمالنا لمصطلح الحرب الصليبية الجديدة فرض نفسه، لان ما قام به الأسبان ضد المسلمين ينطبق تماما مع مفهوم الحروب الصليبية السابقة في المشرق(الأيديولوجية – الوسائل – الأهداف).

[3] الصدوقي (علي احمد) : تاريخ الأندلس الإسلامي ،مطبعة الشروق ، الأردن، 1981 ،ص117.

[4] فرديناند الخامس الكاثوليكي من مواليد سوز 1452-1516م تولي الملك في سنة 1474 اشتهر بأنه سياسي عنيد و جريء، تزوج بإيزابيل ملكة قشتالة، و وحد تقريبا كل شبه الجزيرة الأيبيرية، بما ساعده على تدمير قدرة المغرب الإسلامي على المقاومة و القضاء على مملكة غرناطة سنة 1492.

إيزابيلا[1] وبزواجهم توحدت القيادة للإقليمين ضد قيادة مملكة غرناطة، مما دفع المــ سلمين إلى خوض صراع مرير في الأندلس ضد قوات مشتركة وانتهت بعقد معاهدة مذلة لأميرهـــا، إذ اشترط عليه توقيعها وهو جاثيا على ركبتيه معلنا طاعته وولائه لملك قشتالة وبـــدفع ضــريبة ثقيلة[2].حاول خلالها الامراء الاستنجاد بالمماليك في مصر كما استنجدوا بالدولـــة العثمانيـــ ة **(نظر الملحق رقم 1)**، غير أن كل قوة من القوى الإسلامية آنذاك كانت منـــشغلة بأعبائهـــا، فهناك كان المغول و الدول الأوروبية على حدود الخلافة وفي مصر و الشام كما كان المماليك قد ضعفوا إلى درجة أصبحوا غير قادرين على صد الحملات المسيحية القليلة ، و دفع بأعـــداء المسلمين إلى التطلع إلى احتلا ل المغرب الإسلامي باعتباره القاعدة الأساسية لقوة المسلمين التي انطلق منها الفتح لبلاد الأندلس و التي استمرت طوال عهود حكم المسلمين فيها على الرغم من كل المتناقضات التي هيمنت في بعض الفترات على العلاقات الأندلسية - المغاربيـــة. جـــاءت الحرب الصليبية الجديدة عندما فرض البابا على المسيحيين ضريبة أطلق عليهـــا اســـم ضـــريبة الصليبية. و لم تعد القضية هي قضية بطولة أو تضحية في مواجهة الهجوم الشامل، و لعل مـــن أشهرها قصة موسى بن أبي الغساني الذي وقف في أحلك أيام غرناطة و أكثرها قسوة يدعوا إلى المقاومة وعدم الاستسلام .

اتصفت حرب تحطيم مملكة غرناطة بأنها حقبـ ة عظيمة الشأن في تاريخ المسلمين بما تخللـــها من مقاومة و الثبات و الإصرار، فإن النكبات توالت فيها على أهل الأندلس مدة عشر سنوات بلا انقطاع، فأخذت مدنهم الواحدة بعد الأخرى، و قاتلوا عن كل مدينة وبلـــد ة و حـــصن و برج، بل عن كل صخرة كأنما هم ينتظرون الفتح غير طامعين في أدنى غوث [3].

لم تكن القضية قضية معجزة، بل كان صمودا للدفاع عن العقيدة الإسلامية ومواجهـــة نشاط محاكم التفتيش و ما رافقها من إحراق للمسلمين وتدمير للمساجد وتحويلها إلى كنـــائس

---

[1] إيزابيلا الأولى الكاثوليكية: (Isabelle 1ere la Catholique) ملكة قشتالة، مـــن مواليـــد مدريـــد 1451-1504 تزوجت من فرديناند ملك اراغون Aragon و وحدت مملكتها قشتالة بمملكة اراغون بما ساعد على إكمال وحدة إسبانيا، و هي الوحدة التي هدفت للقضاء على المملكـ ة المغربية في غرناطة . عملت على إقامة محاكم التفتيش و شجعها حقدها على إبادة المسلمين و دعمت وزيرها (خمينيس) لإداراتها.

[2] عصام الدين (عبد الرؤوف الفقي):دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، دا ر الفكر العـــربي، القـــاهرة، 1999 ،ص-ص. 297-299.

[3] المدني : حرب الثلاثمائة سنة....المرجع السابق ،ص 43-44.

واستمرت المحنة أكثر من مائة سنة (1493-1610) حيث هاجر معظمهم إلى المغرب الإسلامي ومنهم من تابع هجرته إلى المشرق واستقر قسم كبير منهم في عاصمة الخلافة العثمانية وفي المدن القريبة منها.

II- العلاقات المسيحية المغاربية:

نتيجة التغيرات التي حصلت في شمال إفريقيا من استقلالية عن الخلافة في المشرق دامت ستة قرون أثمرت الاتصالات الأوربية المغاربية خاصة بجاية إلى عقد العديد من الاتفاقيات التجارية أولها مع مدينة **بيز** عام 1167م حيث استطاع كوكو قريفي(Greiffi Cocco) القنصل العام **لبيز** (Pise) من الاتصال بإفريقيا من أجل الوصول إلى إطلاق سراح بعض الأسرى الذين وقعوا جراء تحطم سفينتهم قبالة سواحل المغرب الأوسط ، لكن في المقابل كان يسعى إلى إقامة علاقات مع بجاية التي كانت في هذه المرحلة العاصمة الحقيقة لشمال إفريقيا ثم عبر إلى المغرب حيث استطاع عقد معاهدة تجارية أخرى.

في عام 1180م تم عقد اتفاقية بين صقلية و تونس و استطاع التجار الصقليين إقامة لعديد من المصارف التجارية في المدن الساحلية التابعة لتونس [1] في عام 1230م عقدت أول معاهدة تجارية بين مملكة تونس و **بيز** . إذ كانت مملكة تونس تظم كل من القالة ، عنابة، القل ، جيجل و بجاية وتمتد إلى غاية شرشال ثم قام الجنوبيين و البنادقة بعقد معاهدة تجارية عام 1236م ، تلتها فلورنسا التي عقدت بدورها معاهدة مع مملكة بني حفص عام 1252م تمحورت حول العمل التجاري و السماح بإقامة كنائس وحرية التجارة، غير أن قيام سان لويس عام 1270م بحملة على تونس لوصول إلى فلسطين برا ضمن حملة صليبية جديدة [2] قطع العلاقات لكنها أبقت على العلاقات فيما يخص السفن البحرية و إنقاذ البحارة المهددين و منع القرصنة على السفن المسيحية و الإسلامية ، إضافة إلى حرية ممارسة الشعائر الدينية كما تمت السيطرة على جيجل من طرف الجنويين ودامت سيطرتهم من القرن الثالث

---

[1] Dhina (Attalah) : les Etats de l'Occident Musulman aux XIV et XV eme Siècle Institution – gouvernement et Administration-, Ed/, O.P.U –ANAL ,Alger ,1984, pp 52-71

[2] و لم يتمكن من تحقيق هذه الأمنية وفي حصار تونس توفي جراء مرض حمى المستنقعات في 25 أوت 1270.

عشر إلى القرن الخامس عشر[1]،لان هذا الميناء الصغير لعب دورا في الحرب البحرية التي اندلعت خلال القرن الخامس عشر[2] التي ستضمن الحرية للمغرب الأوسط و البحر المتوسط .

أما العلاقات في الفترة الحديثة مع الدول والإمارات الأوروبية فقد ظلت في شكلها التجاري إذ استغلت البندقية تراجع دور بيز فتبوأت الصف الأول في التعامل مع المغرب الإسلامي و عقدت اتفاقيات تجارية عام 1456م وجنوه 1465م،كما استطاعت اراغون من تحقيق السبق التجاري الحصول على امتيازات من الحفصيين لصيد المرجان على سواحل إفريقيا الشمالية لما تدره من أرباح و تمكن جاك كور (Jacques Cœur) من إقامة علاقات تجارية مع سلطان تونس و حذا حذوه الملك لويس العاشر (LouisX) و عينت مرسيليا قناصل في سبته و بجاية و أصبحت سفن البندقية تمارس التبادل التجاري عبر محطات معروفة في طرابلس، جربه ، تونس،بجاية، الجزائر ووهران،إلى جانب فلورنسا التي ستقوم ببناء إستراتيجية تجارية مماثلة [3]. غير أن اتجاه الطرفين إلى العمل البحري العسكري أدى إلى تقطع في العلاقات .كما تحصلت إمارتا كاتالونيا و اراغون في تلمسان على امتياز الحق في الاستقرار و الممارسة التجارية .وقد ظلت العلاقات التجارية بين الإمارات المغاربية والمدن الأوربية تتبادل من خلالها العمليات الحربية إلى غاية انطلاق المشروع البرتغالي الاسباني الاستعماري.

III- التحرشات البرتغالية:

بدأت التحرشات البرتغالية في عهد جون الأول (Jean I) الذي بدأ يسعى إلى الخروج من عزلته و اللحاق بركب الدول الكبرى و احتلال مكانة في تاريخ التوسع الاستعماري إذ كانت العمليات البحرية التي يقوم بها سكان المغرب قد أثرت على تجارته البحرية، ونتيجة للحقد الديني المنتشر في شبه الجزيرة الأيبيرية ورغبة هذا الملك في ملاحقة المسلمين والاستحواذ على خيرات المغرب الإسلامي[4] حتى سواحل إفريقيا بدأ من سنة 1414م بدأ في

---

[1]Doumerc(Bernard):Venise et l'Emirat Hafside de Tunis (1231-1535), Ed/Mare Nostrum, Paris,1999, p-p 200-222

[2]Dhina (Attalah) : le Royaume Abdalwadide à l'Epoque d'Abou Hammou Moussa 1er et d'Abou Tachfine, O.P.U Alger 1985 ,p52

[3] Réné (Paul)et Colombe (M) : Les Relations Politico-économiques , Méditerranéenne Au 14-16 Siècle ,Edt/Belin , 1972 ,p 202.

[4]ارشيبالد (ر.لويس) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة عيسى(احمد محمد) و غربال (محمد شفيق)، مكتبة النهضة المصرية ، مصر،1951 ،ص-ص 339-343.

تنظيم أول حملة مشكلة من 130 باخرة تحمل 20ألف جندي التي انطلقت في 25 جويلية 1415م لتصل أمام سبته في 14 أوت و تمكن الأسطول البرتغالي من تجميع قواته وسفنه واخترق التحصينات المقامة على الميناء وبدأ الإنزال و لم تستطيع الحامية رغم المقاومة الشرسة داخل شوارع المدينة الصمود فأضطر قائد الحامية إلى الانسحاب بعد أن أسر أبناءه الثلاثة وتأخر النجدة التي من المقرر أن تصل من فاس و نجح بيدرو دو مينس (Pedro de Meneise) من فرض سيطرته على المدينة ونصب حامية قوية تمهيدا لبداية المشروع الديني المزدوج لاحتلال شمال أفريقيا .

مع ضياع هذه المدينة التي كانت مفتاح مضيق جبل طارق و رئة الأندلس ضاع أمل تقديم المساعدة لمسلمي الأندلس في ثوراتهم المستمرة على الأسبان والبرتغال. وفي عام 1418م حاول السلطان المغربي أن يعمل بشكل فردي لاستعادة مدينة سبته لكنه فشل فقرر الاستعانة بسلطان غرناطة غير أنه فشل أيضا[1].

الملك الفونس الأول بد أ في العمل لاستكمال مشروع جون الأول [2] بناء على نصائح دون فرديناند(Don Ferdinand)[3]قائد فرسان المسيح ،الذي قام بتغطية نفقات الحملة من صندوق الحملات الصليبية الذي وضع له البابا لتمويل هذه الحملات (تبرعات) بهدف السيطرة على طنجة،وفي 12 أوت 1437م انطلق الأسطول ليصل في 26 أوت إلى سبته القاعدة الأولى فقسم الجيش إلى قسمين يتجه القسم الأول بقوة 7 آلاف جندي برا نحو طنجة بقيادة دون هنري(Don Henri) و الثاني يحاصرها بحرا ،و في 25 سبتمبر تجمع الجيشان عند أسوار طنجة حيث بدأ البرتغاليون في هجمات متقطعة اعتقادا منهم استحالة صمود المقاومة امام هذا الحصار غير أن المقاومة الشديدة التي قوبلوا بها حالت دون انتصارهم [4] و اضطر البرتغاليون قي النهاية إلى الانسحاب والتوقيع على معاهدة هدنة يسمح لهم بمقتضاها بالانسحاب بحرا مقابل الإحتفاظ بالأمير دون فردينانداز(Don Ferdinondez)كرهينة لضمان تنفيذ الاتفاقية المتضمنة خاصة الانسحاب من سبته، إلا إن فرسان الملك البرتغال

---

[1]Ferhat (H) : Sabta des Origines aux XIV Siècle, Ed/,Rabat 1993 ,p120
[2]Aurelia (Casarès) : les conflits politiques et commerciaux, au15^{eme} siècle, Ed/Fayard ,1966, p-p, 17-29.
[3] يطلق عليه الأندلسيون خمينيس البرتغال والذي كان يرى ضرورة متابعة قتال المسلمين حيثما وجدوا.
[4] Godard(Michel) : Histoire du Maroc, Ed/ le Berain, Paris,1965, pp331-332

رفضوا تنفيذ الاتفاق وضحوا بالرهينة وترك في الأسر إلى أن مات عـــام 1413م و اعتبرتـــه الكنيسة شهيدا[1].

حاول البرتغاليون الثأر لهزيمة طنجة عام 1458 بإعدادهم لحملة بأسطول قوامه 17 ألف رجل واختاروا الهدف الأول ميناء القصر الصغير ، و الذي كان ميناء حيويا لنـــشاط البحريـــة الإسلامية (عرب الأندلس)وتمكنت من احتلال الميناء في 19 أكتوبر 1458م، ثم بـــدأت في تنظيمه تنظيما عسكريا وتعيين ارنستو دو مينيس (Ernesto de Manses) حاكما عليه و تمكن البرتغال من خلال هذه النقطةمن مهاجمة العديد من الموانئ . تمهيـــدا لتحقيـــق الهـــدف الأساسي وهو طنجة التي أعدت لها حملة جديدة عام 1464غير أنها فشلت ، كما قام بعد مدة بتجهيز حملة ثالثة للسيطرة على سواحل المحيط الأطلسي بأسطول عدده 10 آلاف رجل ضد مدينة أنفا(Anfa) [2] وتمكن من احتلالها وأجبر أهلها على الرحيل نحو بقية المدن.

كانت هذهالانتصارات مشجعة للبرتغاليين للمزيد من التوسع على السواحل المحاذية لجبل طارق فاحتلوا أسيلا الواقعة جنوب غرب طنجة [3] فكان هذا السقوط عاملا في اضـــطراب وقلـــق طنجة التي تحولت إلى مدينة محاصرة من قبل البرتغال فاضطر سكانها إلى الرحيل عنـــها، فـــتم احتلالها دون مقاومة، وعين جون دوبرغونيا ابن الملك الفـــونس(Jean de Baragania) حاكما عليها ،وباحتلال طنجة أصبحت كل المدن الساحلية في يـــد البرتغـــال وفـــق المبـــدأ التوسعي البرتغالي كل أراضي المسلمين للملك.

المبحث الرابع: تطور أهمية البحر المتوسط فـــي الحيـــاة الاقتـــصادية والعسكرية:

أمام التغيرات التي شهدها العالم منذ اكتشاف العالم جديد و تمكن فاسكوا ديغامـــا مـــن اكتشاف طريق جديد نحو الهند وبعد أن تمكن الأوربيين من اكتشاف أواسط إفريقيا وسواحلها بمساعدة البحارة المسلمين [4]و خرائطهم [5] تحولت التجارة الدولية و تغير طريقها، ففقد البحر

---

[1] مدبولي (احمد عز) : تاريخ الحروب الصليبية ،المؤسسة ألا نجلو أمريكية ، ط1 ، بيروت، 1962 ،ص –ص 85-91.

[2]مدينة الدار البيضاء

[3] Godard (Michel) :Op-Cit, p.401

[4] ساهم ماجد الملاح في هذه الكشوف الجغرافية من خلال كتابه الفوائد في أصول علم البحر والقواعد.

[5] العربي(إسماعيل): تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، م.و.ك، الجزائر،1984،ص.ص 147-148.

المتوسط أهميته مع العالم الإسلامي و لم تعد تلك القوافل من السفن التجارية تجوبه نظرا لأهميتـــه فقد أصبح مساحة شاسعة من الصراعين البحارة المسلمين و الفرسان المسيحيين وتارة اخرى بعمل منظم من قبل الأمم الأوربية ، فقد ساهمت العديد من العوامل في خلق الصراع في حوض المتوسط خلال أكثر من ثلاثة قرون ..[1]كان العامل الديني أق واها ومحركها الأساســـي، فقـــد أظهرت الكنيسة تأثيرها المعنوي والمادي في توجيه موازين القوى إلى جانب المنافسات التجارية واكتشاف أهمية الطرق البحرية ذات أبعاد إستراتجية فقد اكتسب البحر المتوسط أهمية في كونه منطقة حضارية وفي كونه أيضا طريقا عالميا للتجارة والعبور الدوليين بين أجزاء العالم القديم في العصر القديم والوسيط وبين العالم الجديد في العصر الحديث.

فقد ظل البحر المتوسط حلقة وصل بين أجزاء العالم من خلال طرقه ومـــصادر ثروتـــه و برزت على ضفافه عدة قوى سياسية تركزت أساسا في جنوب غرب أوروبا وشمـــال إفريقيـــا وشرق المتوط وكانت العلاقة الرابط ة بينهم علاقة صراع خاصة بين الأسبان والبرتغاليين ضد المسلمين،الفارين من الأندلس أو مسلمي بلدان المغرب الإسلامي والدول المغربية ضـــد الممالك الأوربية وأساطيل قراصنتها في غرب أوروبا وجنوبها وبعض الجمعيـــات المتـــشددة إلى جانب فرنسا و اسبانيا المسيحيتين الكاثوليكيتين ضد بعضهما البعض خاصة في عهـــد فرنـــسوا الأول وشارل الخامس [2]كما سعي كل منهما إلى تتويج نفسه بتـــاج الكاثوليكيـــة والادعـــاء بحمايتها ويقابل ذلك الوجود العثماني ضد هذه القوى والإمارات المسيحية وأساطيل قراصـــنتها في شرق وغرب البحر المتوسط.

نتيجة لضعف الإمارات الإسلامية فقد ساهم ذلك في زوال أهمية الـــسواحل الجنوبيـــة كمنافس قوي للإمارات الأوربية ومقاوم للهجمة المسيحية الجديدة وبروز ضغط أور وبي منظم تدعمه الكنيسة[3]،غير أن التراكم المتزايد لدور ونشاط الأساطيل الإسلامية في البحر المتوســـط خاصة بعدقيام الدولة الجزائرية ساهم في إقناع الشعوب الإسلامية في الضفة الجنوبيـــة للبحـــر المتوسط عن قدرتها على القضاء على المنافسة ومقدرتها على تحمل الصعوبات.بمهارتهم في فـــن

---

[1]Heers(Jacques):Les Barbaresques, la Course et la Guerre en Méditerranée ,Coll. Perrin ,Paris 2001, p 256

[2]Herré Coutau(Bigarie) : l'Emergence d'une pensée Naval en Europe au XVI et au début du XVII e Siècle ,Ed/ le mêre,Paris, 2000,p205

[3]بوعزيز (يحي) : مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ،ط1،د .م .ج ، 1999 ص 41-42.

الملاحة والغزو، وهي الانطباعات التي جعلت الدول الأوربية تميل إلى التسوية السلمية لتراعاتها وقبول الحلول المرهقة ماليا ومعنويا انه بعد تصفية الدول الأوربية لتراعاتها الدينية والسياسية التي كانت العامل في ترضية دول المغرب ، فبدأت في سياسة استرجاع الضمانة والزعامة بالقوة

لقد استعانت شعوب أوروبا في هذه الفترة بقراصنة البحر وقوات شارل الخامس وبعض دويلات الإيطالية على رأسها البندقية وفرسان مالطة لفرض السيطرة على البحر المتوسط [1]

وهو ما دفع الخلافة العثمانية إلى دعم بعض البحارة لمقاومة الأساطيل الأوربية وركزت الخلافة على الدفاع عن موانئ المغرب الساحلية الإسلامية كقاعدة لنفوذها على البحر وإشغال الأساطيل الأوربية عن الحرب الدائرة في شرق المتوسط التي يتحمس لها البابوات ويدعون لعالميتها ضد المسلمين عامة والعثمانيين خاصة [2].

ظهر مصطلح القرصنة الحديث كحلقة من حلقات الصراع ،كالحروب البحرية التقليدية فهي ليست في الحقيقة الأمرسوى عمل بحري، فقد اخترع الأوربيين هذه اللفظة "القرصنة" وبدأت هذه الحرب في القرن 14 بصفة عنيفة بين المسلمين والنصارى ودامت أربعة قرون بدأها البحارة الأوربيين .بمختلف البلدان المجاورة للبحر المتوسط وحاولوا إلصاقها بالمسلمين الذين كان رد فعلهم حسب الفعل الحاصل وهو الإغارة على السفن المسيحية وبقيت القرصنة قائمة منذ العصور الوسطى إلى سنة 1856م وهو تاريخ انعقاد مؤتمر باريس الذي منع وحرم القرصنة[3].

أما بالنسبة للمغرب الإسلامي فأمام التدهور العام بدأت ملامح الاستغاثة تطفوا على السطح، واتسعت الفوضى والانقسام الموزعة السلطة بين الزيانيين و الحفصيين وسلاطين الصحراء من بني جلاب وكثرت المجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية فدفع بذلك بعض العلماء أمثال عبد الرحمن الثعالبي إلى توجيه رسالة للملوك والشعب معا يدعوهم فيها إلى نبذ الصراع والاتحاد لمقاومة التهديدات المستمرة للقراصنة الأسبان والبرتغاليين ، فلعب دورا اساسيا

---

[1] العربي(إسماعيل) : العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة الأمريكية 1776-1816 ، ط2 المؤسسة الوطنية للكتاب، د.م.ج، 1984 ص.ص 11-12.

[2] بوعزيز : نفس المرجع السابق ، ص 44.

[3] وهي لفظة دخيلة على العربية وإنما كلمة استعيرت، وهي مشتقة من كلمة كورس بالإيطالية وكورس بالفرنسية وهي الإغارة في البحر على العدو.

في التحريض على الجهاد وتوقع الهجوم على مناطق المغرب ، وبعد أن قويت شوكة الأسبان بفضل الخيرات التي كانت تتدفق على بلادهم باستعمال البحر المتوسط من العالم الجديد و بفضل تطور الأسلحة فأخذوا يفكرون في التوسع في البلاد الإسلامية كلها ومحو الإسلام ونشر المسيحية[1].

كان العثمانيون ذو نفوذ في الشرق الأوسط و آسيا الصغرى والبلقان واليونان وأوروبا الوسطى، فأخذت قواتهم تتصادم مع القوات المسيحية في البحر المتوسط ابتداء من سنة 1503 وكونوا أسطولا عثمانيا هاما مكنهم من صد الهجمات المسيحية ضد المسلمين الفارين من الأندلس[2]. وتزامن هذا مع ظهور القوة الإسلامية البحرية التي قادها أبناء يعقوب العثماني لتبدأ جولة من الصراع بين القوى البحرية الأوربية و الإسلامية قادها بحارة المسلمين من أمثال أبناء يعقوب الذين عرفوا في التاريخ المسيحي بأنهم قراصنة، إذ استطاعوا فرض سيطرتهم على البحر وكانت هجماتهم البحرية على سواحل القسم الشمالي من البحر الأبيض المتوسط تهدف إلى تأمين الفتوحات الإسلامية والضغط على الدول البحرية ،فكانت بالنسبة لهم حربا بمفهوم الجهاد في سبيل الله .

نظرا لتطور مفهوم القرصنة عبر العصور إلى نوعين متمايزين :أولهما القرصنة القائمة على السلب والنهب والقرصنة التي تعتبر نوعا من الحروب البحرية –الدفاعية-وهدفها ضرب اقتصاديات العدو[3]، ثم ارتبطت بعد ذلك أعمال القرصنة بتجارة الرقيق نتيجة تعاظم الحاجة للقدرة البشرية في الاقتصاد وهيمنت إسبانيا على القرصنة وتجارة الرقيق و السيطرة على ما وراء البحار،غير أنها سرعان ما انسحبت من الميدان تاركة المجال للإنجليز الذين جردوا فرنسا من ممتلكاتها ودمروا الأسطول الإسباني في مرات متتالية [4] وعندما انتهى الصراع بمعاهدة أوتر

---

[1] سعدالله (ابو القاسم) : أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ، القسم الأول ،ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار ، الجزائر ،1981، ص 201-211.

[2] كارديلاك(لوي) : المورسيكيون الأندلسيون والمسيحيون ،تعريب وتقديم التميمي(عبد الجليل)،منشورات المجلة التاريخية المغربية ود.م.ج، الجزائر، ،1983 ص –ص 23-42.

[3] عبد العزيز (سالم)و العيادي (احمد مختار):تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس،دار النهضة العربية،بيروت ،1969 ،ص-ص33-51

[4] بمنح إنكلترا امتيازا لمدة ثلاثين سنة باحتكار تجارة الرقيق بين إسبانيا وأمريكا

يخت-راستات [1]ويعتبر فريدريك وليام بل "بأن القرصنة لم تكن حدثا تاريخيا جديدا في البحر المتوسط ،فمنذ قرون عديدة كان المسلمون والمسيحيون يقومون بأعمال القرصنة المتبادلة في البحرولا يحق لنا أن نغالط التاريخ،فإن القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيرا جدا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، في البحر المتوسط ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك بسبب تناقص وتدني قدرتها على مواجهة التطور الحاصل في البحرية الإسلامية واتجاه عملها نحو المحيط الأطلسي بعد اكتشافالعالم الجديد ، لكن القرصنة الإسلامية ازدادت واتسع نطاقها في شكل دفاع وهجوم في آن واحد في الشمال الإفريقي ، وحتى في المحيط الأطلسي خاصة بعد إبعاد مسلمي إسبانيا ،لذافان القرصنة كانت بالنسبة للمسلمين نوعا من الجهاد مسرحه البحر.

شهد هذا الجهاد تطورا مع نهاية القرن الخامس عشر، إثر فتح القسطنطينية من قبل العثمانيين سنة 1453 حيث ازداد نشاط البحرية الإسلامية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط.[2] بعد انضمام المغاربة والأندلسيين إلى ميدانها واتخاذها صور الجهادالقومي والديني كما بدأت الشواطئ الأسبانية تشهد غارات بحريةسيما في المياه الجنوبية حيث كانت تتجدد بإستمرار منذ أوائل القرن السادس عشر معتمدةعلى شواطئ المغرب بطبيعتها الوعرة وثغورها مراسيها،وخلجانها الكثيرة التي تحميها الصخور العالية التي أصبحت ملاذا لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين ،وكانت مياه الجزائر ،بجاية وتونس أفضل القواعد للرسووالإبحار.

كما ظهر في هذا الوقت عنصر جديد غذىموجة الغارات البحرية في هذه المياه ذلك أن البحارة العثمانيين أخذوا يندفعون نحو غرب البحر الأبيض المتوسط في مواجهة الأسبان ومخططاتهم وبرز منهم على الأخصأبناء يعقوب الذين خاضوا حربا ضد الصليبيين اشتملت على ثلاثة محاور أساسية: الأولى في البحر والثانية لإنقاذ أهل الأندلس والثالثة لمنع الأسبان من احتلال شمال إفريقيا [3] وهو ما يعني أن توقف الحروب الصليبية فيالمشرق لم يضع حدا نهائيا

---

[1] التميمي (الهادي): مفهوم الإمبريالية من عصر الاستعمار العسكري إلى العولمة، دار محمد علي الحامي، تونس، 2004 ص.ص 13-14.

[2] بل (فريدريك وليام) : الصراع البحري والقرصنة العالمية ،ترجمة السيد (فؤاد) ، الجزء 1،ط 2 ، مطبوعات الجامعة، القاهرة، 1977،ص-ص 65-90.

[3] Emmanuelli (René): Gênes et l'Espagne dans la Guerre de Course (1559-1569), Ed/ Société Médiévales Méditerranéennes, Paris, 1964 p-p 20-23.

لهذه الحروب، إذ تحول الصراع إلى ثلاث جبهات الأولى في أوروبا والثانية في الأندلس بالإضافة إلى جبهة البحر المتوسط . في المقابل فإن الأسبان الذين قضوا على آخر معقل للمسلمين في الأندلس حاولوا توسيع دائرة نشاطهم الاستعماري ، لذلك اندفع العثمانيون بهدف دعم أبناء المغرب الإسلامي للتصدي لهذه الموجة الصليبية الجديدة وكان الفضل في ذلك يعود للأخوين عروج وخير الدين مستعينين بقوة جديدة أخذت على عاتقها قيادة العالم الإسلامي وكانت هذه القوة هي قوة العثمانيين.

المبحث الخامس: ظهور الخلافة الإسلامية وعلاقاتها مع البلاد الإسلامية:

أ - قيام الخلافة الإسلامية ودورها في التصدي للمشروع الاستعماري الأسباني:

يعتبر ظهور الدولة العثمانية في الركن الشمالي الغربي من الأناضول حدثا تاريخيا مهما ، خاصة بعد فتح القسطنطينية سنة 1453 على يد السلطان محمد الفاتح ، وعثمنة الإطار السياسي بالأناضول ثم الغرب الأوربي ثم المنطقة العربية وأصبحت استانبول مركز الثقل للعالم الإسلامي بفضل حركتها التجارية والاقتصادية والثقافية وخصوصا السياسية ، فقد طرأ على الإدارة تبني أنظمة وقوانين ودساتير جديدة ، مما جعل الدولة العثمانية على مستوى الرقعة الإسلامية من اكبر وأبقى الدول الإسلامية الكبرى و أزخرها مادة وأحداثا فقد تولى على عرشها أربعون حاكما خلال 406 سنة جمعوا بين أيديهم السلطتين الزمنية والروحية.[1]

وكان هذا العمل يهدف بالدرجة الأولى إلى إقامة دولة مركزية قوية تدار من مركز واحد، مما أنعش الروح الصليبية من جديد بتأييد من البابا واستطاع الأوربيون حشد قوة لتحرير الروملي وفك الحصار عن القسطنطينية، غير أن هذه الحشود سرعان ما انهزمت في نيكبولي عام 1396م، فلجأ البابا والإمبراطور البيزنطي إلى التحالف مع تيمورلنك قائد المغول . وكانت الجهود الرامية لترسيخ المبادئ الإسلامية الحنيفة قد بدأت تعمل على زخرفة مبدأ الجهاد بمفهومه التقليدي، غير أن انهزام بايزيد أمام تيمورلنك في 28 جويلية 1402م قضت على مشروع الدولة الإسلامية[2] إلى غاية ظهور مراد الثاني الذي استطاع استكمال مشروع بايزيد وبعث الدولة العثمانية و تحريك سياسة الفتح من جديد، غير أنه تفادى نظام الدولة المركزية، وعقب

---

[1] كوبرلي(محمد فؤاد) : قيام الدولة العثمانية ،ترجمة سليمان(احمد سعيد)، مؤسسة الكتاب، القاهرة، 1967، ص 70.

[2] أوغلي (أكمل الدين إحسان): الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، تركيا، 2002 ،ص.ص. 19-20.

وفاة مراد الثاني 1451 تولى ابنه محمد الفاتح العرش وبدأت الدولة العثمانية تـدخل مرحلـة الخلافة بمجرد فتح القسطنطينية.[1]

لاشك أن فتحا عظيما كهذا سوف يجعل السلطان الشاب يتبوأ مكانة عظيمة في كافـة أنحاء العالم الإسلامي باعتباره الأمير الذي حقق أمنية المسلمين و سيكفل له هذا الفتح القـدرة على تهيئة السياسة الداخلية للدولة ويدعم نفوذه من أجل تطبيق الإصلاحات اللازمـة لتـشييد الإدارة المركزية[2]أما من ناحية البحر فقد كانت البندقية تحتفظ بالقواعد التجاريـة البحريـة المهمة على شواطئ ألمورة (ابولي، مودون، كورون) .كما أن الصراع العثماني البنـدقي قـد كشف مرة أخرى عن ضعف القوة البحرية العثمانية إلا أنه كان ضـربة للمـصالح التجاريـة للبندقية كما أن الصلح الذي عقد عام 1479م مع البنادقة كان عاملا لازدياد النشاط البحري العثماني في محاولة للامتداد داخل أوروبا [3]بفتح ايطاليا نفسها، غير أن وفاة السلطان الفاتح عام 1481م حالت دون تجسيد هذا المشروع الكبير [4] ولكن هذه العملية أتاحت لهم الـتحكم في سواحل الأناضول و ألمورة فكان ذلك تطورا عظيما لأنه ضمن للعثمانيين قـدرة الـتحكم في البحر الأسود أيضا وتوجيه حركة الجهاد نحو بحر إيجة والبحر المتوسط و التي ستمتد إلى البحـر الأحمر ضد البرتغاليين.

كان تدعيم القوة البحرية العثمانية أمرا جعل العثمانيين قادرين على تحدي البنادقة، كمـا كانت أعمال البحارة العثمانيين الذين يتمركزون في شمال إفريقيا داخل البحر المتوسط والـذين يشبهون قوات الطلائع على امتداد الحدود بدأت تشكل امتداد حقيقيـا لهـم [5] واسـتطاع العثمانيون الإستيلاء على أهم قواعد البندقية (مودون، كورون، لبانت) بمساعدة القوات البحرية و أقرت لهم مكانة جديدة في عملية توازن القوى، غير أن العثمانيين أصحاب الدولة المجاهـدة القوية الوحيدة والنشطة في أوروبا والبحر المتوسط لم يستطيعوا -بسبب حادثة الأمير جيم [6] أن

---

[1] Mantran (Robert): Histoire de l'Empire Ottoman, Ed/Fayard, Paris, 2003, pp21-23.

[2] أوغلي : المرجع السابق ،ص-ص 21-24.

[3] النهروالي(قطب الدين محمد بن احمد): البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض،1967،ص-ص70-81.

[4] Mantran: ibid ,p 50

[5] أوغلي: المرجع السابق ، ص -ص 26-29.

[6] لجوء الأمير بعد خلاف مع بايزيد الثاني حول الحكم واستقراره برودس وأصبح لعبة في يد الأوربيين، وكان فرسان رودس والبابا والفرنسيين يفكرون في الاستفادة منه والاعتراف به سلطانا مقابل تنازلات، غير انه توفي عام 1495.

يلبوا كما ينبغي دعوة المسلمين في الأندلس لمساعدتهم عام 1482م على الرغم مـــن تعـــاطفهم ورغبتهم في تلبية ندائهم ، فتركوا مسألة المساعدة للبحارة المسلمين في البحر المتوسط.وكمـــا أن الأسبان أتموا عام 1492م عملية احتلال غرناطة وشرعوا في تهديد شمال إفريقيا . و في المقابـــل كان كمال ريس رئيس البحارة العثمانيين النشطين في غرب المتوسط يقوم بترتيب الغارات على الأندلس وينقل المسلمين إلى سواحل الشمال الإفريقي واستمرت عملية النقل تلك على فترات متقطعة إلى غاية ظهور الأخوة أبناء يعقوب.[1]

و قدتزامن هذا التطور في الصراع مع بروز تطورات مهمة في أوروبا، إذ بدأت حركـــة الكشوف الجغرافية،حيث نجح البرتغاليون في اكتشاف طريق جديد للهند، ثم شـــرعوا عـــام 1502م في توجيه ضربات قوية لأعمال التجار العرب وبالتالي التجـــارة في البحـــر المتوســـط واستطاعوا النفوذ إلى خليج البصرة والبحر الأحمر، كما أصبحوا يشكلون خطرا كـــبيرا يهـــدد الأماكن المقدسة في محاولة لعزل الجزيرة العربية مما دفع الأهالي وا لأشراف إلى طلـــب العـــون مباشرة من العثمانيين فخرج السلطان سليم الأول لفتح مصر كمرحلة أولى [2]. واضعا علـــى عاتقه واجبا مقدسا هو الدفاع عن العالم الإسلامي ومع فتحها تحمل العثمانيون أعباء الدفاع عن الأماكن المقدسة، وعلت مكانتهم في العالم الإسلا مي.وبدخول الشام ومصر تحت سيادتهم تحقق لهم من الناحية الاقتصادية فوائد كثيرة، وأخذ الركود الذي خيم على تجارة البحـــر المتوســـط خلال عدة قرون يترك مكانة لانتعاش تدريجي .جاء سقوط الحكم المملوكي في مـــصر يحمـــل إمكانية جديدة بالنسبة للدولة العثمانية وهي مسألة الخلافة .[3] فالعثمانيون لم يروا في الخلافة في شكلها الوراثي نظاما بل فهموها على أنها حق طبيعي كما يدل عليه ا معناها تماما ،إذ شكلت ركيزة أساسية لهم في حكم البلاد الاسلامية منذ عهد مراد الأول وبعد فتح سليم لمصر . فقـــد حمل سليم لقب خادم الحرمين و قام بنقل الخليفة العبـ اسي من القاهرة م ع الأمانـــات المقدســـة والآثار النبوية الشريفة[البيرق – السيف – البردة][4] التي استلمها من شريف مكة ابن بركات إلى استانبول بعد أن تنازل له المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن حقه في الخلافة وقدرفع

---

[1] أوغلي: المرجع السابق ، ص30.

[2] Mantran: op-cit .pp96-100.

[3] عمرعبد العزيز(عمر): دراسات في تاريخ العرب الحديث ،ط1،دار النهضة العربية ،بيروت ،1981 ص-ص 49-52.

[4] كوبرلي :المرجع السابق، ص 82-84.

بذلك من مكانته في نظر الحكام المسلمين [1] وازداد حيوية في عهد السلطان سليمان القـــانوني، فقداستخدمت ألقاب للسلطان[2] وهذه الألقاب انعكاسا لفهم الخلافة بمعناها العالمي الشامل [3]، ويكشف عن مشروع العثمانيين سيما في عهود التصدع والانهيار على التأكيد على دعواهم الى خلافة كافة المسلمين كان بهدف الحيلولة دون تزعزع نفوذهم في العالم الإسلامي.[4]

بعد أن كشف العثمانيون عن قدرتهم السياسية في الشرق، شرعوا في اســتئناف حركـــة الجهاد ضد أوربا من جديد وأصبح في وسعهم أن يعدوا أنفسهم لكي يكونوا عنـــصر تـــوازن جديد في السياسة العالمية فكان للنشاط السياسي والعسكري المكثف الـــذي وقـــع في عهـــد السلطان سليمان الأول 1520-1566م أن لعب دورا مؤثرا في تحمل مسؤولية قيـــادة العـــالم الإسلامي وحمايته من العالم المسيحي وإبراز مبدأ العدالة جعل من الخلافة الإسلامية قوة مؤثرة في التوازن الدولي[5] خاصة أمام استمرار عقبة رودس التي كانت تمثل سدا طبيعيا بالنسبة لحركـــة واسعة في البحر المتوسط، سيما و أن الجزيرة تحتل موقعا يمكنه من قطع الارتباط مع مصر وهو ما دفع العديد من الدول الأوربية إلى استغلال موقعها للتأثير في الملاحة المتوسطية من خـــلال إعادة بعث بعض الحركات الدينية القديمة مثل فرسان المسيح و خيول الصليب ،كمـــا كـــان فرسان رودس المرابطين هناك يشكلون خطرا عظيما باعتبارهم وحدة الطلائع المسيحية الأقرب إلى سواحل البلاد الإسلامية الجنوبية، لذا رفع راية الجهاد وتمكن من الاستيلاء على رودس عام 1522م وكانت بمثابة المفتاح لنجاح العثمانيين في الغرب.[6] ومع ظهور شارل الخامس الـــذي استطاع أن يعتلى عرش الألمان والأسبان اثر نجاحه في الصراع الذي خاضه مع فرنـــسا مكـــن العثمانيين من التأثير على سياسة أوروبا، عندما وقع فرنسوا الأول أسيرا في يد شارل الخـــامس

---

[1] التر (عزيز سامح) : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة عامر(محمود علي) ،ط1 ، دار النهضة العربية ، لبنان ، 1998 ،ص 74.

[2] مثل" صاحب الخلافة الكبرى، والإمامة العظمى وخليفة المسلمين"

[3] وتجلى مفهوم الخلافة عند العثمانيين في تأمين طرق الحج-حماية الأماكن المقدسة، الدفاع عن الإسلام والمسلمين ووضعهم تحت الحماية، مبدأ الجهاد ونشر الدين والدفاع عنه،

[4] أوغلي: المرجع السابق ، ص 35.

[5] زيادة (خالد) :اكتشاف التقدم الأوربي –دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن 18- ،دار الطليعة ،بيروت ،ب.س.ط، ص. ص.17-18.

[6] Mantran : op-cit. p.50.

عام 1525م ارع يطلب العون من العثمانيين فانتهز هؤلاء الفرصة وقاموا بكسر أهم خـــط دفاع للمسيحية باحتلال المجر . وبالرغم من تصرفات فرنسا المترددة فإن الاتفاق الذي عقدته مع العثمانيين شكل جانبا مهما لعملية التوازن بين الدول الأوروبية ومع أن فرنسا لم تكن حليفا يوثق فيه، فقد استفاد العثمانيون كثيرا من الاتفاق سواء من الناحية السياسية أو مـــن ناحيـــة الحصول على المعلومات.

II-القوة البحرية العثمانية ودورها:

1- في البحر المتوسط:

كان العثمانيون يعرفون ما سيترتب على وصولهم إلى البحر الأحمر من أهميـــة إســـتراتجية عندما يسيطرون على الشواطئ الشرقية من جنوب الجزيرة العربية و الشواطئ الشرقية للقـــارة الأفريقية وذلك ضمن سياسة الامتداد البحري والبري التي رفعها الأسبان والبرتغاليين وفي هـــذا الإجراء العثماني وسيلة ضغط كبيرة على النفوذ البرتغالي المسيحي من جهة وعلى القوى المؤيدة للبرتغاليين بخاصة الحبشة النصرانية من جهة أخرى [1] فقد رافقت النجاحات التي حققتها القوة العثمانية في البر خلال القرن 16 نجاحات أخرى في البحر،خاصة العهـــود اللاحقـــة لعهـــد السلطان الفاتح إذ تضاعفت القوة البحرية العثمانية وقطعت شوطا عظيما وتفاعلت مع جهود البحارة المهرة الذين تربوا على الجهاد البحري .[2] ففي القرن الخامس عشر ومع تزايـــد الخطـــر الأسباني المخطط له بتعقب المسلمين الفارين من الأندلس ،كان البحارة من أهل الأندلس قـــد نشّطوا حركة الجهاد البحري على سواحل إفريقيا الشمالية في محاولة لمـــساعدة المـــسلمين في ثوراتهم ضد أسبانيا ،أو بإنقاذهم بعد أن عجزت القوى القديمة على نصرتهم [3] والذين لعبـــوا دورا هاما في تحويل البحرية العثمانية إلى قوة مؤثرة . وبدأ صراع متكـــافئ ضـــد أســـرة آل هابسبورغ (**انظر ملحق رقم 2**)في البحر كما كان في البر، لاسيما بعد أن أصبح خـــير الـــدين قائدا للأسطول العثماني فلما تصادم العثمانيون مع الجناح الألماني لآل هابسبورغ في البر كانوا

---

(1) التميمي (عبد الجليل) الولايات العربية ومصادرها ووثائقها في العهد العثماني ،ط 1 ، منـــشورات مركـــز البحـــوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ، تونس ، 1984 ، ص25.

(2) علي ناصر(محمد): تاريخ الاكتشافات الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت ،1956 ، ص 12.

(3) عبد الرحيم(عبد الرحمن عبد الرحيم) : المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798، منشورات المجلة التاريخيـــة المغربيةو د.م.ج، الجزائر، تونس، 1982 ص 16-17.

في الوقت ذاته يخوضون كفاحا مريرا في البحر مع الجناح الأسباني للإمبراطورية التي انفتحـــت على الأطلسي بعد أن استكملت غزوه من جديد [1]. لعب الفرنسيون هم الآخرون دورا هاما في ذلك الصراع، إذ ساعدوا العثمانيين في البحر المتوسط حتى يضيقوا الخناق على الإمبراطورية الإسبانية على الجبهتين . وبعد أن استولى العثمانيون على رودس جرى تأمين الطريق البحري إلى مصر نسبيا و لم يبق في طريق السيادة على شرق المتوسط إلا عقبة واحدة هي جزيرة قبرص التي استطاع خير الدين عام 1538م من خلال تكتيك حـــربي أن يهـــزم أســـطول التحـــالف في بروزه(Paroussa) .

كان العثمانيون قد كشفوا عن بداية تفوقهم في الغرب المتوسط ثم جاءت الهزيمة الفادحة للأسطول الأسباني أمام ساحل الجزائر، والذي كان يقوده الإمبراطور بنفسه عـــام 1541م ثم العمليات المشتركة من العثمانيين والفرنسيين في أعوام 1543م و1553م ثم فتح جربه قاعـــدة الإسبان المهمة عام 1560[2]. كل هذا أكدالتفوق البحري العثماني في البحر المتوسط ثم انتقل التركيز على ضرورة فتح قبرص التي تشكل العقبة الباقية على طريق التجارة وسفن الحج ولما تم فتحها عام 1568 بعد حصار دام قرابة عام جعلوا منها إمارة عـــام 1570 نظـــرا لمركزهـــا الجغرافي المتميزالقرب من السواحل الشرقية الإسلامية [3] وفي مواجهة ذلك تحرك الأســـطول الصليبي الذي جرى تجهيزه تلبية لطلب البندقية بالمساعدة 20 ماي 1571، ورغم أنه لم يصل في موعده إلا أنه استطاع أن يلحق الهزيمة في لبانت بالأسطول العثماني الذي كان قـــد تحـــرك لإيقافهم [4]. تلك الهزيمة التي أدت إلى تزعزع التفوق الذي كانت عليه البحريـــة العثمانيـــة، والذي استمر منذ عام 1538.[5]

غير أن انتصار العالم المسيحي لم يفد كثيرا سوى أنه رفع روحهم المعنوية لفترة وجيـــزة، ففي العام التالي خرج الأسطول العثماني أقوى إلى البحر المتوسط وسإستطاع أن يجبر ا لمتحالفين على الانسحاب من مياهبحر ايجة والادرياتيك ، مما أدى إلى خيبة أمل كبيرة في العالم المسيحي،

---

[1] بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه (أمين) و البعلبكي (منير) ،ط 5 ،دار العلـــم للملايـــين ،بيروت ،1968 ، ص 452.

[2] المحامي (محمد فريد): تاريخ الدولة العلية العثمانية،ط1، تحقيق إحسان حقي،دار النفائس، بيروت ،1981 ،ص257.

[3] المحامي :مرجع سابق ، ص.ص 255-256.

(4) Le Sure (Michel) : Lépante .la Crise de l’Empire Ottoman, Ed/ Paris ,1972, pp. 52-53

[5] أوغلي : المرجع السابق،ص 44.

سيما الأسبان، كما ازدادت تلك الخيبة أكثر عندما تم استرجاع تونس من جديد عام 1574م وهذا الصراع الذي تحقق فيه أكبر الصدامات لأعظم قوتين إحداها في الشرق والثانية في الغرب، قد وضع نهاية لمستقبل الأسبان في شمال إفريقيا ولسياستهم في "استعمار" و "حرب الاسترداد" وبموجب معاهدة عام 1581 تباعدت هاتان القوتان إحداها عن الأخرى[1].

2-في المحيط الهندي:

بعد أن فتح العثمانيون مصر كان هناك أسطول عثماني آخر أخذ يشق طريقه متجها نحو المحيط الهندي عام 1538م وقد بذلوا سواء باعتبارهم حماة الأماكن المقدسة، أو لإعادة الحياة إلى طريق التجارة القديمة جهودا كبيرة لدفاع عن هذه المنطقة، فقد كانوا وهم يحاولون إجهاض العمليات التي يقوم بها الأسبان في البحر المتوسط، وشما لإفريقيا من ناحية، يخو ضون من ناحية أخرى صراعا مع البرتغاليين الذين وصلوا إلى الهند وسيطروا على طريق التوابل ، وعطلوا تجارة البحر المتوسط، كم هددوا أمن الحرمين الشريفين .وقد كانت النداءات التي وجهتها الإمارات المسلمة في الهند التي تضررت مصالحها التجارية أثرها من قيام العمليات الحربية من جانب الأسطول العثماني قد أزعج البرتغاليين ذلك كثيرا وقلص من عملياتهم الحربية . إذ إستولى العثمانيون على اليمن وبعض الأماكن المهمة مثل عدن و زبيد ،وتمكن أوزدمير باشا من الاستيلاء أيضا على المناطق الشمالية الغربية من الحبشة، وأقيمت هناك إمارة اسلامية ، كما تصارع العثمانيون مع البرتغاليين في خليج البصرة .[2] وكانت سيطرة العثمانيين على النقاط المهمة في البحر الأحمر وخليج البصرة، [3] منذ عام 1540م فهيأت السبيل من جديد لعودة السفن ومن ثم انتعاش تجارة البحر المتوسط ولما سيطر العثمانيون على شاطئ البحر الأحمر منعوا البرتغاليين من ممارسة " تبشيرهم" الديني الذي يستهدف الأماكن المقدسة للمسلمين [4] فضلا عن ممارسة الأعمال التجارية.

---

[1] ألتر :المرجع السابق ،ص. ص 44-45.

[2] بدوي(ثروت): الإمارات الإسلامية في المحيط الهندي- زنجبار- والكشوف الجغرافية ،دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1977 ،ص142.

[3] بدوي: نفس المرجع ،ص.144.

[4] جلال(يحي): تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ،1999 ،ص-ص 93-97.

هذا النجاح المتتابع كشف لأسبانيا والبندقية عن قوة الخلافة العثمانيـــة و ثقـــل وزنهـــا السياسي والعسكري والديني المتصاعد وخطورة هذه الدولة الإسلامية على مشاريعهم ،حتى أن البابا ليو العاشر(Lio X) الذي كان يخشى أن تتعرض سلامة أوروبا للخطر ، شرع يعد لحملة صليبية جديدة ضد الخلافة العثمانية والذي افرز تلقائيا تراجع التهديد الصليبي علـــى الـــبلاد الإسلامية وتقدم نجاح التحالف الأوربي لاحتوائها، كما أن العثمانيون استعادوا الموقع الجغرافي العربي لضرب البرتغاليين في البحر الأحمر والأسبانيين و البنادقة وفرسان ما لطة وفرسان القديس يوحنا في رودس وفي عرض البحر المتوسط خاصة الغرب منه الذي يضمن حماية الجناح الغـــربي للخلافة العثمانية وهي القناعة التي وصل إليها سليمان القانوني حينما استجاب لنداء أهل الجزائر[1] ونهضت في تلك الأثناء طرابلس[2] والشام ودمشق الإسكندرية التي كانـــت بمثابـــة أبـــواب الخروج إلى البحر المتوسط .أما في المحيط الأطلسي فإن التقارب العثماني الإنجليزي الذي وقـــع في تلك الآونة لم يستدرج العثمانيين مرة أخرى لعمليات عسكرية أوسع ولمحاولة التوغل خارج هاذين المجالين،[3] بل فضلت عدم انتهاج سياسة أطلسية فعالة تاركة الأمر للدولة الجزائرية.

III - علاقة الخلافة بمسألة الأندلس:

نتيجة لتطورات الأحداث في شبه الجزيرة الأيبيرية في مطلع العصور الحديثة، أصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها، خصوصاً بعد ما خـــضعت لسلطة واحدة بزواج إيزابيلا ملكة قشتالة بفرديناند ملك اراغون ، فاندفعت الممالك الأســـبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة لتصفية الوجود الإسلامي في كل أسبانيا وفرضت أسبانيا أقـــسى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم ،ونتيجة لذلك لجأ المسلمون إلى القيام بثورات في أغلب المدن الأندلسية التي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وفلنسيا وأخمدت تلك الثورات بقوة و بعنف من قبل السلطات الإسبانية التي اتخـــذتها وســـيلة لتعميق الكراهية والحقد للمسلمين

---

[1] التميمي (عبد الجليل): الولايات العربية ... ، المرجع السابق ، ص 72.

[2] تدمري (عمر عبد السلام):تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ،ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،1981 ص -ص410-413.

[3] مؤنس(حسين) : تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي الجزء2-3 مجلد 2 ، ط1 ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ،بيروت ،1992 ،ص 343.

كانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق وبعث الملك الأشرف في مصر بوفـــو د إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ، في حـــين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم و هدد بإتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا المسيحيين ، إذا لم يتوقف هؤلاء عن هذه الممارسة خاصة ترحيل المـــسلمين عـــن أراضيهم وعدم التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، فلم يستجب البابا والملـــك الإســـباني لهذا التهديد، واستمروا في ممارسة خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس بل و أكثر من ذلك لجأ الملك شارل الخامس إلى استصدار أمر بابوي في 12مارس 1524م يقضي بغفران نكث العهد الموقع مع المسلمين لتسهيل عمل دواوين التفتيش في تعميد المسلمين وإرغامهم على الدخول في الدين المسيحي وتخيرهم بين الحرق أحياء في المحارق المقامة خصيصا لهـــم في كـــل المناطق، أو اعتناق الـــصليب الكـــاثوليكي أو النفـــي خـــارج سلـــبانيا دون أملاكهـــم [1] فوجه سكان الأندلس رسالة الاستغاثة لإنقاذ الموقف هناك قبل ضياع الأنفس و قبل أن يـــتم تحويل الجوامع إلى كنائس و الأملاك المحبوسة لها إذ سيصبح جزءا منها ملكا للإقطاعيين وكـــان السلطان بايزيد يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين ، بالإضافة إلى مشكلة الـــتراع على العرش مع الأمير جم [2] وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعـــض الـــدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقيـــة وتكـــوين التحالف الصليبي الجديد ضد الخلافة العثمانية المشكل من قبل البابا جويلس الثاني ،و يـــضم جمهورية البندقية والمجر وفرنسا ، وقد أسفر هذا التحالف توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق ومع ذلك قام الخليفة بايزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهـــود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً يرسل بموجبه الخليفة بايزيد أسطولاً إلى سواحل صـــقلية باعتبارها تابعة لمملكة أسبانيا وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحيـــة إفريقيـــا وبالفعل أرسل بايزيد أسطولاً عثمانياً تجاه الشواطئ الأسبانية وقد أعطى قيادته إلى كمال ريس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر، كما شجع المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدؤوا في

---

[1] كاردياك: نفس المرجع السابق ، ص 113.

[2] التميمي (عبد الجليل) : "رسالة من أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 "، المجلة التاريخية المغاربية ،عدد 3 ، تونس 1985 ، ص-ص 32-46.

التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين ووصل عدد كبير منهم أثناء تشييد الأسطول العثماني، ودخلوا في خدمته بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب المتوسط و بتشجيع هؤلاء البحارة وافتداء الأسرى المسلمين وهذا الذي كان في وسع الخليفة بايزيد فعله أمام تزايد الاسترقاق للمسلمين [1] الذين حرموا من ابسط الحقوق في حين كان الأسير أو الرقيق المسيحي في البلاد الإسلامية يترك حرا يمارس دينه[2].

كما قدمت المساعدة للهيئات الدينية التي تأسست في البلاد المسيحية التي كانت وظيفتها فك أسر النصارى من أيدي المسلمين ،غير أن أغلبهم رفض الرحيل عن بلاد المسلمين نظرا للمعاملة التي يجدونها .[3]

استنتاج جزئي:

هناك العديد من العوامل التي ساهمت في تشتت المنطقة ووقوعها في حلقة الصراع الدائر بين القوى التقليدية والحديثة كما ظهر الصراع في غرب المتوسط خلال أكثر من ثلاثة قرون حركه العامل الديني الذي شكلت قضيته إيجاد الكيفية المثلى لتصفية الوجود الإسلامي في الأندلس كقضية دينية والتوسع الاستعماري ا لإسباني والبرتغالي في شمال إفريقيا تتمة لهذا العمل . لتخفيف الضغط على شرق وسط أوروبا المعرض للفتح الإسلامي.

وأظهرت الكنيسة تأثيرها المعنوي والمادي في توجيه موازين القوى و التحريض على تنصير المسلمين، إلى جانب المنا فسات التجارية بعد اكتشاف أهمية البحر المتوسط كبيرة ذات أبعاد إستراتجية مما جعل الإمارات الضعيفة غير قادرة على تحمل مسؤوليتها فاندثرت.

---

(1) الصلابي(لعلي محمد) : الدولة العثمانية ،ط 3 ، منشورات دار الشرق، بيروت، ص270.

(2) Belhamissi (Moulay) : Les Captifs Algériens et l’Europe Chrétienne, 1518-1830,Ed/, ENAL, Alger, p.67.

(3) مؤنس:المرجع السابق،ص ــص. 353-355.

مقدمة

كان المشروع الأسباني وليد المحاولات السابقة من الأوربيين لاحتلال شمال إفريقيا ،غير أن وجود قوى كدولة الموحدين حالت دون تنفيذ المشروع ومع توحيد الإسبان لدولتهم وطرد المسلمين من الأندلس تم إحياء المشرع القديم الذي بدأ مع أولى الحملات المسيحية على شمال إفريقيا التي قام بها بيار الثالث (Pier III) ملك أراغون 1277م ،الذي سير حملة بحرية هاجمت السواحل و دخلت في مضيق جبل طارق وقضت على أسطول السلطان المغربي و بعد 05 سنوات تمكن بمحاولة ثانية من احتلال القل و في عام 1309م قامت قشتالة و أراغون بإعداد حملة مشتركة تجاه سبته التي كانت تابعة لسلطان غرناطة. وكنتيجة لموقف جنوه المساند لهذه الحملات بدأت العلاقات بينها وبين الحفصيين تتدهور و وصلت إلى حد القطيعة نهاية القرن الرابع عشر مما دفع جنوه إلى إعلان الحرب عليهم عام 1388م و تمكن الأسطول الجنوي من احتلال جزيرة جربه وقرروا التحالف مع فرنسا شارل VI للإعداد لحملة صليبية هدفها القضاء على مدينة مهدية التي كانت تشكل مركزا للعمليات البحرية الإسلامية. غير أن الحملة فشلت نتيجة حرارة الجو والهجمات اليومية بعد حصار دام 61 يوما،هذه الحملات كانت آخر الحملات الأوروبية المشتركة ليفسح المجال لدولتين ظهرتا على الساحة اسبانيا والبرتغال.[1]

إذ بدأ البرتغال في تنظيم أول حملة ضد سبتهو تمكن من احتلاله ا تاركا بها حاميـــة . في عام 1437م حاول تنظيم حملة جديدة ضد طنجة لكنها فـــشلت.غـــير أن هـــذه المحـــاولات الاستعمارية البرتغالية استمرت وتم الإعداد لحملة ثالثة عين على رأسها هيغـــوا دومنكـــاد (Hugo de Moncade) نائب الملك في صقلية .

في خضم هذا الصراع ظهرت اسبانيا التي بنت سياستها على الضغط على ملوك المغـــرب إلى حين دفعهم لقبول الحماية الأسبانية و بعد سقوط غرناطة أصبحت الحملات الإسبانية أكثر تنظيما مما مكن الأسبان من إعداد الحملة بقيادة ديوغو دوكوردوي (Diego de Cordoue) الذي تمكن من السيطرةعلى المرسى الكبير والمدينة عام 1505 -1508م ووضعت حامية بها ثم قام الأميرال بيدرو نفار(Pedro Navarre) الذي أصبح قائدا على صخرة الميناء Penôn

[1] عمر(محمد عبد العزيز) و القوزي(محمد علي): دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815-1950 ،ط1 ،دار النهضة العربية ،بيروت 1999 ،ص 13-14.

(de Velez) على سواحل المغرب الأقصى وبعد السيطرة على وهران من قبل الكاردينال خمينيس [1] و في عام 1510م إستكمل بيدرو نفارو المخطط باحتلال بجاية ووضع حامية كبيرة بها وبعد هذه الحملات أصيبت أغلب المدن المغاربية بالخوف و اعترفت بالحماية الإسبانية و تعهدوا بدفع أموال [2](Tribat) كما تمت السيطرة على طرابلس في العام نفسه و إلحقت بنائب الملك بصقلية كما حاول بيدرو نفارو مع قارسيا دو توليدو (Garcia de Toledo) مهاجمة جزيرة جربه التي أصبحت ملتقى "القراصنة" ، غير أن الحرارة الشديدة و تجمع قواته حول آبار الماء مكنت المسلمين من إلحاق الهزيمة به و بقيت جربه بهذه الحال إلى غاية وصول الإخوة أبناء يعقوب الذين كان لهم الفضل في التصدي للمشروع الاستعماري الإسباني ومن ثم تحرير الثغور الإسلامية.

استندت هذه العمليات السريعة إلى مشروع وضعته الملكة إيزابيلا[3]، إذ قامت بإعداد مخطط للبدء في عمليات الغزو فجمعت المعلومات عن سواحل إفريقيا الشمالية بواسطة المهندس البحري ألبندقي جرونيمو فيانيللي الذي كلفه الكاردينال خمينيس بالانتقال إلى السواحل الإفريقية وبناء على ملاحظاته جندت جيشا قوامه 12000 جندي تحت قيادة الكونت دي تنديليا (De Tendilla) حاكم غرناطة وتبرعت براتبه من مالها الخاص لكن موتها سنة 1504 أوقف المشروع مؤقتا وتركت وصيتها :" إنه لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا ولا إنهاء الصراع ضد الكفار من أجل العقيدة .." [4] فتحمل الكاردينال خمينيس مسؤولية إتمام المشروع.

المبحث الأول: ظهور دولة اسبانيا ونزعتها الاستعمارية:

بدأ ظهور اسبانيا كدولة مع تولي ملك قشتالة جون الثاني الحكم عام 1419 والذي تميز حكمه بالضعف وعدم قدرته على مواجهة الاضطرابات أما في أراغون فقد تولى ألفونس الخامس (Alphonse V) الحكم خلفا لأبيه عام 1416 و في تلك الآونة كان حكم المسلمين

---

[1]Contereras (J) et Dedieu(J.P) : Formation de l'Inquisition Espagnole 1470-1820 ,Espagne, 1980, p.p 37-39.

[2] ضريبة عينية ، ونقدية تقدر بعدد رؤوس السكان يسميها السكان بالضريبة الرومية أو زكاة الرومية.

[3] Cortés (Alonso Vicenta) : La Esclavituden valencia durante et reinado de reyes catôlicos Publicaciones del Archiveo municipale de valencia, 1964, pp. 176-180.

[4] نايت بلقاسم (مولود قاسم) : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ، ، الجزء 1 ،ط 1،دار البعث للطباعة والنشر ، الجزائر، 1985، ص،ص 51-55.

في الأندلس ينهار أمام سياسة الاقتطاع، فسعى أمير غرناطة محمد الصغير لمصالحة ملك قشتالة للحصول على تأييده و بفضل هذه المساعدة أصبح محمد أميرا على غرناطة كما تحول إلى تابع للملك جون الثاني الذي بدأ يضع سياسة توسعية تقوم على الحجج القائلة بأن العمليات العسكرية يجبأن تتجه إلى احتلال نقاط إرتكاز على ساحل إفريقيا قصد القيام بعمليات مراقبة دائمة وسريعة لحماية الملاحة البحرية.

إلا أنه سرعان ما جمدت المشاريع الاستعمارية عام 1466م نتيجة اندلاع الثورات في قشتالة وأعلن قادة التمرد الفونس شقيق الملك أنريك ملكا عليهم[1] و حاول المتمردون جر إيزابيلا شقيقته للثورة ،غير أنها رفضت التمرد على الملك. و أمام فشل محاولات القضاء على التمرد، رضخ أنريك لشروط المتمردين بالاعتراف في سبتمبر 1468م بإيزابيلا وريثة شرعية له بدلا منابنته وتم زواج فرديناند ابن الملك جون الثاني ملك أراغون و إيزابيلا وهو الزواج السياسي الأكثر تأثيرا في العلاقات الأوربية الأوربيةوكذلك العلاقات الإسلامية المسيحية إذ سيحقق لاسبانيا الكثير من المكاسب[2].

لكن استمرار المشاكل السياسية داخل الأسرة الملكية أعادت من جديد التمرد في قشتالة وتزامن ذلك مع وفاة الملك أنريك عام 1474 بعد حياة أمضاها في مقاومة الثورات في جبال غرناطة وملك غرناطة [3] وانتقل الحكم إلى إيزابيلا و بوفاةالملك جون الثاني ملك نفار و أراغون وإنتقال الملك إلى ابنه فرديناند اتحدت إسبانيا فأصبحت اسبانيا المسيحية تحتل رقعة واسعة وانطلقت سياسة توسيع المملكة من خلال طرد المسلمين وغزو إفريقيا و الكشف الجغرافي في العالم الجديد و بدأ الملوك الكاثوليك - وهو اسم الذي اتخذه فرديناند و إيزابيلا- لمواجهة القضية الأساسية ، تصفية الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، و اعتقد أمير

---

[1] كان هذا التمرد نتيجة لرغبة الملك أنريك في توريث العرش لابنته جوانا والتي كانت ستتزوج بملك البرتغال مما يعني ذهاب عرش قشتالة إلى أسرة غير قشتالية وكان متزعم هذه الثورات الكاردينال خمينيس.

[2] Gaignard (Catherine): Maures et Chrétiens à Grenade 1492-1570, Edition le Temps, Lesbone, 1989, pp 14-16.

[3] استغل سقوطالقسطنطينية و قيام الخلافة العثمانية فقرر التراجع عن الاتفاقيةالتي عقدها مع المسيحيين ،و تخلص من دفع الضريبة فاندلعت الحرب بين الطرفين و دامت 03 سنوات، انتهت بعقد معاهدة عام 1457 وفي عام 1462 استغل القصر الملكي المسيحي قيام تمرد في غرناطة فاستولى على جبل طارق و ارشيدونة وألزم أمير غرناطة بالعودة ثانية إلى المفاوضات والقبول بدفع الضريبة.

غرناطة أنه بدفع ضريبة يمكن له استمالة الملكيين و الاحتفاظ بملكه ، غير أن المبلغ الذي طالبت به الملكة كان باهظا وتعجيزيا وكان هذا الرد الرافض بمثابة إعلان حرب تأتي في ظروف خاصة بالنسبة للمسلمين، إذ وقعت قشتالة اتفاقية سلام مع البرتغال وتفرغت لهم وتمكن الجيش المسيحي القشتالي من تحقيق بعض التقدم ،وقرر تغيير[1] مجريات المواجهات العسكرية المتقطعة لتأخذ شكل حرب منظمة مرتبة ، فلجأ أمير غرناطة إلى طلب المساعدة من المرينيين، لكن تحرك إيزابيلا بإغلاق مضيق جبل طارق بقوة بحرية عام 1482م حال دون وصول النجدة .

في الوقت نفسه كانت المواجهة بين الطوائف قائمة وكان هذا الصراع إيجابيا بالنسبة لملوك إسبانيا إذ تحرروا من المعاهدة للمواجهة و الاهتمام نهائيا بغرناطة و البدء في تطبيق سياسة - القضم و الهضم - في شهر أفريل 1481م،وبعد إستعدادات دامت سنوات قرر الملك الإسباني فرديناند إنهاء مشكلة غرناطة ، فسخر لذلك جيشا قوامه 50 ألف رجل و بعد حصار دام ستة أشهر قرر الأمير عبد الله الاستسلام ووقع المعاهدة في 25 نوفمبر وتعهد بموجبها الأمير المسلم بتسليم المدينة خلال شهرين من عقد الاتفاقية **(انظر ملحق رقم3).**

إلا أن سكان غرناطة رفضوا وقرروا المقاومة ،فأصبح لدى الملكين الكاثوليكيين قناعة بضرورة تصفية غرناطة بالقوة وبمجرد دخولها و احتلالها [2] بدأت الأعلام القشتالية تخفق على القصور الإسلامية وتم تنصيب الصليب على المسجد الكبير وبدأت الاحتفالات بالانتصار النهائي للصليب على الإسلام .وخرج الأمير "عبد الله" أمام الملكين وحينما بلغ أعلى قمة مشرفة على غرناطة ألقى نظرة أخيرة على ملكه الضائع وتنهد وصرخ باكيا قائلا :لله أكبر،فردت عليه أمه:" من الجيد أن تبكي كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال [3] .ومع حلول عام 1493 بدأت سياسة اسبانيا لإفراغ المنطقة من العناصر غير الإسلامية فبدأ بطرد اليهود حيث بلغ عدد الذين طردوا 300 ألف نحو مناطق مختلفة بموجب المرسوم 03 مارس 1492 وفق مبدأ أنه ليس هناك دين إلا المسيحية.

---

[1] فأجاب رسول الملكة بالقول : «اعلم أن الأمراء الذين يدفعون الضرائب قد ماتوا ، ونحن إذ نقوم بطبع النقود الذهبية فنحن نقوم بحفر قبورنا ونعمل لدمارنا »

[2] Gaignard : op-cit , p. 127

[3] وهي الصخرة التي يسميها الأسبان اليوم زفرة العربي

ورغم وجود الاتفاق ية المتضمنة تسليم غرناطة التي تتضمن احتفاظ المسلمين بحقوقهم الدينية، فإن هذه البنود كانت تتناقض كلية مع رغبة الأسبان في تمسيح كل سكان أسبانيا و ظهر على الساحة الكاردينال خمينيس الذي أصبح وزير ا أول لدى الملوك الكاثوليك فسعى من جل إلغاء هذا الامتياز الذي رأ ى فيه تنقضا مع المصالح الدينية المسيحية وكان أول عمل قام به أن جمع جميع المخطوطات العربية – علمية، دينية، فلسفية – وقام بإحراقها بيده في ساحة المدينة، فأدى هذ ا العمل لثورة المسلمين في مختلف أنحاء البلاد، فاستغلها الكاردينال لإقناع الملوك الكاثوليك بضرورة طرد المسلمين فبدأ الملك فرديناند بتسيير حملة و تمكنت من احتلال جبل طارق وقادس آخر معقل للمسلمين عام 1499م و اجبر المسلمين إلى الرحيل عن الأندلس إلى شمال إفريقيا و البعض منهم اضطر إلى اعتناق الديانة المسيحية ، أما اللذين مكثوا في الأندلس فإنهم لم يشهدوا الراحة إذ صدر عام 1502م مرسوما ملكيا يأمر كل المسلمين الذين تجاوزت أعمارهم 14 سنة و المتواجدين في إمارة قشتالة و أراغون بالرحيل خلال مدة شهرين ، و بذلك وضعت الأندلس ضمن الخسائر الإسلامية و اضطر المسلمين الذين فظلوا البقاء إلى عدم تلقين أبناءهم التربية الدينية ، حتى يتمكنوا من احتمال المواجهة مع دواوين التحقيق وإذا رفض أحدهم الذهاب إلى الكنيسة عد تلقائيا مسلما وكل تصرف أو حركة لا تمت بالصلة إلى التقاليد المسيحية فسرت كعلامة على إتباع الدين الإسلامي وفرض على المسلمين قاعدة الصمت ورغم هذه الأعمال فإنهم استطاعوا الحفاظ على دينهم.(1)

وما أن شعرت حكومة أسبانيا بقوتها حتى أفرزت نتائج منطقية:

النتيجة الأولى: إذ انتقلت إسبانيا من عهد العمل السياسي إلى عهد القوة العسكرية .فتوجهت إلى إيطاليا،كانت قد فرضت من قبل سيطرتها على صقلية وجنوب إيطاليا ومدينة نابولي . وأرادت توسيع ممتلكاتها هناك مما أدى إلى اصطدامها بفرنسا ووقوع الحرب المعروفة باسم حرب الستين عاما،خاصة اثر تولي شارل الخامس الحكم باسبانيا.

عندما توفي الإمبراطور مكسيمليان عيًّن الملوك و الأمراء شارل الخامس خلفا له و بذلك كرمة الإمبراطور جمع بلاد واسعة تحت حكمه ضمت:أسبانيا و النمسا و بلجيكا و هولندا و صقلية سردينيا و نابولي و قسما من ألمانيا أصبح يقف في وجه فرنسا والخلافة العثمانية .

---

(1) كاردياك: المرجع السابق ،ص 68

واستطاع ملك فرنسا فرانسوا الأول أن يجد في تحالفه مع العثمانيين قوة كافية تضمن له البقاء و النصر على أعدائه.

النتيجة الثانية: هي الانتقال للعمل بالسياسة العالمية من خلال تنظيم العدوان على المغرب الإسلامي و في الواقع بدأ هذا العدوان قبل أن تسقط مملكة غرناطة بهدف عزل الأندلس الإسلامية عن قاعدة دعمها في المغرب الإسلامي ،ثم تطور ذلك بعد إخراج المسلمين من الأندلس إلى توسع شامل وفقا لما تبرزه سياسة دينية مضبوطة.[1]

النتيجة الثالثة: ظهور عملية التوسع البحري وعمليات الكشوف الجغرافية التي أسهم فيها البحارة المسلمون بقسط وافر و لكن تحت راية البرتغاليين و الإسبانيين التي كان هدفها إيجاد مجال لنشر المسيحية خارج المجال الأوربي القديم.[2]

المبحث الثاني:طبيعة العدوان على المغرب الأوسط ومدى مشروعيته(دوافعه وأسبابه)

I - طبيعة المشروع الاستعماري الأوروبي:

خلال القرنيين 14-15م اختل التوازن بين قوى جنوب غرب أوروبا وشمال غرب إفريقيا واتهمت شعوب إفريقيا الشمالية بالقرصنة كما دخلت في حروب داخلية وخارجية تكالبت ضدها الدول وممالك أوروبا واشتدت الغارات بصفة فردية أو جماعية مدعمة من قبل الكنائس المختلفة والبابوية خاصة المباركة لكل عمل ضد الإسلام والمسلمين .اتسمت هذه العمليات بالوحشية والتخريب وسلب الأموال باعتبارها عملا مشروعا يدخل في إطار الحروب الصليبية المستمرة في نهايتها في الشرق وبدايتها في الغرب وساعد هم في ذلك نجاح الأسبان في استعادة الأندلس وطرد المسلمين منها و نجاح العثمانيين في فتح شرق أوروبا وبسط نفوذهم عليها.

فقد باركت الدول الأوربية وحكوماتها القرصنة كمصدر للربح وكوسيلة فعالة لتحطيم القوة الإسلامية المتنامية وتمهيد الطريق للسيطرة على بلدانها.[3] ومن ضمن الأسباب و الدوافع التي لعبت دورا أساسيا في نموها هي ظهور الدول الوطنية بأوروبا ورغبتها في التوسع خارج

---

(1) مؤنس :المرجع السابق ، ص 350.

(2) أسهم البحارة المسلمين في الكشوف الجغرافية بأعمالهم مثل الإدريسي وماجد الملاح ورحلات بن بطوطة

(3) Heers (Jacques): les Barbaresque : la Course et la guerre en Méditerrané, Coll/., Perrin, Paris, 2001,pp 5-7.

القارة الأوربية، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد وبداية ظهور بوادر الثورة الاقتصادية (اقتصاد المعادن الثمينة) غذى هذا التوجه الحقد الصليبي وفقدان الكاثوليكية لمركزها في أوروبا كموروث عن الحروب الصليبية ضد الشعوب الإسلامية والرغبة في الانتقام منها وتفاعل هذا مع رغبة الأسبان والبرتغاليين في وضع حد لنشاط مسلمي الأندلس المطرودين ومنع البلدان الإسلامية المغاربية من تقديم العون والمساعدة لهم وذلك باحتلال مواقع إستراتجية واتخاذها منطلقا للتوسع الشامل داخل البلاد لاستغلال الثروات الاقتصادية والبشرية.[1]

ومع بداية التوسع البحري خلال القرن الخامس عشر تم تحويل حدود القارة الأوربية لتبنى في شمال إفريقيا، بالمغرب الأقصى بالنسبة للبرتغال والمغرب الأوسط والأدنى ، بالنسبة للأسبان إن هذه الحدود الجديدة قد شكلت نهاية مع أساليب التوسع التقليدية، فتوسع البرتغال كان مبنيا على أساس التنظيم الاجتماعي للمجال الجغرافي المقبل لايجاد نمط إجتماعي على غرار الموجودة في شبه الجزيرة الأيبيرية في شكل توسع اقتصادي اجتماعي ، أما التوسع الأسباني فقد كان توسعا سياسيا ودينيا ثم تحول إلى نمط اجتماعي استيطاني فالتوسع الأسباني والبرتغالي شهدا تطورا مستمرا في إفريقيا وآسيا وكذا أمريكا محاولين إيجاد نموذج اجتماعي للمملكة[2] لذا سعوا إلى مد التوسع السكاني الذي بدأ منذ عملية إعادة الفتح وهو الأمر المهم في سياسة الأسبان لإيجاد بديل مسيحي للديانة المسيحية وهو ما شجعته الكنيسة الكاثوليكية.[3]

لقد بنى الأسبان والبرتغاليون سياستهم على ممارسة الاعتداء حتى قبل انتهاء حروب الإسترداد، إذ اتجهت أسبانيا إلى إشغال النبلاء والأشراف بهذه الحروب والتوسعات عن المشاكل الداخلية، فركزوا نشاطهم في السواحل الشمالية لبلدان المغرب ولم يفسد مخططهم سوى ظهور العثمانيين في البحر المتوسط كان هذا التوسع يعود إلى سنوات متقدمة ، ففي ابجاديات إعادة الفتح نجد الأفكار والتصورات للحملات الصليبية الأسبانية وهي حروب الشرق بين الإسلام والمسيحية والتي ستتواصل خلال العصر الحديث في إفريقيا الشمالية.

---

[1] بوعزيز : المرجع السابق ، ص.ص. 42-43.

[2] وهو ما عرف فيما بعد بالاستيطان الأوربي في شكله الفعلي والواسع وطبق في أمريكا اللاتينية وطبقته فرنسا في الجزائر.

[3] Gareth (Austin) and Berger (Iris) and Meager (Anne) :The Journal of African History, Royal Historical Society 2005, p. 188.

يمكن أن ندرج هنا النهضة الاقتصادية الأوروبية الذي كثفت من العلاقـات في البحـر المتوسط والأطلسي خاصة أن مجال البحر المتوسط الممتد من الأندلس وا لمغرب إلى مصر والشام شرقا الذي يشكل طريقا حيويا للاستعمار من خلال عملية الاستفادة من التجـارب الملاحيـة الإسلامية والخبرة الإسلامية لغزو بلاد المسلمين.

كانت عملية التوسع والسبق الاستعماري منذ 1415م خاصة في المحيط الأطلسي والبحر المتوسط عملية سياسية باعتبار منطقة البحر المتوسط الأطلسية وحدة عملية لمجتمع يعمل علـى تبادل السلع والخدمات و اليد العاملة الرخيصة وحتى الثقافات [1]فهو يعني أيضا ضرورة بـسط النفوذ على مداخل هذه المنطقة التي تشكل نقطة تجمع للمواصلات ، فإن مـساهمته في ظهـور البرتغال والأسبان كقوى استعمارية خا صة مع ظهور علاقات الجنوب مع الـشمال في إطـار احتلال المواقع السياسية في العلاقات الدولية وظهور الاستعمار كظاهرة أفرزتها علاقات دوليـة جديدة قائمة على الرغبة في السيادة والنزعة الاستغلالية قد شكل حلقة أخرى من مد النفـوذ خارج الحدود التقليدية بشعارات جديدة.[2]

1- المشروع البرتغالي:

لقد جاءت الاعتداءات البحرية البرتغالية كصدى لسقوط القسطنطينية في يد المـسلمين ، فهبت البابوية تدعو ملوك المسيحية إلى تنظيم حملات صليبية جديدة ضد الإسلام والمـسلمين وقد لبى البرتغاليون هذه الدعوى فسبقوا غيرهم إلى التوسع الصليبي الاسـتعمار ي، فوجهـوا عدوانهم إلى الموانئ القريبة الواقعة على المحيط الأطلسي وعلى ساحل الشمال الغربي من المغرب الأقصى فملكوا في مدة نصف قرن مجموعة ثغور إستراتجية منها: سبته، طنجة، القصر الصغير، أرزيلة، أغادير، أسفي وازمور وأنشئوا وكالات تجارية لتحقيق الغرض الاقتصا دي. لم يـنج المغرب الأوسط من حملاتهم إذ سبق لهم أن احتلوا مدينة المرسى الكبير بين 1415-1477م ثم أبعدوا نهائيا عنها إلى أن احتلها الأسبان سنة 1505م.

---

[1]Rosenberg (Bernard) : Le Portugal et l’Islam Maghrébin au XV .XVI siècle, Centre Culturel Portugais, 1987. pp.83-95 .

[2] النجار (سعيد) : تاريخ الفكر الاقتصادي ،دار النهضة العربية ، بيروت ،1985 ،ص.ص 18-19.

كمقط كامل الساحل المغربي على المحيط الأطلسي في يد البرتغاليين . [1] وهذا التوجــه كان يهدف إلى إيجاد محيط حا م للمسيحيةكحدود للتوسع على حد قول كاستيلو (Castillo) بضرورة إيجاد حدود جديدة أكثر أمنا للإمبراطورية المسيحية.[2]

فقد احتل البرتغال سبته في 21 أوت 1415م وهي مدينة مغربية على الساحل الجنوبي في منتصف جبل طارق التي تمثل مفترق الطرق بين المحيط والمتوسط التي لعبت دورا هاما في مراقبة النشاط التجاري والروابط التجارية بين المغرب والموانئ الأيبيرية. بفضل هذه السيطرة استطاع مد حدود المملكة إلى غاية جزر الملوك ،اليابان شرقا والبرازيل غربا فأصبح بمثابة المركز الأمامي للتوسع الأوروبي كملكنته من الاستيلاء على البحر والمحيط انطلاقا من الســواحل المتوســطية مستفيدا من انتعاش تجارة الذهب خاصة تلك التي تصل إلى أوروبا و بدأت البحرية التجاريــة المتمركزة في سبتقسير القوافل التجارية نحو أ وروبا وتحولت بذلك من مجرد مينـــاء متوســطي عديم الفائدة التجارية خلال القرن الرابع عشر، إلى مركز تخزين الذهب القادم من السودان .

الأمر الذي دفع البرتغال إلى تكريس مبدأ الاحتلال والاحتفاظ بالمستعمرات والغزو بحجة الدفاع عن الملاحة في سواحل المملكة المسيحية المعرضة لهجمات البحرية الإسلامية [3]كاختيار سترإتيجي للمملكة رغم أن الهدف الحقيقي لهذا العمل هو ا لهاء الطبقة النبيلة بعيدا عن التاج ، و دفعهم إلى الحرب ضد المسلمين وحروب القرصنة و الحصول على بركة البابا ومساعدته المادية من أجل متابعة الحرب على المغرب ـــ الحرب ضد المارقين ـــ التي تشكل فائدة لرومـــا وقـــد ساهمت حملة سبته التي تشكل أول خطوة للمخطط الواسع لجعل شمال أفريقيا مسيحيا مما دفـــع البابا ورجال الكنائس في البرتغال إلى المساهمة ، والدعم للحملات الهادفة إلى الـــسيطرة علـــى طنجة، مدفوعة بدوافع جديدةاقتصادية بحتة ، غير أن البرتغال سرعان ما غير سياسته بعد وفاة الملك جون الأول عام 1433م عندما وضع خليفته ألفونس مشروع الحرب الشرقية في إطـــار الحرب ضد الإسلام التي أخذت شكلا صليبيا إثر فتح القسطنطينيةالأعداد لحملة جد يدة تجاه الشرق غير أنها لم تتم في المقابل سيطر عل ى القصر الصغير عام 1458 كموقع متقدم للدفاع عن سبته ،وبهذهالسيطرة على الميناءين - سبتة و القصر الصغير- بالإضافة إلى مينـــاء أســـيلا و

---

[1] الجمل(شوقي عبد الله): المغرب الكبير في العصر الحديث،ط1 ، المكتبة الآنجلو أمريكية ، مصر ،1977 ،ص 46.

[2]De Cavalho (Vasco) :la domination Portugaise au Maroc 1514-1789,Lesbone, 1936, p15.

[3] Christophe (Picard): la Mer et les Musulmans d’Occident au Moyen Âge VIII-XVI siècle, Ed/ ,P.U.F, Paris, 1997, p. 192.

طنجة عام 1451م البرتغال على الحق في العرائش و الدار البيضاء ، غير أن تزايد أطماع البرتغاليين خارج العالم القديم وجه أنظار الرأي العام البرتغالي نحو الهند الغنية وأصبح المغـــرب في إستراتجية البرتغال نتيجة لذلك منطقة عبور بالنسبة للثروة [1] ،خاصة من قبل الطبقة النبيلـــة البرتغالية.رغم كل المحاولات و الجهود المبذولة فان عمليات التوسع لم تتعد الـــساحل مـــشكلة سلسلة من المستعمرات من المدن الساحلية وأصبحت تعمل في شكل حدود خارجية للبرتغـــال . ظلت وظيفتها تسهيل النشاط التجاري خاصة في ظل الجهد لعسكري والمالي الـــذي أنفقتـــه المملكة عليها.هذا الوضع كان يتطلب أموالا كثيرة ، مما اضطرها في النهاية إلى الانسحاب من السباق[2] .

2-المشروع الأسباني:

بعد أن تمكن الإسبان من استرداد شبه الجزيرة الأيبيرية، انطلقوا في التوسع إذ استطاعوا السيطرة على جزر الكناري كخطوة أولى نحو التوسع عام 1476م وأصبحت نقطة ارتكاز للعمل العسكري الذي بدأه الأسبان على السواحل كمحطات للبحرية الأسبانية تحقيقا لفكرة الغزو الصليبي وكانت أسبانيا تعتمد في سياستها على تركيز نفوذها في المدن والموانيء مما شجع على تركيز السلطة فيها في أيدي القوات البحرية القادرة على مواجهة الأخطار المحيطة خاصة المراكز الأربعة الهامة:طرابلس –تونس – مدينة الجزائر –أسيلا وكان منطلق هذه العمليات هو ميناء المرسى الكبير، ذو الموقع الهام والصلاحية التي يتمتع بها لترسو السفن كأول مركز استعماري حقيقي على الساحل الإفريقي [3] وقد بنيت سياسة الأسبان بالإضافة إلى التقتيل والتخريب على استئصال كل ما هو مسلم وإخلاء مدن بكاملها سواء بالأندلس أو المغرب الإسلامي و ألإضرار بالموانيء لضرب الحركة البحرية بالبحر المتوسط[1]،و نقل الضغط نحو شمال إفريقيا، لا لم يحاول الإسبان ضمن إستراتجيتهم التوغل نحو الداخل واكتفوا بالانتصار السياسي

---

[1]Christophe (Picard) :la course à l’Océan Atlantique ,Centre culturel Portugais 1987. pp. 68-70.

[2] Christophe (Picard): L’Ocean Atlantique Musulman , Louis Edition, UNESCO, 1997, pp .85-89.

[3] فيشر(هربرت) :أصول التاريخ الأوربي الحديث ، ترجمة ،راشد(زينب)و احمد عبد الرحيم (مصطفى) مراجعة احمد عزب (عبد الكريم)،دار النهضة العربية،بيروت ، 1970، ص 70 .

[4] نوشي وآخرون : المرجع سابق ،ص.ص. 124-125.

والحربي لأنهم كانوا يرون وجوب إخضاع المغرب العربي على مرحلتين،فالمرحلة الأولى تسخر لاحتلال المدن الساحلية وحصر المسلمين داخل البلاد،وقد نجحوا في تنفيذ هذه المرحلة بفعالية عالية من خلال عمليات سريعة[1].

أما المرحلة الثانية فتتضمن الزحف من المراكز الساحلية المحصنة الى داخل البلاد، و إخضاعها وهي المرحلة التي لم يكتب لها النجاح بفضل تدخل الإخوة أبناء يعقوب.[2]فكلف فرديناند و إيزابيلا دوق مدينة سيدونيا (Medina Sidonia) باحتلال مدينة مليلة في سبتمبر 1496م والتي حولت إلى منطلق لبعثات الاستطلاع عن الوضع العام ومدى تقبل القبائل للتعامل مع المسيحيين [3]، وقد عمل الكاردينال خمينيس على ذلك ، إذ وجه عدة جواسيس إلى تلمسان ووهران والمرسى الكبير ليطلعوا على الأحوال العامة ووسائل الدفاع لدى السلطان الزياني وأهل المرسيين الكبير ووهران ومن هؤلاء لورنزباديا (Lorenzo Padilla) والفنيقيي جيرونيموفيايلي(Vianelle)،وبفضل معلوماتهم انطلق الأسبان في توسيع دائرة الغزو إلى سبته ثم غساسة،وتطوان وتمكنوا من الوصول إلى حدود أسيلا عام 1501م.

في خضم ذلك حاول البرتغال استعادة نشاطه الاستعماري قرر الدون امانويل (Don Emmanuel) ملك البرتغال إرسال حملة بحرية لنجدة البنادقة ضد العثمانيين وكلف قائد الأسطول بالاستيلاء على المرسى الكبير في طريقه،لكنه فشل وعقدت هدنة بينه وبين ملك فاس بأسيلا عام 1502.وكان نتيجة لعودة البرتغال أن بدأ المشروع المسيحي يأخذ طابع التكالب والتنافس بغية إحكام السيطرة على الجناح الغربي للدولة الإسلامية الناشئة.[4]كان أول مرسى أخذه الأسبان هو المرسى الكبير سنة 1505م ثم تلاه مرسى وهران في ديسمبر 1509م على يد الكاردينال خمينيس ،و هي العملية التي صاحبتها مذابح قام بها الجنود، وتحت إشرافه [5]ثم احتلوا موانئ بجاية ،الجزائر و شرشال، وكانوا يغيرون على المناطق الداخلية لهذه والموانيء ويلزمون

---

(1)Rosseuw(Saint –Hilaire) :Histoire d’Espagne Tome VII,la Corona presse , 1952,pp 201-203.

(2) المدني : حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق ، ص-ص 100-114.

(3) الجيلالي (عبد الرحمن محمد): تاريخ الجزائر العام ، ط3 ، الجزء 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1982 ص 132.

(4)Culvillier (Jean-Pierre) : Histoire de l’Europe Occidentale au Moyen Âge. IV siècle auXVI Siecle,Edition Ellipses,Paris 1998 ,p.304.

(5) أمليلي (محمدبن مبارك) : تاريخ الجزائر القديم والحديث، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر ،1976 ص 863.

سكانها المسلمين على أ داء الضريبة التي سموها الرومية، من المؤن والأنعام والزرع والتجنيد تحت تسميات مختلفة في جيوشهم[1] المرابطة على الشواطئ المغربية ورغم أن الطابع العام كان يوحي بأن سياسة الأسبان كانت تأديبية فإن اتجاههم بعد احتلال المرسى إلى تشجيع الاستيطان أكد حقيقة المشروع الأسباني الكبير[2].

II - بداية الحملات الأسبانية المنظمة:

بمجرد أن وقع الاستيلاء على مملكة غرناطة وساحلها، أخذت البحرية المسيحية بقيادة الأسبان والجنويين و البنادقة انطلاقا من قرطاجنة والميرية تغزو المراسي المغربية وأخذت القرصنة الأوربية تظهر في البحر المتوسط وفي شواطئ بلاد البربرسيك [3]سواء على سواحل مملكة تلمسان خصوصا إقليم وهران الذي هو أقرب أرض إلى أسبانيا أو على سواحل مملكة الحفصيين في تونس وطرابلس و حتى سواحل مصر لتبدأ الحملات المنظمة والمخطط لها بعناية .

1 - احتلال المرسى الكبير:

عندما أتم فرديناند ملك إسبانيا تجهيز الحملة،وهي الحملة التي مول أسطولها الكاردينال الوزير خمينيس بأمواله الخاصة وبما قدمته له الكنيسة من مساعدات ،توجه الأسطول للغزو ،فغادر مالقة في أوت 1505م تحت قيادة دون رايموند دي قرطبة (Don Raymond di Cordoue) وكان الأسطول ينقل معه قوة من الجيش بـ 5آلاف رجل بقيادة دون ديتوفر فرنانديز(Don Ditfourre Fernondez).ووصل هذا الأسطول إلى المرسى الكبير يوم 11 سبتمبر وحكم الحصار على المدينة لمدة خمسين يوما [4] ،وظلت الاشتباكات خلال هذه الفترة مستمرة . عندما بدأ الإسبانيين عملية الإنزال، قاو م المسلمون مقاومة يائسة وعنيفة رغم اختلال التوازن القوى بين الطرفين، نتيجة ليأس الحامية بعد مقتل قائدها أثناء الليل تشاور سكان المدينة فيما بينهم في اجتماع عقدوه في دار المزوار -كانت الأغلبية تميل إلى متابعة الجهاد في حين كانت الأقلية ترغب في الاستسلام وحجتها أنه من المحال على الحامية التي لا تزيد في الأصل عن

---

(1) moros de paz أي عرب السلم. وكان كثير من العرب في جيوش ملوك الأسبان المسيحيين لوس موروس دي ري Les moros de lrey أي عرب الملك أوليديين Adalicles (أي الدلائل)

(2) Merrien (Jean) : Histoire des Corsaires du Moyen Âge jusqu'au 20emSiecle, Edition l'Ancre de Marine, Paris,2001, p. 210.

(3) وهي اللفظة المستعملة في كل الكتابات الغربية والاسبانية خاصة.

(4) Emmanuelli (René), op-cit, pp 307-309.

خمسمائة رجل التغلب على قوة مشكلة من خمسة آلاف مقاتل إسباني، في المقابل فإن انتصار الأسبان يعني استباحة المدينة وأهلها .

في النهاية انتصر المعتدلون وتقرر مفاوضة الأسبان على شروط التسليم التي وافق القائد الأسباني عليها: بانسحاب المسلمين من المدينة في اجل أقصاه ثلاث ساعات من اجل الجلاء عن المدينة وبقية الحصون واشترط عليهم أن لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد و المؤن ولا من حيوانات الجرولا من الأسلحة .عندما تم انسحاب المسلمين في الفترة المحددة من التاسعة صباحا إلى الظهر ،اقتحم الأسبان المدينة ورفعوا فوقها أعلامهم ثم توجه المركيز القائد الأعلى إلى مسجد المدينة الأعظم ،وأمر بتحويله إلى كنيسة فورا أطلق عليها اسم كنيسة القديس ميكائيل.

انصرف الأسبان على الفور لتحصين المدينة وعملت الحامية الأسبانية بالمرسى الكبير على فتح سوق تجاري إلى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية من جهة ولإقامة علاقات مع السكان من جهة أخرى ،وأغدقت الحامية الذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار ،غير أن المسلمين اعتبروا أولئك المتعاونين خونة و عاملوهم معاملة الأعداء .[1]

وتسمى على رأس إدارتها بيدرو نفار وكوال عسكري، وبهذا الغزو بدأ اسبانيا تشعر أن أملها في احتلال ونشر المسيحية في المنطقة ومحو الإسلام بدأ يتحقق حيث كان حلولهم بالمرسى الكبير يوما مشهود عندهم أدو فيه الصلوات و رخص للشعب الاسباني إقامة المهرجانات والأفراح مدة أسبوع احتفالا بقرب انتشار الديانة المسيحية واستعظم الأسبان احتلالهم للمرسى الكبير وظنوا أنهم قادرون على احتلال باقي إفريقيا بالسهولة ذاتها والدليل هو كتبه أحد قادتهم دون قونزالف (Don Gonzalev) في تقرير للكاردينال خمينيس عند حلوله المرسى الكبير: "ها نحن الآن فتحنا نصف أفريقيا" ثم أخذت القيادة الأسبانية في الإعداد للمرحلة الثانية من التوسع حيث قطع لها حامية المرسى الكبير فرنانديز حملة بهدف الهجوم على مسرغين بإغارة مباغتة،وكانت هذه المدينة غير بعيدة عن المرسى الكبير ،ويصل بينهما طريق سهلي يمر من تحت حصون مدينة وهران ،ولهذا قرر إتباع الطرق الجبلية والأودية ،وجند لقيادة الحملة أدلاء و مرتزقة استأجرهم بالمال من رجال قبيلة جيزة التي كانت تنتشر حول المرسى الكبير ووهران وغادرت هذه الحملة المرسى الكبير في يوم 6 جوان 1507 وبدأت تحركها ليلا ،وقد

---

[1] Amoura :Op-Cit ,p. 11.

ضمت هذه الحملة القوة الأسبانية بكاملها تقريبا بحيث لم يترك في المرسى الكبير إلا العدد الضروري لحماية المدينة وأسوارها،كانت المسيرة شاقة حيث وصلت الحملة إلى هدفها مع الفجر[1]،وأحاطت بالقبيلة ، مستفيدة من عامل المباغتة فدمرت مقاومتها بسرعة ، واستولت على الغنائم كما استخدم الأسبان كل ما وجدوه من الخيول وعربات الجر لحملها ونظموا سيرهم ، غير أن وصول نجدة من القبائل المجاورة والتي استفادت من الضباب الكثيف لتلحق بالمغيرين الذين اختل نظامهم بهزيمة ساحقة وسقط من القوة الأسبانية ثلاثة آلاف قتيل فكانت هذه أول هزيمة للأسبان في المغرب الأوسط.[2]

استطاع قائد الحملة الأسبانية النجاة بنفسه مع قوة صغيرة توجه بعدها إلى أسبانيا لتقديم تقريره، فأرسلت الحكومة الأسبانية على إثر ذلك دعما عاجلا لحماية المرسى الكبير يضم خمسمائة محارب تحسبا لأي محاولة استغلال هذه الهزيمة لمهاجمة المرسى.

وبقي أو تنظيم المستعمرة فجعلوا من المرسى الكبير مركزا حصينا للتمويل والتوسيع ، واستطاعوا التوغل إلى غاية جبال عمورة و صحاري جنوب تلمسان . كان هدف هذه السيطرة هو خنق السلطة الوحيدة آنذاك وهي تلمسان التي حاول حاكمها عبد الله الزياني استرجاع المرسى الكبير لاعتباره من النقاط الحيوية لمملكته تصديرا وتعاملات تجارية - غير أنه فشل.وبذلك تمكنت أسبانيا من إيجاد مركز للانطلاق نحو المراكز الأخرى فقد كانت معركة المرسى الكبير بمثابة معركة استطلاع إذ كانت لا تبعد سوى 8كلم عن وهران ، واستعان القائد الأسباني بقبيلة جيزة للإعداد لحملة احتلال وهران .

2- احتلال وهران:

ظل الكاردينال الأسباني خمينيس يتابع في هذه الفترة تجهيز حملته الكبرى للقضاء على المسلمين في المغرب وما أن أكمل استعداداته حتى أبحر من مرسى قرطاجنة الاسبانية في يوم 19 ماي1509م بقوة من 15 ألف مقاتل ووصلت هذه الحملة إلى المرسى الكبير في اليوم التالي كمرحلة أولى .ونزلت إلى البر دون أدنى عائق.كان حاكم المرسى الكبير قد هيأ حربه بطريقة أخرى إذ اشترى ذمم بعض من قابضي المكوس وهم القائد عيسى العريبي و ابن قانص وتلقوا

[1] Contereras et Dedieu:Op-Cit,p p 37-39.

[2] عوض(محمد مؤنس) تقديم البيشاوي (سعيد عبد الله): الحروب الصليبية، دراسة تاريخية نقدية، ط1، دار الشروق ،عمان الأردن ،1999 ص 170.

أبواب الأبواب بمجرد وصول الحملة وبداية الحصار ،كما اتخذ كل الاستعدادات لمساعدة هذه الحملة،لا من أجل النزول في المرسى فحسب ، بل من أجل بلوغ هدفها في وهران كما تمكن من شراء ذمة قابض المكوس العام لمدينة وهران اليهودي سطورا.[1]

كانت وهرانعندئذ تحت سلطة الملك الزياني الاسمية إلا أن مجلسها كان منظما على شكل جمهورية شبه مستقلة .واستعدت الحامية في وهران للقاء القوات الأسبانية واصطدموا ا بها خارج المدينة غير أن تفوق الأسبانيين بالأسلحة النارية أرغمهم على العودة إلى المدينة لا ستفادة من تحصيناتها وبينما كان المسلمون على الأسوار ،كانت القوات الأسبانية تتجمع أمام أحد الأبواب الذي ما لبث الخونة أن فتحوه فتدفقت القوات الاسبانية عبره ،فيما كانت البقية منهم تتدفق من كل أبواب المدينةعلى الرغم من ذلك استمرت المقاومة لمدة خمسة أيام حول المسجد الأعظم في حي الفقيه، و لم تتوقف المقاومة حتى قضي على كل رجال المدينة، فيما لم يمت من الأسبان أكثر من ثلاثين شخصا في،حين استشهد من المسلمين عددا كبيرا واستسلم الباقون علىبناء الوعد بالحماية على الأموال والأرواح لكن الأسبان لم يحترموا هذه الوعود، وقاموا بقتل حوالي 6000مسلم وأسروا 8000 وتمت مصادرة الأرزاق والأموال و لم تنج حتى الأثريات منالمخطوطات العربية وللزهريات وبعض التحف الأثرية ، إذ قام خمينيس باختلاسها ووضعها عند رجوعه في كنيسة طليطلة ، كما قام بتحويل الجامعين الرئيسيين إلى كنيستين وانشأ ديرا لتنصير المسلمينونصب مفتشا لمتابعة اليهود والزنادقة [2] ثم قام بتحويل مساجد وهران إلى كنائس كما جعل المسجد الأعظم كاتدرائيةوظلت تحت الحكم الأسباني إلى غاية 1792م وقد نتج عن انتصار الأسبانيين في وهران مجموعة من التحولات أبرزها:

- اعترافأبو حمو الثالث بتبعيته ه وخضوعه للحكم الأسباني وتقديم جزية سنوية مع التعهد بعدم القيام بفعل يضر بالصداقة الاسبانية.
- خضوع قبيلة بني عامر للحكم الأسباني، وأصبحوا له أعوانا كجند وعيونا.[3].

---

(1) عارض الكاردينال احتلال وهران مع الكثير من القادة لما له من مخاطر على المشروع ولاعتقادهم أن المسلمين قد اتخذوا من سقوط المرسى الكبير درسا في مقاومة الاحتلال.

(2) وولف (جون.ب) : الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق سعد الله (أبو القاسم) ، م.و.ك ، الجزائر ،1986،ص129.

(3)Suarez :" Mers- el-kébir "traduction, de A.Berbruger, R..A N°9, 1865, p. 339

بقيت وهران مستقلة مدة أربع سنوات حيث كان الإسبان ينظمون أثنا ءها جلساتهم بالاستعانة ببعض الجزائريين من جملتهم اليهودي سطورا[1] وتجار مسلمين كانوا مكلفين بمسك الأعشار إلى غاية ربطها بشكل مباشر بالتاج الإسباني.[2]

3- تنظيم المرسى ووهران:

بمجرد حلول الأسبان بالمرسى الكبير ووهران ، نصبوا إدارة عسكرية خاضعة لقائد الجيش وألحقت بأسبانيا وسميت المدينتان بريسيديوس، ثم شرع في العمل نفسهمع بقية المناطق المقـــرر احتلالها.[3] فعمروا المدن بالجنود والمواطنين المسيحيين و كان الأسبان يعولون في حكمهم على عملاء[4] عرب [5] اذكانسللإن القاطنون بوهران والمرسى الكبير قد أسسوا نظامـــ ا ملكيـــا مثلما كان موجودا في مدريد وسموا قصر الوالي كورتا شيكا (Corta chica)[6].

من وهران والمرسى الكبير كان ا لإسبان يمارسون أسلوب الإغارة- لآس خرنـــاداس- [7]، يرتزقون أو يفرضون على العرب ضرائب وقد لعبلي وهران دور ا أساسيا إزاء ملوك بـــني زيان الذين كانوا يستغيثون به ضد القبائل المناوئة لهم وحكام الجزائر خاصة عروج وخير الدين فيما بعد وكان يصل إلى بني زيان المدد والمعونة من الأسبان من المرسى الكبير ووهران اللـــذان أصبحا المنائيين الأساسيين للجهة الغربية ،وظلا تحت سيطرة الأسبان مدة ثلاث قرون و النظام نفسطبق على بقية المراسي المغربية الوا قعة تحت سيطرتهم[8]. كما أقاموا نظامـــا عـــسكريا في المستعمرة يكفل لهم مراقبة سفن البحر المتوسط ، ثم العمل على محو الإسلام من المنطقة وإحلال المسيحية محله، كانت وهران ذات أهمية حيث اعتبروها باب أسبانيا(Puerta de Espagna)

---

[1] كان هذا اليهودي سطورا من مهجري الأندلس، وم الذين أنقذوا، من قبل مسلمي وهران ، م ن المحـــارق الأســـبانية .المدني :حرب الثلاثمائة سنة ...المرجع السابق ،ص-ص 111-116.

[2] الزياني :المرجع السابق ، ص.ص ، 141-142.

[3] Pedro de Madrid : "lettre de Mers-eil-Kebir ,17-Sept-1505(Oran sous les Espagnoles) Expédition et Razias" ,R.A, N° p-p 100-115.

[4] يختارونهم من القبائل المجاورة للبلدتين أما بقية القبائل فقد قسمت إلى قسمين فالقبائل Los moros inclanados à la paz المستعدة للصلح والقبائل لا أمل في إخضاعها إلى الحكم الأسباني تدعى (los Tiadores) معناه الخونة

[5] Culvillier : op-cit. p 688-689.

[6] أميرال القصر الصغير

[7] Las jornadas

[8] Braudel :"les Espagnols et l’Afrique du Nord de 1492 à 1577", R.A N° 69 1928 pp 196-200.

المفتوح على المشرق العربي والبلاد الإسلامية وبيت المقدس، وكانوا يسمونها في وثائقهم الرسمية بالمناطق الهامة (Guidad noble y leal) .

4- احتلال بجاية :

نظرا لأهمية موقعها، وللمكانة الدينية التي كانت تحتلها فقد كانت الهدف التالي للكاردينال خمينيس الذي أمضى وقتا بالاستعداد لنقل ثقل الهجوم من المغرب باتجاه المشرق . بعد الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير ، حاول الأسبان السيطرة على مواقع حساسة أخرى لمراقبة البحر المتوسط والاستحواذ على التجارة والملاحة، وقد ظلت بجاية تحت سلطة ملوك بني زيان وملوك تلمسان ثم تحت سيطرة الحفصيين إلى أن استولى الأسبان عليها في 5 جانفي 1510، فلم تهتم تلمسان إلى الأمر و لم يحرك ملوك تونس ساكنا[1] .

بدأت عملية احتلال بجاية بمناورة خداعية، إذ ركب الجيش الأسباني السفن وغادر المرسى الكبير يوم 30 نوفمبر 1509 بقيادة بيدرو نفارو وبمجرد وصوله إلى جزر البليار انضمت إليه قوة دعم إضافية، ثم اقلع الأسطول بقوة 20 سفينة كبيرة تحمل 10 آلاف مقاتل وآلات الحصار. وصلت الحملة إلى مدينة بجاية يوم 5 جانفي 1510م وبدأت المعركة على الفور بتبادل نيران المدفعية بين حامية بجاية التي حاولت منع الأسبانيين من النزول إلى البر ،فقسم قائد الحملة بيدرو نفارو قوته إلى فرقتين: واجب الفرقة الأولى احتلال المرتفعات المحيطة بالمدينة وواجب الفرقة الثانية اقتحام المدينة.

أسفرت العملية على انتصار الأسبان وأباد واكثر من أربعة آلاف مسلم .كما دمروا المدينة دمارا تاما وقضوا على كل المعالم العمرانية والدينية والأثرية في المدينة وقد بدأوا في انتهاج سياسة تدمير وإحراق بجاية وإنشاء مدينة صغيرة محصنة تكون بجاية الصغيرة الأسبانية وكتب على إحدى القلاع نقوش نصها [2].وأدى الانتصار المباشر للأسبانيين على بجاية إلى تحقيق

---

[1] Feraud (Charles) :"Conquête de Bougie par les Espagnoles d'après un manuscrit arabe" R.A N° 12 1868 ,pp 248-250.

[2] فرديناندو الخامس ملك أسبانيا افتك هذه المدينة بقوة السلاح من أبناء هاجر اللئام سنة 1510.

مجموعة من الانتصارات غير المباشرة سياسية ومادية والتي حصلت فيها أسبانيا على مكاسب تزيد في حجمها وأهميتها على نتائج الانتصار المباشر:[1]

1-خضوع السلطان الحفصي بتونس أبو عبد الله عم المتوكل وقبوله بدفع الجزية.

2-خضوع مدينة الجزائر التي أصبحت مطوقة من الشرق ببجاية ومن الغرب وهران وتعهد حاكمها الشيخ سالم بن التومي بدفع الجزية وموافقة أهلها على تسليم الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر من اجل إقامة قاعدة بحرية اسبانية .

وأمام الخراب الذي لحق المدينة وعزلة الحامية الأسبانية، أرسل فرديناند إلى الوالي العام أنطونيو دي رافانيدا (Antonio di Raffanida) رسالة مؤرخة يوم 13اكتوبر 1511م يطلب فيها السماح بعودة المسلمين إلى المدينة وضمان سلامتهم وحرية القيام بشعائرهم الدينية .ثم انتقلت اسبانيا إلى احتلال عنابة في العام نفسه، والمدن المحاذية لها ، كما عمل بيدرو نفارو على انتهاج الأسلوب المعتاد في التعامل مع الأهالي والتحالف معهم على غرار ما تم في المرسى الكبير ووهران .حيث قام بتقديم المساعدة الطبية للملك عبد الله استعاد بها نضره [2].فأعلن هذا الأخير الولاء لأسبانيا والخضوع لها والعمل تحت رايتها، فقرر بيدرو الاستفادة من هذا الملك حيث جهز له حملة أنضم إليها بعض أنصار الملك وسار بهم في يوم 13 أفريل إلى حيث مقر عبد الرحمان الذي تمكن من النجاة من معركة احتلال بجاية ومعه عدد القليل من أنصاره وكان بيدرو نفارو قد كتب إلى الملك فرديناند يستشيره في تعيين الملك عبد الله ملكا على بجاية.

غير أن نجاة عبد الرحمان واستمراره في المقاومة حمله على تعديل مخططه لاستفادة من الملكين معا فتم الاتفاق على عبد الرحمان ملك جبال البربر وعبد الله ملك بجاية على تقسيم مناطق النفوذ وممارسة الحكم تحت الإشراف الأسباني مع تقديم كل ما تطلبه الإدارة الأسبانية من المساعدات.**(انظر ملحق رقم 4)**وأصبح الملك الأسباني فرديناند بعد هذا النصر، أكثر ثقة بقدرته على تنفيذ مخططاته، فانطلق يعلن بوضوح عن أهدافه ، مصرحا بضرورة تطوير الحرب الصليبية ويؤكد عزمه على مطاردة " الكفار" المسلمين إلى أن ينتزع من بين أيديهم بيت المقدس،

---

[1] بعد أن تمكن الأسبان من بجاية قاموا بفرض عقوبات على سكانها، فقاموا بإرسال وفد إلى أسبانيا لعقد معاهدة استسلام وتم استقبال هذه البعثة سنة 1511 بفلنسيا ن وقدمت 50اسيرا مسيحيا ثم تلاه وفد بني مزغنة برئاسة سالم التومي والذي سمح بإنشاء مؤسسة عسكرية تمثلت في حصن الجزائر Penôn d’Arjel.

[2] وكان قد تعرض للكي على العينيين من قبل شقيقه عبد الرحمن ففقد بصره فخضع لعملية شق الأهداب.

ثم أعلن بحماسة أنه سيتولى بنفسه قيادة جيش لفتح إفريقيا وأن يضع يده في يد فرسان جزيـــرة رودس من أجل الاستيلاء على مصر.

5-احتلال طرابلس:

لم يتوقف مشروع أسبانيا عند هذا الحد بالسيطرة على السواحل الجزائرية بل بدأ بيدرو نفارو في تجسيد المشروع الأسباني الكبير وبدأ بمحاولة التوسع في سواحل تونس غير انه فشل، فغير خطته بانتهاج أسلوب الإحاطة بها بدائرة من المستعمرات فاتجه إلى طرابلس الغرب وتنفيذا للأمر الذي ووجهه الملك فرديناند "..ولابد لاستقرارنا في إفريقيا من احتلال وهران وبجاية وطرابلس... ولا تسمح للمغاربة بالإقامة في مدن الساحل.." أبحر من بجاية إلى صقلية ثم إلى مالطا ومنها إلى طرابلس، حيث أتم استعداده في هذه المراحل حتى بلغ عدد السفن 128 بعضها من مالطا ونابولي وصقلية وعليها خمسة عشرة ألف جندي يساعدهم دليل مالطي و آخر بندقي كانا يعرفان طرابلس معرفة كاملة .[1] غير أن عملية التوسع اصطدمت بمقاومة طرابلس الضارية والتي كانت تحت حكم الحفصيين .

لم تتم عملية احتلال طرابلس إلا بعد جهد كبير في 25 جويلية 1510م ووضعوا بها حامية تتألف من خمسة آلاف جندي، ثم توجه الأسطول للاستيلاء على جربه غير أن المقاومة الدامية حالت دون نجاح بيدرو نفارو في احتلالها وتكررت هذه العملية عند قرقنة إذ تم إبادة الحملة الأسبانية بها واضطر الأسبان أمام هذه النكسة الجديدة العودة إلى بجاية عام 1511 فكان مصير بيدرو نفارو العزل ليغادر بجاية نهائيا في 07جوان 1511م[2] رغم نجاحه في احتلال طرابلس التي كانت خطوة أساسية لتحقيق المشروع الكبير [3]غير أن مقاومة جربه أوصلت المد الأسباني إلى نهايته.

رغم أن فشل الأسبان في الاستيلاء عليها لم يعد يؤثر على انتصاراتهم،خاصة السياسية.إذ سارع عدد من الموانئ الأخرى إلى قبول الخضوع للسيادة الإسبانية ودفع الجزية مثل تنس ،دلس ، شرشال ،وقد وجدت مستغانم و مزفران أنه لم يعد باستطاعتهم البقاء في حالة عزلة بعد أن

---

[1] زالر (غاستون). تاريخ العلاقات الدولية- العصر الحديث- من لويس التاسع إلى عام 1789، الجزء 2 ، ترجمة صادق(أنور)، دار النهضة العربية ،مصر ،1968 ،ص-ص. 104-154.

[2] المدني : حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق ، ص. ص 143-145.

[3]Martan :op-cit .pp.250-261.

سيطرت القوات الإسبانية على الساحل بكامله ،فقام شيوخها وقادالها بعقد معاهدة صلح مع فرنانديز دي قرطبة حاكم وهران .[1]

6-حملة شارل الخامس على تونس:

كانت سياسة شارل الخامس تتمثل في تطويق دولة الجزائر من شرقها إلى غربها وتقويض أركان هذه الدولة حتى يفسح المجال لاستعمار ونشر المسيحية وذلك بسياج الحصار المتين وكان الصراع بين الأمراء الحفصيين على الحكم قد انعكس على قبائل عرب سليم وصراعها من أجل السيطرة على جميع عرب تونس والاستحواذ على رضا الدولة . فأولاد مهلهل أنصار الدولة كثيرا ما ثاروا على الدولة لسبب أو لآخر.[2]

بعد طرد الحسن من العرش قرر اللجوء إلى ملك لسبانيا لطلب المساعدة , هذا الأخير الذي طلب منه البابا وضع نهاية لنشاط المسلمين في البحر المتوسط و القضاء على الوجود العثماني في تونس و هذا الطلب قابله باستحسان [3] و أعلن استعدادلمساعدة الملك المخ لوع و بد أ في الإعداد لحملة من متطوعين قدموا من إيطاليا ، البرتغال، و مالطا ، ووضعوا قواتهم تحت قيادته و نظرا لوجود فرنسا في حالة تحالف مع الخليفة العثماني فقد رفضت المساهمة في الحملة كما قام ملكها بإعلام خير الدين بالاستعدادات الأسبانية.

بعد أن جمع شا رل الخامس كل القوات في سردينا انطلق على رأس الحملة المتكونة من 400 سفينة[4] تحمل 25 ألف و 500 رجل و في النصف الأول من شهر جويلية 1335 ظهرت العمارة المسيحية أمام قرطاجة تم الإنزال دون مقاومة و أقيم مقر القيادة في المكان نفسه الذي أقام فيه سان لويس .

في المقابل قام خير ال دين باستقدام فرقة من الجزائر و استدعى إلى تونس كل البحارة المسلمين العاملين في البحر المتوسط إلى جانب دعوة القبائل العربية إلى الجهاد كما طلب الدعم من دار الخلافة ، هذه الأخيرة التي كانت قواتها في حالة حرب في آسيا الوسطى فأعلمه بضرورة

---

[1] Altamira (Rafael) : Histoire d'Espagne, Ed /Collection Universitaire, Paris, 1931, p224

[2] المدني: حرب الثلاثمائة سنة.... ، المرجع السابق، ص236.

[3] Haedo (Diego) : Histoire des Rois d'Alger, Traduit par De Grammont (Henri-Delmas) ,Bouchéne coll., Saint Denis ,Paris, 1998 , p133.

[4] أن عدد سفن الحملة بلغ 450 سفينة انظر المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق ص 47-48.و500سفينة انظر أيضا وولف :المرجع السابق ،ص 131.

المقاومة بإمكاناته المحلية، فقام ابتداء من أوت 1534م بتسليح برج الواد الذي بني عند مدخل قناة حلق الواد الرابطة بين البحر و البحيرة التي أقيمت على ضفافها تونس وكلف الريس سنان بقيادة المقاومة البحرية.

بدأت المواجهات الأولى بحلق الواد مع الجيش النظامي و القبائل التي استجابت لنداء الجهاد الذي وجهه خير الدين عبر أئمة المساجد . في 14 جويلية بدأ الهجوم الأسباني الشامل رغم المقاومة التي أبداها سنان ريس إلا أنه قرر التراجع بقواته تجاه تونس ولاحقته القوات الإسبانية عبر ممرات خطرة حول البحيرة وتمكنوا من أخذ 42 مركب الغارقة في أوحال القناة . بعد هذا النجاح فضل الكثير من قادة الجيش المسيحي عدم المجازفة و التوغل نحو الداخل والعودة إلى أوروبا ، فبقى شارل الخامس مترددا أياما عديدة إلى أن أقنعه البعض من القادة بضرورة السير نحو تونس و مواصلة الحرب . في 25 جويلية 1535 بدأ المسير نحو العاصمة التي كان خير الدين معتصما بها مع حوالي ثمانية آلاف من الجنود و عدد من أفراد الجيش غير نظامي من القبائل. هذه الأخيرة التي فضلت الانسحاب في أول مواجهة و في نفس الوقت كان هناك 25 ألف مسيحي أسير في القلعة قد تمكنوا من الخروج من السجن وهاجموا الجيش المدافع من الخلف. أمام هذه المخاطر فضل خير الدين الانسحاب نحو عنابة -الذي خطط له مسبقا - بإرسال 12 مركبة قبل وصول شارل الخامس و مباشرة بعد هذا الانسحاب قام أعيان تونس بالتوجه إلى ملك أسبانيا و قدموا له مفاتيح المدينة مقابل المعاملة الإنسانية .لكن بمجرد دخول القوات المسيحية إلى تونس استبيحت المدينة مدة 03 أيام فتم قتل 60 ألف من الأهالي نساء ا و أطفالا و شيوخا .

لم يتمكن الملك الأسباني من إعادة النظام إلى هذا الجيش إلا بعد جهد و تم تنصيب الحسن ملكا سمى نفسه أبو العباس الثاني على تونس مقابل شروط:

- الاعتراف بالحماية الأسبانية
- السماح للأسبان بالسكن في جميع أنحاء القطر التونسي.
- احتلال حلق الواد و إقامة حامية اسبانية.
- تنازل الملك الحفصي عن مدن عنابة وبنزرت وحلق الواد ليبنوا حاميات بها
- إلغاء العبودية في كل مناطق تونس.

- طرد كل القراصنة من موانئ تونس.
- حق كل مسيحي في إقامة شعائره الدينية و بناء كنائس و أديرة.
- أن يدفع ضريبة سنوية من 12 ألف قطعة ذهبية و 12 فرسا و 12 صقرا[1].

رغم هذا النصر فإن الملك الأسباني لمبأنس له بال لعدم تمكنه من القضاء على خير الدين وبالحجة نفسها فرض سيطرته على صفاقس وسوسة والمنستير ،الامـ ر الذي شكل هدفا لحملته و قوته فكلف أندري دوريا [2] بملاحقته إلى عنابة التي لجـ أ إليها من أجل الاســتعداد للمواجهـــة والجهاد.

عند وصوله إلى هناك وجد أن خير الدين قد رحل باتجاه الجزائر فقام باحتلال عنابة التي اعترف السلطان الحفصي لهم بالسلطة عليهـا عام 1535و أقام بها حامية الــتي تتحولــت إلى قاعدة لتسيير حملات ضد القبائل العربية وصلت إلى غاية قسنطينة .قبل مغادرة شارل الخـــامس قرطاجة حاول غزو المهدية [3] غير أن سوء الأحوال الجوية حالت دون ذلك لكـــن في طريـــق العودة أقام إدارة اسبانية على بترت وعنابةو.بمجرد رحيل الإمبراطـــ ور بـــدأت الثـــورات والانتفاضات تعم تونس ضد مولاي الحسن الذي لم تسامحه على استعادة حكمـــه .بمـــساعدة المسحيين، وأصبحت مدينة القيروان خلية للمقاومة.

هذا النجاح الذي دفع الكثير من الدول الأوربية إلى التفكير في الحصول على قسمة مـــن التركة الحفصية فكانت محاولات نائب المـ لك في صقلية ضد سوسة عام 1537م التي فـــشلت ، فلجأ الملك من جديد إلى حليفه ملك اسبانيا من أجل استعادة هيبته ،فقام الملك ا لإسباني بتسيير حملة عام 1539م بقيادة اندريا دوريا الذي تمكن من تحقيق استقرار الحكم لمولاي حسين على المناطق المتمردة في سوسة ، منستيرو صفاقص .

قد حاول الثوار التونسيون الاستعانةبلبرغوث صديق خير الدين ، غير أن دوريا تمكن من طرده من المنستير . هذا الانتصار الأسباني أجبر سوسة على إعلان الولاءللملك الحفصي الذي

---

(1) موريت(بيار)وسانياك(فيليب) : الفتوحات الاسبانية – من الاسترداد الى الفتح- الجزء 3 ،ترجمة احمد زكي(عطا) ، الدار المغربية للنشر ، دمشق ، 1968 ص-ص 255-280 .

(2) ان قائد الحملة لتعقب خير الدين هو الفارو بازان كقائد للحملة والمركيز موند يجلر قائدا للأسطول انظر
Primaudaie :″ Documents Inédits sur l’Histoire de l’Occupation Espagnole en Afrique″ ,R-A .N°20 1875,pp.235-236.

(3) المدني: حرب الثلاثمائة سنة ... ، المرجع السابق ، ص-ص. 236-240.

بدأ يشعر أن وضعه أصبح مهددا مع حلول عام 1542م[1] ،فقرر من جديد اللجوء شخصيا لجلب العون من المسيحيين ،فتنازل مؤقتا عن السلطة لابنه مولاي أحمد غير أن هذا الأخير قام بإعلان نفسه ملكا وأقصى والده.

شعر الإسبان بخطورة الحكم الجديد فقامت الحامية الموجودة في حلق الواد بقلب نظام حكم مولاي أحمد ومنحوا العرش لعمه لكنه بدوره قرر بعد مدة الوقوف مع ابن أخيه الذي أصبح سلطانا نهاية عام 1542م وتميزت فترة حكم مولاي أحمد بالنضال ضد القبائل المتمردة والإسبان الذي يهددونه باستمرار في هذه المدينة المحصنة تحصينا جيدا .والذين عاودوا الاستقرار في مهدية من جديد عام 1551م.

المبحث الثالث:توجهات أهداف المشروع التوسعي الأسباني

ارتبط المشروع الاسباني بظاهرة التطور الحاصل في المنطقة ، فبعد تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس بعثت سياسة جديدة تتمثل في التصفية النهائية لهذا الوجود و أصبحت اسبانيا تحكمها ثلاث تأثيرات: مدى تأثير الماضي الإسباني على مختلف القرارات المتخذة وثانيها: تأثير المصالح الروحية والدينية . وثالثها: دور المصالح الاقتصادية وهذه الأخيرة برزت بعد أن كسبت سبانيا المعركة العسكرية والسياسية في غرناطة قد وجدت نفسها مجبرة على شن حملات عسكرية على المسرح الإفريقي لاحتواء السواحل المغاربية مدفوعة في ذلك بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الإسلام، فقد كشفت تصريحات ملوك اسبانيا أن هذه المواقف ملونة بتلوين الطابع الديني المتعصب ثم التوسع الإقليمي الجغرافي دون إهمال الجانب الاقتصادي الذي كان المحرك الأساسي لهذا التوسع لكنه بقى دون تأثير حقيقي في ظل الفشل المتتابع له فكلما زادت سبانيا ربط توسعها بضرورة محاربة القرصنة التي تعيق حركة التجارة الإسبانية ،كلما أعلنت عدم السماح أساسا بتكوين دولة إسلامية قوية على مشارف حدودها .

إن اسبانيا القرن 15م التي شغلت حوض المتوسط تهدف إلى السيطرة العالمية الاقتصادية في سعيها هذا ستحقق غاية ها في فرض عقيدتها الكاثوليكية على أوروبا والأمريكيتين رافضة الاعتراف بغير ذلك . وهذا ما يفسر تعدد إنشاء دواوين التحقيق لملاحقة المسلمين والبروتستانت واليهود.

---

[1] Amoura : op-cit ,p 118 .

فبعد السيطرة على بجاية اتضحت الأهداف الدينية والسياسية لإسبانيا ومنهجها في العمل إذبدأ الوالي الجديد دون انطونيو دي رافانيدا في السعي إلى استثمار الخلاف القائم بين الملــك عبد الله، والملك عبد الرحمن فقرر بناء على تعليمات الملك فرديناند المؤرخــة في 23اكتــوبر 1511م التعاقد مع كليهما لاستعدادهما للاستسلام والتبعية فاستطاع هذا الحاكم أن يفــرض عليهما معاهدة ا تبعية لإسبانيا .[1]وقد خول البابا ألكسندر السادس اسبانيا و البرتغــال حــق ملكية الأراضي المكتشفة وهو تحفيز لكليهما على السعي للتوسع في بقية المناطق ووقع الاتفــاق في معاهدة تورد ديسيلاس (Tordo-Silasse) يوم 07 نوفمبر 1494م وباركها البابا يوليوس الثاني يوم 24 جانفي 1506 وهي فترة تنفيذ المشروع الاستعماري الأسباني انطلاقا من مليلة و سبته سنة 1497 وختمت امتدادها الساحلي إلى طرابلس مرورا بإقليم وهران ،تنس ،دلــس ، شرشال ،مدينة الجزائر بجاية وطول الساحل التونسي ، ولولا الخلافة الإسلامية العثمانية لامتــد التوسع ليصل إلى القدس شرقا.

إمبراطورية شارل الخامس وفيليب الثاني كانت تعاني من مشاكل داخلية وانقسام حاد على مستوى شبه الجزيرة هذا فضلا عن تعقد ذلك بالنسبة للولايات الإسبانية في أوروبا، ممــا يعكس مدى توزيع الاهتمامات والمسؤوليات التي جابهتها اسبانيا فدفعها ذلك إلى نقــل هــذا التناقض باتجاه البلاد الإسلامية لتوحيد الاتجاهات داخل إمبراطوريتها ، خصوصا بعد ظهور خطر الخلافة الإسلامية الذي زعزع مكانتها في البحر المتوسط و شرق أوروبا، وسواحل إفريقيــا و الذي يقتضي تحركا على الساحل الإفريقي من جهة وشكك في نزعتها التفوقيــة الهادفــة إلى الانفراد بالسيادة في البحر المتوسط من جهة أخــرى . إلا أن مــشاكل أوروبــا الــشرقية و الإمكانيات والوسائل التي استنفذتها اكتشافات العالم الجديد حالت دون تأكيد هذه الــسيطرة بشكل دائم فقد وضعت الحكومات الإسبانية خطة منظمة مضمونة ، إذ خططت لإقامة سلسلة من الحاميات على الساحل، لكن دون أن تجرؤ على التوغل في الداخل.[2]

و لذا سعت اسبانيا إلى وضع مشروع يستند على: الاحتلال، الاستقرار، التوسع واتخذ في بداية الأمر الشكل التالي :

---

[1] Mantran :op-cit .pp257-260.

[2] التميمي: الولايات العربية.... ، المرجع السابق، ص 72-74.

أولا :بعملية التفتيت المادي و المعنوي لقوى العرب المسلمين وهي المرحلة التمهيديـــة لتطـــوير الأعمال العدوانية التي سبقتها عملية جمع معلومات دقيقة عن مـــوازين القـــوى و توزيعهـــا و إمكانياتها (أعمال الجاسوسية) و كافة التقارير المعدة في هذا المجال تؤكـــد الـــصورة الإجماليـــة للجهد المبذول خلال مرحلة الإعداد للمرحلة التالية من الحرب [1]

ثانيا:احتلال بلدان المغرب ومحو آثار الإ سلام وإكراه المسلمين على التنصر . وهو مـــا ترجمتـــه تصرفاتهم المنسوبة بالعصبية والتعنت الديني.

وعن أهداف اسبانيا يذكر فرديناند برودويل: " أن كل مؤرخي الكاردينال خمينيس قـــد ركزوا على الأسباب صبغ المشاريع ا لإسبانية على هيئة الصليب، هذه الأسباب لا يمكن إهمالها ولكنها ليست الوحيدة، فأسبانيا لا تضمن مستقبلها إلا إذا جاء اليوم الذي تصبح فيه ســـيدة السواحل الإفريقية المواجهة لها".[2]فقد كان تعيين دون ديجو(Don Diego) قائدا عاما لمدينة وهران والمرسى الكبير ومملكة تلمسان إشارة إلى أن الإسبان كانوا مـــصممين علـــى احـــتلال تلمسان، ولكن النفقات الكثيرة وشدة المقاومة في الداخل حالت دون توسيع دائرة الاحـــتلال فاضطرت أسبانيا إلى الاكتفاء بسياسة الاحتلال الساحلي كمرحلة أولى .وما كـــادت اســـبانيا تثبت أقدامها بالناحية الغربية حتى وجهت أنظارها إلى الناحية الشرقية، فاستهدفت هذه المـــرة مدينة بجاية مستغلة في ذلك الخلافات على العرش بين عبد الرحمان الحفصي وابن أخيه عبد الله فاستعدت أسبانيا للحملة استعداد امحكما وبذل الكاردينا ل خمينيس من الجهد في تجهيز الحملـــة أكثر مما بذله في تجهيز حملتي وهران والمرسى الكبير وأسندت القيادة مرة أخـــرى إلى بيـــدرو نفارو، فاستعد تحت طي الكتمان لمنع تسرب أخبار الحملة إلى بجاية.[3]

وفي عام 1511م وقع وفد من مدينة الجزائر يرأسه شيخها سالم التومي في بجايـــة الـــتي جعلـــها بيدرو نفارومركز قيادته صلحا تعهد فيه بالخضوع للنفوذ الأسباني والإفراج عن جميع الأسرى المسيحيين ثم توجه الوفد عا م 1512 إلى اسبانيا فقدم ولاءه إلى الملك فرديناند، كما تعهد بتسليم صخرة البنيون المواجهة لميناء الجزائر والتي على بعد ثلاثمائة متر منه ل لإســـبان

---

(1) طبقت اسبانيا طريق جديدة في التعامل مع الأحداث إذ طورت أسلوب المواجهة من سياسة الانتظار الى سياسة الاحتواء بزرع الفتن الداخلية والتحرك بهدف إنقاذ الموقف لحليف ما.

(2) Braudel (F) : ″les Espagnoles et l’Afrique du nord de 1492-1577″ ,R.A ,N°69 1928 p.p 196-200.

(3) بل : المرجع السابق ،ص 25.

فأقاموا عليها حصنا مجهزا بحامية فأصبح شوكة في جنب الجزائر تهددها مدافعه المسلطة تهديدا مستمرا.

كان فرديناند يأمل في الاستيلاء على القل ،عنابة وسواحل تونس ليتمكن من التحكم في المضيق الصيقلي ويغلق المتوسط الغربي في وجه العثمانيون، لكن ذلك لم يتحقق لتقلب السياسة الأسبانية لأن التوسع في إفريقيا لم يكن ممكنا بالنسبة لإسبانيا إلا في فترة سلم في أوروبا، وقد أدى استئناف الحرب في إيطاليا إلى توقف النشاط الأسباني في إفريقيا وبذلك ضيعت اسبانيا فرصة توطيد أقدامها في الشمال الإفريقي ورغم ذلك فقد استطاعت اسبانيا في بضع سنوات أن تسيطر على النقاط الرئيسة من سواحل المغرب الأوسط، كما كان بإمكانها أن تتوغل في الداخل مستغلة حالة الضعف والتمزق السائد ين فيه،لكنها لم تتمكن من ذلك واكتفت باحتلال السواحل لأسباب عديدة منها شدة المقاومة الداخلية ، إلى جانب التراع الفرنسي الأسباني خاصة عندما انتخب ملك اسبانيا إمبراطورا لها لكن هناك عامل أخر وهو الأهم بالنسبة للعوامل السابقة ويتمثل في تدخل العثمانيين لإنقاذ المغرب الأوسط من التهديد الإسباني، فكان هذا التدخل ضربة قاسية للمشروع الاستعماري من جهة وعقدت موقف المراكز الإسبانية ،ووضعت حدا للتدخل الأسباني في الشؤون الداخلية للبلاد الإسلامية من جهة أخرى.

I- توجهات و أهداف المشروع الأسباني لاحتلال المنطقة :

1- الدينية: إن المسيحية كانت الدافع وراء توسيع نطاق حدود التعصب الديني، فقد أخذت الحروب الإسبانية في شمال إفريقيا شكل الحملات الصليبية ، لان الكنيسة هي التي شجعتها واعتبرتها معركتها ،فالكاردينال خمينيس قدم من ماله الخاص ما يكفي لإعداد أسطول كامل وقد لعب رجال الدين الأسبان الآخرون أمثال القس ليو متران (Matran)، و الكاردينال بوركوس(Borkouss) الدور الأساسي في إعداد الحملات الإسبانية وتوجيهها، بل قدموا من مالهم الخاص المبالغ التي أمكن بها تجهيز الحملات.

لم يكتف رجال الدين الإسبان بذلك بل راحوا يستنجدون بكنائس اسبانيا الأخرى وأوروبية عامة لدفع المال والمساهمة في الحرب الدينية ، فأرسلت إليهم كميات كبيرة من المال من أجل المشاركة في الحملة ضد السواحل الأفريقية ، على اعتبارها منطقة "تحقق وعد الرب " وقد وضع الكاردينال خمينيس مخططا مبنيا على جوانب عدة منها ما هو معنوي ديني ومنها ما هو

ماديهذا الأخير الذي زاد من أطماع رجال الدين في الخيرات التي تدرها المستعمرات على خزائن الكنائس فوضع نمطا جديدا من الحرب الدينية الاقتصادية التي تهدف إلى السيطرة على بعض الأسواق على الساحل الإفريقي ،قصد تأمين التجارة الأسبانية بتصفية الوجود البحري الإسلامي في المتوسط وتهيئة الأراضي المحتلة والمراكز بكيفية تساعد على خنق الاقتصاد الإسلامي وتمنع من استرداد الأهالي لهذه المراكز لمدة طويلة.[1]

فالتوسع الأسباني والاكتشافات البحرية الواسعة كانت موجهة أساسا ضد المسلمين من اجل القضاء على تجارتهم وإحلال القوى الرأسمالية التجارية الجديدة محلها من جهة ومن جهة أخرى الالتفاف على الأراضي الإسلامية المقدسة من خلال الفكرة الخيالية التي راجت من وجود مملكة يوحنا المسيحية وسط إفريقيا ولذا سعت لسبانيا والبرتغال إلى إقناع شعوبها بضرورة التوسع[2]، وتزامن ذلك مع تراجع القوة الإسلامية في الأندلس بعد تحطيم غرناطة ، وعجز المماليك عن حماية الطرق التجارية - طريق البهارات والتوابل - فتكتل المسيحيون شعبا وكنيسة وسلطة لضرب الأهداف الإسلامية التجارية.

كما تدخل البابا اسكندر الرابع في العمل التوسعي كإشراف الكنيسة على هذه العمليات[3]، إذ عمل على حل الخلاف بين الأسبان والبرتغال نتيجة لتصادم التوسع الأسباني والبرتغالي، و مول معارك السنوات العشر 1482 -1492م كلها بأمر منه بفرض ضريبة – الضريبة الصليبية- كما باع ذخائر الكنيسة وكنوزها ،وأصدر عهدا يبارك في الصليبية الجديدة على إفريقيا ومنح الولاية للملكيين على كامل الأرض التي يفتحانها في المغرب هؤلاء الذين لم ينسوا أبدا ثلاثة أمور غذت نزعتهم الدينية [4] أن جنود الفتح الإسلامي لأسبانيا قدموا من بلاد المغرب في إطار الفتوحات الإسلامية الكبرى بقيادة طارق بن زياد، وان الممالك المسيحية كادت تقض على الممالك الإسلامية مستغلة عوامل الفتنة والانقسام ، كانت النجدات تصلها في ما يشبه فتحا جديدا من بلاد المغرب الإسلامي خاصة في عهد القوة – الموحدين –وأن

---

[1]Fisher (Sir Godfrey):Legende Barbaresque,Traduit parHellal(Farida),O.P.U,Alger,2000,p71.

[2] المدني: حرب الثلاثمائة سنة.... ، المرجع السابق، ص ، ص 28-29.

[3] أبو علية(عبد الفتاح)و ياغي(إسماعيل):تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، د.م.ج، الجزائر، 1984 ،ص.ص75-76.

[4]Sander(Rang) et Denis(Ferdinand) :Fondation de la Régence d'Alger –Histoire des Barberousse, , Librairie de l'Evêche Orientale, 1837,.Tome II,pp.9-10.

المسلمين الذين كانوا يضطرون إلى الفرار أمام الانتصارات الإسبانية المتتالية وجدوا ملجأ لهم في المغرب واستثاروا أهلها للجهاد.

لذا اندفعت أسبانيا إلى العمل البحري السريع في شمال إفريقيا نتيجة الخوف من ردة فعل افريقية سريعة، ومنظمة في حالة قيام كيان سياسي موحد يمكن له استعادة الأندلس من جديد[1]، فبدأت اسبانيا التفكير في إستراتجية عسكرية وهي نقل الحرب إلى أرض العدو على شاكلة ما قام به الرومان عندما اجتاح حنبعل أوطانهم، يدفعها الشعور بالقوة والرغبة في إقامة إمبراطورية ستسود العالم سواء في أوروبا أو أمريكا أو إفريقيا، تحت شعار المسيحية المنتصرة، خاصة بعد ظهور الخلافة الإسلامية العثمانية في الشرق، التي أرادوا سبقها في احتلال شمال أفريقيا، وتدفعهم إلى ذلك المشاكل الاقتصادية ،فاكتساح المغرب الإسلامي وإخضاعه للحكم الأسباني سيضع حلا لهذه الأزمة الخانقة في ظل الغنى والثروة التي تتمتع بها المنطقة،فهي مراكز عبور إلى إفريقيا الوسطى وموطن الذهب واحتلال المغرب يمكن الإسبان من السيطرة على البحر المتوسط ويقضى بذلك على منافس قوى في النشاط البحري وهي البحرية الإسلامية.فكان قيام اسبانيا على أسس دينية صرفة أشعل من خلالها رجال الدين الحماس الصليبي وجمعوا الشعب بتبني الوسائل حول الدولة .كما تسلموا السلطة واشرفوا على تسيير شئونها إلى جانب الدور الذي قام به البابا الذي وضع كل الإمكانيات تحت إشراف وتصرف اسبانيا لإخضاع بلاد الشمال الأفريقي.

وقد ساعدت الحرب ضد المسلمين على ظهور الروح القومية في اسبانيا، بل أدت إلى ميلاد اسبانيا الحديثة الموحدة عام 1474م[2] ويضاف إلى ذلك نجاح الإسبان والبرتغال في الكشوف الجغرافية وتحقيق موارد مالية ضخمة وانتصارهم الساحق الذي حققوه في شمال أفريقيا مدفوعا بالتحريض المستمر من طرف الكنيسة للإسبان خاصة،ولسكان أوروبا عامة على مواصلة الحرب ضد الإسلام والمسلمين ، كما اعتبر الإسبان شمال أفريقيا بمثابة نقطة الوثوب لإعادة فتح أسبانيا من طرف المسلمين المغاربة وأنها كانت في نظرهم السند العسكري القوي الذي أخر عملية الاسترداد عدة قرون رغم ما كان عليه مسلمو الأندلس من ضعف

---

[1]Lopez (R-S) : Naissance d l'Europe, Casterman..Coll (Moi, Mémoires),Paris ,1968 ,p203.

[2] المدني: حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق ، ص.ص 87-88.

وتمزق[1]كما كان لوصية الملكة إيزابيلا حافزا لمواصلة الحرب ضد المسلمين بالمغرب تأثير كبيرا و لرجال الدين الأسبان الدور الكبير أيضا، سيما رجال محاكم التفتيش الذين ظلوا يغذون على الدوام نار التعصب [2] وقد أخذوا باضطهاد المسلمين بقسوة بعد سقوط غرناطة عام 1492ومازاد في قلق الأسبان ظهور النشاط البحري الإسلامي على سواحل المغرب الإسلامي ورفعه لمبدأ الجهاد بتأثير عدة عوامل منها: الأزمة الاقتصادية والسياسية منذ منتصف القرن الرابع عشر وهجرة مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا واستقرارهم في الموانئ، وإسهامهم في تمويل سفن "القرصنة" وتشجيعها بدافع الربح والانتقام من الأسبان.

كانت هذه الحملات وليدة الصراع مع المسلمين منذ إنهاء الحروب الصليبية في المشرق 1096-1298موتم إحياؤها خلال حرب الاسترداد .[3] وقد اشتدت تجاوبا مع دعوات البابا اسكندر الرابع إلى الحرب الصليبية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر إثر سقوط القسطنطينية عام 1453م ،أواخر ذلك القرن وصل العثمانيون إلى أسوار البندقية وايطاليا وفيينا،كما كان لثورة المسلمين في غرناطة عام 1501م وهجمات البحارة المسلمين على الجزر والسواحل الأسبانية سنة 1505أن زادت من تعصب الإسبان، وتأكيد استمرارهم في خطة للإحتلال المغرب، فاضطر سكان الموانئ الإسبانية إلىرفع شكاوى أعلنوا فيها عدم استطاعتهم دفع الضرائب لعدم تمكنهم من مزاولة التجارة مع الخارج أو زراعة أراضيهم .كان هذا دافعا إضافيا للعمل على تجسيد المشروع الاستيطاني كما أخذ الصراع بين الإسلام والمسيحية أبعادا سياسية حيث ستعمل الكنيسة على الحفاظ على روح التعصب لدى سكان هذه الجيوب ومراقبة المسلمين واليهود كما أصبحت الكنيسة أكثر صرامة فيما يخص الإيمان وحتى العرش كان متطرفا حول نشاط التوسع الديني، فكانت ترى في توسعها في إفريقيا الشمالية دفاعا عن المسيحية.

---

[1] التميمي (عبد الجليل) :"الخلفية الدينية للصراع الأسباني العثماني على الايالآت المغربية في القرن 16"، المجلة التاريخية المغاربية ،العدد 6 ،تونس ،1978 ، ص ـص 5-44.

[2] "... إنني أرجو الأميرة ابنتي (جين) والأمير زوجها (فليب) وأمرهما بإطاعة وصايا أمنا المقدسة الكنيسة طاعة تامة، وأن يكونا حماتها والمدافعين عنها حسبما يقتضي واجبهما وأن لا يكفا عن متابعة فتح أفريقيا ومحاربة الكفار في سبيل الإيمان..."

[3] ابوعلية و ياغي: نفس المرجع السابق ، ص 19

فتم تحويل وهران إلى محور للتوحيد المسيحي الأسباني في إفريقيا الشمالية. تم فيها تحويل العديد من النظم الإدارية والاجتماعية والاقتصادية ، والدينية التي أقامها الملك الكاثوليكي للمدن الإسلامية التي تم احتلالها وطرد المسلمين منها ،كما تم تحويل المرسى الكبير إلى مركز رئيسي للدفاع عن التواجد المسيحي الإسباني المقام بواسطة العديد من المراكز حيث تم تحصينه وحول إلى مدينة مسيحية تدافع عنها العديد من الحاميات من خلال بناء قصور وقلاع وفقا لأحدث التقنيات العمرانية للتحصين، كما أوجدوا نظاما دينيا وهياكل إدارية واقتصادية ،كل هذه الأعمال ساهمت في استقرار السكاني الأسباني.[1]

حولوهران إلى مدينة مماثلة للمدن الأسبانية العريقة ،في نفس الوقت عانت وهران والمرسى الكبير من أثار هذا التواجد ، إذ اصبح التمويل والتعامل مع المسلمين صعبا رغم أن المدن الواقعة تحتنفوذ التجارة الإسبانية مثل مزفران التي انهارت تجارتها منذ احتلال وهران بسبب حركة النشاط البحري الأسباني قد حاولت الاستفادة من وجود هؤلاء وقدمت مساعدات للحاكم الإسبانيفي مقابل الدعم السياسي. هذا ما ساهم في فتح مجال التعامل مع بعض القبائل، وأصبح الوسيلة الوحيدة للعيش خاصة بعد استمالة الأسبان لبني زيان والبرجوازية التلمسانية الذين حاولوا استرجاع ملكهم بالاعتماد على الأسبان ضد القبائل المناهضة لهم ، و شكلت العقوبات المفروضة على الجنود من قبل الكنيسة عاملا في هروب الكثير منهم ودخولهم في الإسلام.

تحول هذا الوجود إلى مراكز أساسية للتبشير الديني والمراقبة الدينية إذ اصبح ميناء قرطاجنة أهمالموانئ الأسبانية للاتصال بين مستعمراتها و تم إنشاء محكمة تفتيش في غرناطة عام 1506م التي تضم تحت سلطتها كل من مدينة ملاقا و الميريا (Almeria) بهدف إيجاد نموذج لهذه المحاكم إذ بدأ العمل بها في مستعمراتها، انطلاقامن المجلس الديني الأعلى الذي من خلاله كانت كل المحاكم المختلفة والموزعة على الأراضي الإسبانية تفرض سلطتها التي امتدت لى غاية الأراضي المحتلة مثل مناطق إفريقيا الشمالية كوهران حيث تم تشكيل محكمة تفتيش مركزية مهمتها الإشراف على بقية المحاكم، وذلك بهدف تحويل هذا المركز إلى قاعدة للسيطرة الدينية

[1]Garcin(Jean-Claude) :Grandes Villes Méditerranéennes du Monde Musulman,Collection de l’école Française de Rome ,2000,pp252-254.

على شمال إفريقيا. غير انه ابتداءا من عام 1516م وبعد سنوات من وجود محكمـــة تفتـــيش في وهران، بدأت تظهر صعوبات إدارية في المركز فأصبح من الصعب القيام بمهام المحكمة.

في عام 1525م فقدت المحكمة قدرتها على الرقابة والتفتيش في هذه المدن ممـــا أدى إلى ربط هذه المحكمة بمحكمة مورسيا (Murcia) التي تم إنشاؤها عـــام 1488م للقيـــام بمهمـــة الإشراف والتفتيش على المدينتين وهران والمرسى الكبير .كما تم السماح بإحالة بعض القضايا الأساسية إلى محكمة طليطلة والتي منحت الصلاحيات الكاملة لرئيس كنيستها ليـــشرف علـــى نشاط محكمة وهران التي تم حلها بقرار ملكي عام 1536م. وتم تحويل القضايا المتعلقة بالأمور الدينية والإشراف الى محكمة التفتيش بمورسيا أو مليلة ، ينطبق الشيء ذاته على المدن المحتلة من قبل البرتغال على ساحل المحيط الأطلسي ، والتي نزعت من أسبانيا عام 1580 ،إذ أنـــيط لهـــا صلاحية المراقبة والتفتيش فيها للمحاكم البرتغالية المتواجدة في لشبونة ونظرا للرقابة الـــشديدة فيما يتعلق بأمور الدين من قبل النائب الديني وتواجده المستمر و نظرا للمعاناة المـــستمرة مـــن الناحية المعيشية للسكان من عسكريين ومدنيين خاصة بعد الفتاوى التي أصدرها بعض العلمـــاء من الطرق الشاذلية و القادرية حول عدم جواز التعامل مع الكفار، أثر كثيرا على الحالة المعنويـــة للجنود الأسبان والبرتغاليين في المجمعات السكنية العسكرية، فاندفع هؤلاء سواء لاعتناق الإسلام والتوغل في الأراضي المحيطة قصد إيجاد طريق العودة إلى أسبانيا أو السعي للعودة الى موطنـــهم بالطرق المختلفة.[1] وأصبحت بذلك عملية الهروب على الطريقة الأندلسية الوســـيلة المفـــضلة للجنود. [2]

2- السياسية والإستراتيجية:

بعد استكمالها لعملية الطرد ، بدأت اسبانيا التفكير في استرجاع الثروات ،فاتجهت أنظـــار الإسبان نحو أفريقيا أين استطاع البرتغال تحقيق أحلام التوسع مدفوعة بالرغبة في إجهاض أي رد فعل قد يكون مصاحبا للثورات المشتعلة ببقايا المقاومة الأندلسية خاصة في عام 1501م حيث حاول الاسبان استغلال ما عرف بمؤامرة المسلمين ضدهم واتصال الاندلسيين بالخليفة العثماني ، وبقية حكام الشمال الإفريقي بقصد الإعداد لحملة إنقاذ جديدة فقرروا القيام بعمليات طـــرد منظمة.وفي عام 1493م، أي بعد عام من سقوط غرناطة بإرسال جواســـيس أشـــهرهم دو

[1] Geignard :op-cit, pp.122-125

[2] سبنسر(وليم): الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة زبادية (عبد القادر)، ش.و.ن.ت ،الجزائر،1980،ص.ص26-27.

زافرا(De Zaffra) الذي تمكن من السفر إلى السواحل المغربية وطاف بها ونقل الوضع العـــام السائد مركزا على وجود قبائل يمكن الاستعانة بها ،كما أعطى وصفا للغنى الذي تتمتع به المنطقة فسعى الإسبان إلى إنهاء نزاعهم مــع البرتغــال حــول مليلــة بمعاهــدة توردســيلاس [1] في 07جوان1494م بموجبها تخلى البرتغال عن مليلة و غساسة مقابل امتياز الــصيد للبرتغـــال في جنوب بوجادور[2] على سواحل الصحراء الغربية في المحيط الأطلسي [3] كمـــا قـــررت اســـبانيا استكمال عمليات التجسس بإرسال دوباديلا (De Padilla) [4] نظرا لمعرفته الكبيرة لمنطقـــة المغرب و خلال فترة تواجده تمكن من السفر متخفيا داخل مملكة تلمسان مكن اســـبانيا مـــن معلومات ساعدتها على الانطلاق في تجسيد مشروعها باحتلال مليلة بأســـطول كريـــستوف كولومب الذي جمعت قطعه في جبل طارق و لم يتمكن سكان مليلة من الدفاع عن أنفسهم أمام تخلي سلطان فاس عن مساعدتهم ، واستكملت غساسة الصغيرة القريبة من مليلة . اقتـــرح ذات الشخص -دو باديلا- على ملك أسبانيا التوسع من مليلة إلى غاية الجزائر العاصمة التي تمثـــل مناطق كفيلة بإنهاء ألا زمة الاقتصادية غير أن مخططه رفض و جمدت الأنشطة الاستعمارية إثـــر وفاة الملكة إيزابيلا عام 1504م لمدة ثما ن سنوات.وأثناء معاودة تنشيط المشروع انقسم الـــرأي العام الأسباني فالنبلاء والباحثون عن الثروة وبعض قادة الجيش فضلوا الاتجاه إلى العالم الجديـــد بينما انصب اهتمام مملكة اراغون بملكها وسكانها على إيطاليا وضـــم الكنيـــسة الكاثوليكيـــة والبعض الآخر وجوب تنفيذ وصية إيزابيلا .[5] فبدأ التفكير في المشروع الكـــبير نظريـــا المتمثل في احتلال المغرب الأوسط انطلاقا من المرسى الكبير بعد احتلال مدينة هنين ثم دلس إلا

---

[1] وهي المعاهدة التي أبرمت على ضوء القرار الذي أصدره البابا اسكندر السادس لحل مشكلة توزيع المستعمرات خـــارج أوروبا ، إذ قسمت المهام بان يتولى الأسبان مهمة الاسترداد بحرب صليبية ضد المسلمين في شمال أفريقيا مقابـــل اســـتقرار البرتغال على السواحل الغربية.

[2] منطقة افني المغربية

[3] فيشر: المرجع السابق ،ص-ص 74-80.

[4] بناء على تقريره كتب فرديناند زافرا كاتب الملكيين الكاثوليكيين الذي كلف عام 1492 لمراقبة عبور الأندلسيين إلى المغرب الوضعية التي تعيشها المنطقة سنة 1494 يقول " إن البلاد كلها تعيش حالة من الفوضى يبدوا أن الرب يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة " Martran : op-cit, p.115

[5] وولف: المرجع السابق ، ص 66.

أن الإسبان تراجعوا عن احتلال هاذين الموقعين وفضلوا البدء باحتلال المرسى الكبير كخطوة أولى في المغرب الأوسط لربط الأجزاء المحتلة بعضها ببعض.[1]

لقد كانت سواحل المغرب العربي ضرورية لكل اتصال بحري آمن بين سواحلها وسواحل ايطاليا الأسبانية، كما كانت ضرورية لنشاطها في البحر المتوسط وكانت الطبقة السياسية تدرك كيف توفق بين الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية ،إذ كان الكاردينال خمينيس يرى أن الاستيلاء على الجزائر ضروري للتوسع الأسباني، فقد صمم عملية العدوان والملكة إيزابيلا التي كلفت بعض من أتباعها بمهمة استطلاعية سرية في مملكة تلمسان في عهد السلطان أبي عبد الله محمد 1495-1503م وتنكر المبعوثان في زي التجار فامضيا عاما في مملكة تلمسان وحصلا على كل المعلومات لمشروع الغزو الذي يجري الإعداد له.[2]

كان اتخاذ قرار الغزو من قبل ملوك اسبانيا دافعا سياسيا ، فبعد أن تمكنوا من تحقيق الوحدة اتجهوا إلى السيطرة على العالم من خلال البدء بالاستيلاء على القارة الإفريقية والأوروبية واستغلالها على غرار القارة الأمريكية حيث تم إحياء أمجاد الإمبراطورية القديمة بالاندفاع السريع إلى سواحل المغرب الإسلامي عندما أدركوا خطر الخلافة العثمانية ، بعد تمكنها من مد نفوذها إلى مناطق المغرب الإسلامي فأصبح تهديدا مباشرا على اسبانيا في عقر دارها.

3- الاقتصادية:

سعت البرجوازية الإسبانية يساندها رجال القصر إلى إقناع الملك فرديناند الذي كان يرغب في الحيلولة دون تدخل قشتالة في المغرب الأقصى إلى جانب وضع حد للقرصنة المعرقلة لقوافل القمح ،كما استعمال فكرة بعث الروح الصليبية التي كانت منتشرة بالجزيرة و توظيفها خدمة للأغراض الاقتصادية في حرب الاسترداد ، فبدأ يرسم خطة اقتصادية مواكبة للمخطط الديني الذي يقوم على ضرورة الحيلولة دون قيام دول أخرى باحتلال شمال أفريقيا لما يمثله من مجال للثروة [3].

لم يكن شمال إفريقيا من وجهة النظر الإسبانية غاية في حد ذاته بل جزء من الإمبراطورية الاقتصادية الممتدة الأطراف التي كانت اسبانيا تعمل على تكوينها بسواحل البحر المتوسط

---

[1] De Sandoval :" les inscriptions d'Oran et Mers El-Kébir", R-A N°9 1865 p 68.

[2] Robertsen(Ricard) : Les Etablissements Européens en Afrique du Nord du XV au XVIII siècle ,et la Politique d'Occupation restreinte, R.A,N° 79,1936 ,pp.687-688.

[3] جوليان: المرجع السابق، ص-ص.247 -255.

والمحيط الأطلسيإلى جانب البرتغال الذي يسعى إلى الهدف ذاتهعلى سواحل المحيط الهندي وهوالأمر الذي يعلل زهد البرتغاليين في احتلال المغرب الأقصى وتفضيلهم نظاما شبيها بنظام الحماية العسكريةفي حين كانت رغبة الإسبان تزداد شيئا فشيئا كلما تضاءل التوسع البرتغالي وهذا بفعل الأسباب الاقتصادية الهامة، إذ أن أسبانيا اصبحت تعاني من أزمة اقتصادية رهيبة بعد القضاء على دولة الأندلس الإسلامية ونتيجة لذلك تعطل الإنتاج وانعدمت وسائل التصنيع وتدهورت التجارة والمعاملات ورغم ما تنهبه من العالم الجديد من ثروات لتمويل حروبها الدينية ظل العجز قائما فلجأت إلى أسلوب جديد وهو تجارة الرقيق عندما انتهت الحروب الصليبية في المشرق،شهدت تجارة الرقيق نوعا من الجمود حتى بعثها من جديد ملوك الغرب الذين شجعوا استرقاق المسلمين[1] كوسيلة من جملة وسائل الحروب الصليبية الشاملة [2].

في الوقت ذاته ،انطلق البرتغال في تشجيع تجارة الرقيق منذ سنة 1513م بشراء العبيد واقتناص الزنوج من إفريقياالمسلمة ونقلهم إلى المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد . كما عملت اسبانيا على منح رخص دينية وقعها الكاردينال خمينيس لعدد من تجار الرقيق تبيح لهم ذلك، مشترطا تخصيص خمس الفوائد لخزينة الكنيسة .في سنة 1517م منح ملك الإسبان شارل الخامس رخصة احتكار تجارة الرقيق لأحد قساوسته بربرا (Barbra) فاتسع نطاق التجارة لتدخل فرنسا إلى مجاله بعد أن أذن لويس الثالث عشر 1601-1643م بممارسة هذه التجارة وتبعتها بقية الدول الأوروبية ،فنشطت بذلك تجارة الرقيق التيأصبحت شرعية وشائعة لدى الدول الأوروبية ،وهي منظمة بمراسيم حكومية وقوانين معروفة.

ولماكانت القرصنة تدر أرباحا كثيرة فقد حول التجار الإسبان كل من وقع في قبضتهم من سكان إفريقيا الزنجية،أو إفريقياالبيضاء إلى عبيد ،وسخروهم في الأعمال الشاقة ، وعمرت بهمأمريكا الوسطى والجنوبية وبالأسرى المسلمين جزائريين[3]وأمام هذه الحالة لم يبق للإسبان من سبيل لكسب المعيشة إلا ذلك النوع من العمل البحري، فاندفعوا في غزوات ومغامرات في

---

[1] ونذكر هنا ما أقدم عليه الملك شارل الخامس أو الذي أقام جماعة أوربية في جزيرة مالطا جلهم من المسيحيين المتعصبين للديانة المسيحية وهم فرسان سان جاك الذين عرفوا فيما بعد باسم فرسان مالطا.وكانوا من قبل في جزيرة رودس قبل أن يفتحها العثمانيون سنة 1522،وكلفهم بمطاردة المسلمين أينما وجدوا في البر والبحر وبيعهم إلى الأوروبيين.

[2] عوض و البيشاوي:المرجع السابق ،ص ص 160-173.

[3] Belhamissi : les captifs Algériens… op-cit ,p68.

إفريقيا و أوروبا وأمريكا ليستحوذوا فيها على كل شيء ،وقد تطلع الأسبان إلى المغرب العربي أملا في إخضاعه لحكمهم ليكون وسيلة لحل الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعاني منها، لما فيه من صناعات مختلفة نالت شهرة واسعة من جلود ، صوف وحرير.ومن المغرب العربي يقع الاتصال برا بإفريقيا الوسطي التي شاع عنها يومئذ أنها بلاد الذهب وأن الاستيلاء على سواحل المغرب العربي يقضي نهائيا على "القرصنة الإسلامية"التي نشأت على ضفافه التي كانت تقابل العدوان بالمثل، وأن الوصول إلى احتلاله يجعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحرا أسبانيا حيث تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه، وتحيي بذلك البحيرة الرومانية.(1)

لكن أسبانيا لم تتمكن من تحقيق غاياتها في احتلال المغرب العربي وإخضاعه ل لإستعمار الأسباني لأسباب منها : انهماك اسبانيا في حروب مستمرة مع أور وبا وتنافسها مع البرتغال على العالم الجديد، وأقوى هذه الأسباب مقاومة العثمانيين الشديد ة وتمسكها بمبدأ الدفاع عن أراضي الخلافة والإستماتة في الدفاع عنها .

II -الحملة الإسبانية 1541 وتداعياتها الدولية والإقليمية:

استغل شارل الخامس سفر خير الدين إلى مقر الخلافة ، فقام بتجهيز حملة على غرار الحملة التي شنها على تونس و الهدف منها احتلال عاصمة الدولة الجزائرية غير أن احتلاله لتونس لم يكتمل فقد ظلت سوسة في يد المسلمين ، كما أن النشاط البحري أخذ منحى أكثر حدة ضد الأساطيل الإسبانية بعد تولي خير الدين قيادة الأسطول العثماني. فالقيروان أصبحت عاصمة المقاومة التونسية للأسبان وعميلهم والتجارة في البحر المتوسط شلت و مضيق جبل طارق تعرض للإغارة عام 1540 فبدأت الشكاوى تنهال على شارل الخامس من جميع المسيحيين والكنائس الأوربية للقضاء على هذه الشوكة في حلق الأوربيين، فقرر شارل الخامس القيام بعمل صارم ضد الجزائر و تحرير البحر المتوسط الذي وصفه بموطن القرصنة:

« Résolut de frapper un coup décisif et s'emparer de repaire même des pirates d'Alger, leur capitale »

و لم يكن الفصل ملائما للقيام بحملة ، لذا حاول البابا و أندري دوريا إقناع شارل بتأجيل المشروع إلى حلول فصل الربيع، غير أنه أصر على العملية و بدأ في تسريع الاستعدادات، محددا

(1)Gonzalez(Raymond-Anita) :la Croix et le Croissant « les inquisiteurs des Iles face à l'Islam 1550-1700››,CNRS Edition ,Paris ,1992 ,56-60.

جزر البليار كنقطة تركيز و التقاء القوات التي ستقوم بالعمل ضد الجزائر .[1] في 19 أكتوبر 1541م وصل الأسبان أمام ساحل الجزائر، بعد مناورات لمدة 03 أيام من خليج كاسين (Casine) إلى خليج ماتيفو نتيجة للرياح تمكنت الأرمادا[2] من الرسو في النهاية على شاطئ الحامة في المقابل كان حسن أغا قد بدأ الاستعداد قبل وصول الحملة و أتخذ العديد من الإجراءات للدفاع عن المدينة ،إذ قام بإصلاح الأسوار وتقويتها و ترميم الحصون على البحر و البر و فرض عقوبات صارمة على الأهالي الذين حاولوا الفرار من المدينة .كما قام بتوزيع الأسلحة على السكان وحدد لكل واحد مركزه و مكانه في المقاومة وألقى خطابا دعا فيه إلى المقاومة والصمود **(انظر الملحق رقم 4)** كما قام باستدعاء كل المحاربين من القبائل المجاورة . في اليوم الأول بدا الإسبان في إنزال المدفعية وطاقمها الذي حاول الدخول في مناوشات مع الجنود الجزائريين الذين حاولوا عرقلة عملية الإنزال.

كان اعتقاد الإمبراطور أن المدافعين عن المدينة قلة ، لذا حاول التفكير في وسيلة لتجنب المواجهة من خلال القيام بعرض القوة ، ثم دعوة حاكم المدينة إلى الاستسلام، لكن حسن أغا استقبل المبعوثين من قبل الإمبراطور باحترام ،و أجابهم بكلمات قوية.**(انظر الملحق رقم 5).**

وابتداءا من يوم 25 أكتوبر بدأ الجيش الأوروبي التحرك للاقتراب من المدينة و لم يقم بأكثر من ألف خطوة حتى توقف بالحامة بعد أن صدته العديد من الهجمات المتقطعة .كما قام شارل الخامس بنصب مقر قيادته عند مقام الولي سيدي يعقوب أين يقوم اليوم نصب حصن الإمبراطور.وكان كل شيء ينبيء بأن ساعات الجزائر قد حلت الفرق العسكرية كانت في مراكزها، الأسطول يغلق الميناء و المدينة محاصرة من كل الجوانب ، لكن مع العصر من اليوم نفسه بدأت الغيوم في السماء و عصفت رياح قوية أحالت دون استكمال انزال العتاد و المؤونة وأصبح الليل مرعبا برا و بحرا . الأسطول لم يجد الوقت للبحث عن ملجأ فتحطمت العديد من المراكب و السفن ومع الصباح خرجت فرقة من الجيش الجزائري و رمت ثقلها على 03 فيالق إيطالية و تمكنت من القضاء على الخط الدفاعي الأول. استغل حسن أغا هذا الانتصار فقام

---

[1] الحملة كانت مشكلة من 516 عمارة من بينها 65 سفينة و 450 مركب لنقل الجنود و تحمل 25 ألف رجل من قوات الإنزال أو المشاة، انظر:المنشاوي(علي): اسبانيا بين الاكتشاف والاستعمار ،المكتبة الانجلوا أمريكية ،بيروت ،1965 ،ص 19.

[2] الارمادا كلمة اسبانية يقصد بها الأسطول البحري الكبير Armada وبالفرنسية Flotte

بمحاولة ثانية على فرسان مالطة ،غير أنه لم يتمكن من اقتحام مراكزهم , ثم تعـــرض الفيلـــق الألماني إلى هجوم صاعق دفعهم إلى التراجع عن مراكزهم لولا تدخل الإمبراطور نفـــسه علـــى رأس الفرقة الخاصة الألمانية .

هذه الهجمات المنظمة إضافة إلى الأمطار المتسا قطة حرمت القوة المسيحية من اســتخدام بنادقها من جهةو الأرض التي اصبحت وحلا أدت إلى صعوبة الوقوف و مقاومة الرياح الــتي بدأت في الهبوب بقوة شديدة خاصة ليلة 25 أكتوبر إلى 26 أكتوبر وتحولت إلى إعصار مـــن جهة أخرى، فتحطم 104مركب على الساحل أما طاقمها فقد تم أسرهم من قبـــل الفـــرق الجزائرية التي كانت تحرس الشواطئ من الساحل إلى خليج ماتيفو و أصبح الجـــيش الأوروبي في وضعية معنوية سيئة، فاقتنع شارل الخامس بأن حملته قد فشلت ،و أنه مجبر على إنقاذ ما يمكـــن إنقاذه و محاولة الهروب الى خليج ماتيفو أين اتجه مابقي من أسطوله خوفا من العاصفة ، فبـــدأ بالتراجع يوم 28أكتوبر وهو ملاحق من القوات الجزائرية من المـــشاة و الفرســـان إلى وادي الحراش، فتوقف من أجل بناء جسر للعبور من الأشجار المتساقطة و أخشاب السفن الأســـبانية التي تحطمت و بدأ العمل ليلا و انتهى صباحا و بعد جهد وصل ما تبقى مـــن الجـــيش إلى خليج ماتيفو في 30أكتوبر صباحا و قام الجيش بجلب المؤونة و خصص يوما للراحة، ثم بـــدأ في ركوب السفن في 01 نوفمبر و بدأ الأسطول مسيرة العودة عبر الشاطئ باتجاه بجاية أين تلقوا مساعدة من السكان بناء على الاتفاق المعقود بين الأسبان و بعض القبائل التي كانت من المقرر أن تساعد الحملة الأسبانية في حربها ضد الجزائر لم يستطع الإمبراطور الوصـــول إلى مينـــاء قرطاجنة إلافي نهاية نوفمبر [1]، فوضع بذلك نهاية لمشاريعه الخيالية نتيجة للخسائر الكبيرة الـــتي مني بها.

ليس هناك اتفاق بين المؤرخين حول الخسائر التي لحقت بالحملة الصليبية الدوليـــة علـــى الجزائر، إذ بلغت الخسائر نصف الحملة[2] التي ظل البحر في دلس شرقا و الجزائر و شرشـــال غربا يلقى بجنودها المسيحيين الغرقى و الأحصنة و العتاد.

---

[1] Feredj (Mohamed Seghir) : Histoire de Tizi-Ouzou et de sa Région des Origines à1954 ,2eme Edition, Hammouda, Alger, 2002,pp 30-40

[2] قدرت الخسائر من قبل المؤرخين المعاصرين 200سفينة من أصل 400سفينة نقل و 65 سفينة حربية منـــها 30ســـفينة حربية و200مدفع و 12الف جندي بين قتيل وجريح من أصل 24 ألف رجل. انظر: Geinard:op-cit, p.252

هذه الكارثة رغم الإعداد الجيد لها أدت إلى يقظة الشعوب المسيحية لمدة ثلاثة قرون وجعلتهم يدفعون ضريبة ما قام به الإمبراطور و أصبحت الدولة الجزائرية قوة إقليمية و دولية.
مكن هذا الانتصار حسن أغا من مد سلطته شرقا ، حيث تمكن من فتح بسكرة وكل الزاب ، و في الغرب سلك أسلوب خير الدين في التعامل مع حاكم تلمسان العميل الأسباني و القادر على إثارة مشاكل كثيرة مع القبائل .فبدأ الاتصال بأفراد عائلة بني زيان و لم ينتظر كثيرا ، إذ حانت الفرصة للتدخل في شؤون المملكة فبعد وفاة مولاي عبد الله الذي قلد العرش بفضل مساعدة خير الدين ، بدأ الأمير أحمد يتصل بحسن أغا في محاولة لتولي العرش بدلا من أخيه الأكبر هذا الأخير الذي لجأ إلى حاكم وهران الأسباني طالبا الحماية مقابل إعلان الولاء لأسبانيا، غير أن هذه المحاولة لم تقنع الإمبراطور شارل الخامس الذي مازالت هزيمته عام1541م ماثلة أمامه.فكلف دون مرتان (Don Martin) حاكم وهران بإرسال حملة ضد تلمسان من أجل نصرة الأمير اللاجئ ،فعين ألفونس مارتيناز (Alphonse Martinez) على رأس قوة من 1000جندي وانطلق بها من وهران ، إلى أن أصبح على مسافة 25كلم من تلمسان التقى مع قوات السلطان أحمد حليف حسن أغا عند وادي يسر ، فلم يستطع الصمود كثيرا وتمت إبادة الجيش الأسباني باستثناء 22جنديا تمكنوا من الفرار نحو وهران. أما القائد مارتيناز فقد وقع في الأسر مع 13من جنوده و هذه الهزيمة قرر شارل الخامس إرسال قوات إضافية إلى وهران مع كونت الكودات (Comte Alcoudette) وكلفه بتأديب حاكم تلمسان وإنهاء وجودها كدولة. هذا الأخير قاد الحملة يوم 27 جانفي 1544م بجيش قوامه 9000 جندي و 400 فارس باتجاه المدينة التي انسحب منها السلطان أحمد، فقام السكان بفتح أبواب المدينة لكن هذا العمل المستسلم لم ينقذ المدينة من مصيرها إذ بقى الأسبان أربعة أيام في المدينة واستباحوها، كما سير العديد من الحملات ضد القبائل حاول حاكم الجزائر نجدة السلطان احمد غير أن نجدته وصلت متأخرة بفعل عرقلة قبائل بني عامر لسير الجيش الجزائري وتمكنت من القضاء على فرقة منه. بعد وفاة حسن أغا قام الخليفة العثماني بتعيين حسن بن خير الدين ، الذي بمجرد أن تولى مقاليد السلطة أتجه نظره نحو الغرب , غير أن السلطان التلمساني بدأ يتآمر من جديد فاضطر حسن بن خير الدين إلى معاقبته على خيانته بإقالته و تعيين أحد إخوته خلفا له بحملة

سريعة وناجحة ، فلجأ الملك المقال إلى الأسبان لنجدته ، فسارع الملك الأسباني إلى محاولة منـــع ضم تلمسان إلى الدولة الجزائرية.[1]

ففي عام 1548م كلف الملك الأ سباني الكونت الكودات من جديد بتسيير الحملة الجديدة و وصلته تعزيزات من 2000 جندي من اسبانيا حيث بدأ في السير بهجوم مفاجئ ضد القبائل المتمركزة في وهران و أرزيو التي فضلت التعامل مع السلطة الجزائرية بدلا مـــن الوقـــوف في وجهها ثم انطلق نحوالهدف باتجاه عين تموشنت ، لكن مع تلقيه لمعلومات عن انطـــلاق حـــسن باشا بجيشه لنجدة تلمسان أمر جيشه بتحويل مساره للقاء الجيش الجزائري قرب قلعـــة بـــني راشد،غير أن تلقي حسن باشا نبأوفاة والده خير الدين الذي حمله رسول من ملك فرنسا مما دفع المجلس الحربي خوفا من الفراغ الذي قد يحدثه ذهاب حسن باشا إلى عقد هدنة مع حاكم وهران الإسباني ،وظلت تلمسان بين مد وجزر إلى غاية ضمها نهائيا للدولة الجزائرية.[2]

III - تحول السياسة الأسبانية في شمال أفريقيا:

كانت أخبار نشاط الأسطول العثماني في شرق حوض البحر المتوسط قد انتشرت، خاصة بعد أن أسندت قيادة الأسطول العثماني إلى خير الدين وغيره. فقد وصلت بعض قطـــع الأســـطول العثماني إلى المياه الطرابلسية سنة 1512م ونظرالما لاقاه ا لإسبان من فـــشل في إخمـــاد ثـــورة الطرابلسيين ضدهم،يضاف إلى هذ ه الهزائم الشنيعة والخسائر التي لحقت بهم في محاولة احتلال جزيرتي جربة وقرقنه،كل هذا دفعهم إلى التفكير الجدي في تغيير سياستهم نحـــو طـــرابلس ، والشمال الإفريقي برمته بعد أن استطاعت التحكم في نصف دائرة من الأرض، مما شكل تهديدا مباشرا لمواصلات الخلافة العثمانية في البحر المتوسط [3] وأول بوادر هذا التحول هـــو تـــسليم طرابلس لفرسان مالطة وربطها بصقلية حيث أصبحت مدينة طرابلس تابعة إداريـــا لـــصقلية.
أرسل نائب الملك إلى طرابلس وانخفرنشيسكو واليا عليها وشجع نائب الملك بعض الأســـ ر الصقلية على الهجرة إلى طرابلس [4] ليبعث فيها روح النشاط التجاري والصناعي الذي فقدتـــه

---

[1]Gonzalez :op-cit,pp.20-21.

[2] Braudel :Tome III ,op-cit,pp.312-314.

[3] سبنسر: المرجع السابق ،ص28.

[4]تنازل شارل الخامس عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا الذين طردهم العثمانيون من جزيرة رودس عام 1522م بعد ان طردوا من بيت المقدس بعد نهاية الحروب الصليبية من جزيرة قبرص عام 1309م فانتقلوا إلى فيترب Viterbe حتى تلقوا الهدية من ملك اسباني وتمركزا في طرابلس

بسبب جلاء السكان عنها وسوء معاملة الأسبان . فكان هذا تنبيها للعثمانيين لخطورة الوضع على الشمال الأفريقي برمته [1] ونبهها إلى خطورة الوضع في المغرب وأيقظ قادتها إلى ضرورة تحويل اهتماماتهم إلى تقوية أسطولهم البحري وتعزيز نشاط البحارة العثمانيين [2] في مواجهة شارل الخامس ، الذي بدأ يسلك سياسة التحول من سياسة المواجهة إلى محاولة احتواء المخاطر ويظهر أنه اضطر إلى تغيير سياسته اضطرارا ؛ لأن الحروب الداخلية التي انتشرت في إيطاليا والخلاف القائم بينه وبين فرنسوا الأول لم يمكناه من مواصلة سياسة خلفه فرديناند في طرابلس.

في هذا الوقت الذي بدأ خير الدين في مهاجمة بجاية بأسطوله خلال سنتي 1534-1535م وأصبح يهدد كل مستعمرات أسبانيا الأفريقية و اثر إفلاس سياسة العنف داخل المدينة وخارجها.[3] وافق مجلس منظمة الفرسان [4] على الوثيقة القيصرية في 25 من يوليه سنة 1535م وجاء وفد منهم إلى طرابلس ليستلم المدينة من واليها فرديناندأ ركون(Ferdinando Arcone) وبهذا انتهى حكم الأسبان في طرابلس، بعد أن دام عشرين سنة لم يتجاوزوا فيها أسوار المدينة. [5]

استنتاج جزئي

كانت الحالة العامة السياسية والاقتصادية والثقافية في أواخر القرن 15 حالة من التأخر والانحطاط في إمارات شمال أفريقيا كلها بسبب الفوضى، وعدم الاستقرار وعدم الانتباه للأخطار المحيطة بهم من جانب الأعداء القادمين من الضفة المقابلة للبحر المتوسط . كانت أسبانيا على دراية تامة بهذه الأوضاع وربما لها يد في ما كان يقع من تناحر كمقدمة لتنفيذ مخطط طويل الأمد للسيطرة على المنطقة وفي ظل هذا ظهر المشروع المسيحي البرتغالي – الأسباني الذي وضع أهدافا إستراتجية تدفعها الحاجة الاقتصادية والحقد الديني، فنشطت الحملات الصليبية وتم احتلال العديد من المناطق الساحلية بدعوى محاربة القرصنة، لكن في نهاية الأمر انكمش هذا

---

(1) Garrot(Marc) : les Annales de la prise des Barbaries , Tome 6 ,P.U.F, Paris ,p p349-350

(2) التميمي (عبد الجليل):الولايات العربية ... ، المرجع السابق ،ص. ص 74-75

(3) Feraud : Annales Tripolitaines, Histoire de la prise de Tripoli, 2Edition, Bousslama, Tunis,1967 p.36

(4) فرسان القديس يوحنا في طرابلس : ففي 1523م، غادر فرسان القديس جزيرة رودس إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع، في حين رأى رئيس المنظمة الأب فيليب أن يطلب إلى شارل الخامس منحه جزيرتي مالطة لأنهم رأوا أنهما أليق مكان لغزو البلاد الإسلامية ، وهنا سنحت الفرصة لشارل الخامس للتخلص من طرابلس .

(5) Babelons (Jean) : Charles – Quint, Epoques et Visage (1500-1559), Paris, 1990,pp. 82-88

الوجود خلف أسوار و لم يتعدى مساحة الموانئ كما ظل محصورا إلى حين انهيار النظام الاستعماري تعاون بعض القبائل التي أبقت على الوجود الأسباني ولو لفترة وجيزة وشبهه احد المؤرخين بالأخطبوط "لقد كان الوجود الاسباني يشبه إلى حد كبير الإخطبوط الذي سحب من الماء ووضع داخل وعاء يسقى يوميا بجرعات ، إن توقفت أصيب بالشلل التام" [1]

[1] اليتش بروشين(نيكولاي) :تاريخ ليبيا من منتصف القرن 16 حتى مطلع القرن 20 ، ترجمة عماد حاسم ،ط2 ،دار الكتاب الجديدة المتحدة ،طرابلس ، 2001، ص 25.

مقدمة

تعد الفترة 1516 فترة حاسمة وحرجة، فخلالها تعرض المغرب الأوسط في تاريخ الصراع الحاد بين الإسلام و المسيحية والصليبية إلى غزو مسيحي مختلف الشكل متحد المضمون، وعاش مرحلة صراع مرير واجه فيه دولا مختلفة ، وتحالفات عسكرية وسياسية حاولت تقويض أركان الإسلام في شمال أفريقيا ، وأركان الدولة الناشئة والقضاء على كل ما يعرقل تنفيذ وصية البابا وابتحديد الحروب الصليبية غربا بعد أن فشلت شرقا ، والقضاء على صلاح الدين الغرب (خير الدين) .فكيف تميزت الظروف السابقة لوصول الإ خوة أبناء يعقوب ؟ وما هي مشاريعهم المستقبلية؟

هل تمكنت الجزائر خلالها من الحفاظعلى القيم الوطنية والحضارية ؟ وهل حققت تكامل الكيان الجزائري جغرافية وسكانا وتنظيمفضل وصول الإخوة أبناء يعقوب ؟. ما هي التحديات التي واجهها داخليا وخارجيا؟ فما هي طبيعة هذه المواجهة بين عروج والأسبان أولا ثم خير الدين و الهجمة الاستعمارية الصليبية وأهدافها ثانيا ؟ ما هو الطابع الذي اتخذته ؟ وهل اكتفى خير الدين بالقوة والعنف أم سلك طرقا أخرى خاصة في ظل مشروع اتسم بطابع ازدواجية الأهداف و روج له أنه يهدف لمحاربة القرصنة ؟ و إلى مدى وفق خير الدين في القضاء على المشروع الاستعماري ؟

المبحث الأول: فشل الكيانات السياسية في المغرب الأوسط في مواجهة المشروع الأسباني

بعد النهاية المأساوية لحكم المسلمين في أسبانيا وسقوط غرناطة في سنة 1492 قام ملوك أسبانيا بحملة صليبية حقيقية ضد بلدان شما ل أفريقيا واستطاعوا شيئا فشيئا احتلال العديد من المراكز الإستراتجية، وكانت سياستهم ترمي إلى عزل شمال إفريقيا عن أوروبا بهدف خنق هذه البلدان اقتصاديا،و خلق فوضى اجتماعية[1] ، فبعد الاستيلاء على المرسى الكبير ووهران جاء دور بجاية التي وقعت في أيديهم عام 1510، وكانت الأسرة الحفصية الحاكمة في بجاية آنذاك منهكة بصراعات على السلطة ، وبينما كان الأسبان يستولون عليها،كان الملك عبد العزيز يحاصر قسنطينة، لأن أخاه أبا بكر قام بثورة ضده ،أما المغرب الأوسط فقد كان يجتاز مرحلة

(1)Sander et Denis : op cit, Tome I , p3.

فوضى نتيجة انقسامها إلى دويلات يقودها أمراء و شيوخ مستقلين،وكانت علاقاتهم هي الحرب المستمرة و المهزوم منهم يلجأ إلى ملك المغرب ، وأحيانا أخرى إلى ملك تونس وفي غالب الأحيان إلى ملك اسبانيا.(1)

وفي الساحل الشمالي لإفريقيا تأسست مدينة الجزائر – جزائر بني مزغنة – في النصف الثاني من القرن 10 على أنقاض المدينة الرومانية اكيسوم ، وظلت تعاني صراع الجذب من الزيانيين و الحفصيين، فتخضع لهذا أو ذاك حتى جاء الثعالبة، وهم فرع من القبائل المستقرة في سهل متيجة، وتم إنشاء جمهورية صغيرة تحكمها قبيلة وكانت تشكل مركزا تجاريا مزدهرا في القرن 12 عكس مستواها العلمي الذي كان بسيطا، ورغم قلة الإشعاع العلمي إلا أن وجود بعض مظاهر الحياة الثقافية في الزوايا والمساجد، ساهم في تنشيط الحياة التجارية بفضل وجود أحياء مخصصة للتجار الأوروبيين .(2) ونظرا لانعدام قوة عسكرية الكافية ساهم في ضعفها وجعلها محل أطماع الجيران من الإمارات فالجيش كان خاضعا لسيطرة البرجوازية التي كان هدفها حماية النشاط التجاري وامتيازاتها ، بدل الاهتمام بالشؤون العامة والدفاع عن الوطن ، فساده الخمول و جعله يفضل التوقيع على معاهدات مع الأسبان عام 1510 بدل محاربتهم. تعد مدينة الجزائر بموقعها في المغرب الأوسط ، ولحصانتها، مدينة ذات أهمية غنية وذات عمران وصالحة للنشاط البحري فأضحت تنافس تلمسان، بجاية وغيرها من العواصم الجزائرية.

I -أوضاع المغرب الأوسط وفشل الكيان السياسي:

1- الأوضاع العامة:

كان سائدا في المغرب الأوسط حالة من الفوضى القبلية إذ استقل بني جلاب بتقرت و أقاموا إمارة بقيادة الحاج سليمان المريني أجلابي، وتمكن بفضل المساعدة التي تلقاها من شيوخ الزوايا من فرض نفوذه فيما بعد على الإقليم الزابي ، وظلت هذه الإمارة قائمة مستغلة الفراغ السياسي طيلة القرن الرابع عشروبداية الخامس عشر . وإذكان بنو جلاب قد فرضوا

---

(1) بن أبي زيان بن اشنهو (عبد الحميد):دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش ، الجزائر 1986ص-ص 88-94.

(2) Ibn Khaldoun(Yahia) : Histoire de Berbères, Traduction de Slane ,Tome 3 ,Edition, Geuthner ,Paris ,1969, p 405.

استقلالهم[1] فان غرداية أيضا كانت تعيش حالة الاستقلال بعيدا عن السلطة المركزية سواء بني زيان أو الحفصيين على غرار سواحل المغرب الأوسط التي كانت تعيش حالة الانفصال والاستقلال القبلي، فقد انفصلت بجاية عن تونس في بداية القرن الخامس عشر وقام الملك عبد العزيز بتوسيع حدود مملكته ، فاصطدم بقسنطينة وحاكمها أبي بكر شقيق أبو العباس سلطان تونس هذا الصراع أنهك قوى الولايتين وانتهت بسقوط بجاية بشكل سريع في يد الأسبان .

أما مدينة الجزائر التابعة اسميا لبني زيان فقد فضلت الخضوع لملك بجاية مع التمتع بعض الاستقلال[2] ، كما ظلت مدينة جيجل متمتعة بصفة الإمارة المستقلة قبل أن يسيطر عليها الجنويون عام 1513 بقيادة أندري دوريا.

أما مدينة القل فكانت إمارة شبه مستقلة عن ولاة قسنطينة وسلطان تونس ونظرا لاعتبارها منفذا تجاريا بحريا إلى جانب سكيكدة ،وسطوره فقد شكلت محور الصراع بين أطراف العائلة الحفصية والقبائل المستقرة في المغرب الأوسط عكس عنابة التي ظلت تحت سيطرة الحفصيين إلى غاية تسليمها من قبل هؤلاء لشارل الخامس[3] إلى جانب هذا كانت وهران تحت سلطة بني زيان الضعيفة ، مستقلة في شؤونها الإدارية والمالية باستثناء بعض ما يتعلق بالإشراف على الضرائب وشؤون الميناء التي كانت تخضع للسلطة المركزية إلى غاية سقوطها تحت الاحتلال الأسباني .هذه الحالة المتميزة بالفوضى وعدم الاستقرار زادت من حدة الأطماع الأسبانية والبرتغالية إذ سقط المرسى الكبير في يد البرتغاليين عام 1471 وتمكنوا من الحصول على نفوذ تجاري في وهران أعوام 1483-1487 كما ساهم هذا الضعف في تقوية نفوذ القبائل العربية وتوسع مجال نشاطها للسيطرة على المدن الساحلية ففرضت حالة من التهديد وانعدام الاستقرار .[4]

2- الأوضاع السياسية:

كانت العائلات الحفصية و الزيانية و المرينية قد انغمست في حروب طويلة ومزمنة،و انتشرت الفوضى في كل مكان، هذه الفوضى قد سهلت بصفة غريبة مهمة البرتغاليين والأسبانيين، سواء

---

[1]Feraud : les Ben Djellab Sultans de Touggourt R.A N° 23 ,1879, pp 167-170.

[2] الجيلالي (عبد الرحمن) والميلي(مبارك): تاريخ الجزائر القديم والحديث ،الجزء 2 ، مطبعة العصر ،بيروت ،ص232.

[3] Haedo :op-cit, p 30.

[4] ابن أبي زيان بن اشنهو: المرجع السابق ص-ص 88-94.

في احتلال البلاد أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها .[1] إذ كانت كل بلاد المغرب الأوسط تجتاز فترة الانهيار النفسي والمادي مهدت الطريق لتصبح الفريسة التالية لملوك الأسبان الكاثوليك .

بدأت منطقة المغرب الأوسط أكثر ضعفا مع نهاية القرن الرابع عشر إذ عمل الحفصيون على التوسع في المغرب الأوسط ،و لم يستطع بنو زيان ردهم بحيث ملك هؤلاء بجاية و قسنطينة ، وفي المغرب الأقصى ظهر البرتغال في شواطئ البحر المحيط كما ظهر الأسبان وأصبحت سفنهم تسعى إلى إنشاء مراكز استعمارية [2]،كما ظهرت شبه جمهوريات بحرية في شواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي مثل طرابلس ، جربه، بجاية، جزائر بني مزغنة ، شرشال ووهران و تطوان...وفي مدينة الجزائر كان الوضع مشابها ، فقد كان سالم التومي يحكم هذه المدينة منذ سنة 1510م وهو ينتمي إلى قبيلة الثعالبة فرع بني تومي[3] ، وبمجرد سقوط بجاية لجأ مجلس أعيان المدينة إلى أقصر الحلول وهو التوقيع على معاهدة استسلام بدل الوقوع تحت الحصار والاحتلال.ففي 31 جانفي 1510 ذهب سالم التومي بصفته شيخ مجلس الأعيان نحو بجاية لالتقاء بالقائد الأسباني بيدرو نفارو الذي احتل عاصمة الحماديين معلنا له عن قبول مجلس الأعيان توقيع معاهدة سلام مع أسبانيا ،وتحول هذا السلام إلى عبء ثقيل على الجزائر فبدأ تناقص الثروة وتقلص النشاط البحري وطلب هذا الأخير من سالم التومي شروطا أكدت على أهداف أسبانيا الحقيقية (**نظر ملحق رقم 6**)تضمنتها المعاهدة التي وقعها، ملتزما من خلالها بالولاء و الإخلاص ودفع الضرائب والغرامات. وتم تحويل هذه الغرامات والمبالغ نحو حاكم وهران.[4]

كما شرع الأسبان في بناء القلعة العسكرية على الصخرة المقابلة للمدينة من قبل المهندس المعماري مارتان دوروتيريا(Martin de Rotirrya)، حيث خصصت نفقات كبيرة لبناء القلعة على أحد أهم الجزر المقابلة للمدينة والتي أصبحت تعرف باسم قلعة البنيون [5] نسبة إلى

---

[1] الجيلالي والميلي: نفس المرجع ،ص-ص181-183.

[2] جلال(يحي) : العالم العربي الحديث والمعاصر ،الجزء 1 ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1998 ص .ص .34-33

[3] زهية كرودرة: تطور عمران مدينة الجزائر من خلال المصادر الإسلامية، الملتقى الرابع للبحث الأثري والدراسات التاريخية،تندوف 1996 ،وزارة الاتصال والثقافة ، ص 37.

[4] Lutsky (V) :Modern history of the Arab countries ,progress publishers Moscow ,1969,pp167-168.

[5] Penôn : Augmentatif de Pena, gros rocher .

الصخور الصلبة التي بنيت عليها وكان لا يوجد على هذه الجزيرة التي تقع على بعد 300 متـــر من مدينة الجزائر ، سوى حصن صغير بناه الأندلسيون القادمون من أسبانيا ليستعمل كمنـــارة لأبراج المراقبة.وبنيت القلعة على شكل مثمن محصنة بحصنين، ثم أصبح يحتوي علـــى قلعـــتين وأربعة معاقل، يتواجد بها 200 جندي من خيرة الجنود الأسبان ومهمتهم مراقبة كل تحركات الجزائريين برا وبحرا،ومنع القراصنة من استعمال الميناء ،وفرض الحماية على الجزائريين.

التزمت مدينة الجزائر في عهد سليم التومي بتموين الحصن، و السماح للجنود بتجو ال في المدينة أيام الراحة، وهو ما افقد المدينة سلطتها فأصبح الريف يتحين الفرص للتخلص من تـــأثير المدن وبالتالي اتجهوا إلى استعادة نفوذهم القبلي بعيدا عن سلطة المدينة والاستفادة من الأســـبان بعيدا عن مراقبتها كقبائل بني عامر ومغراوة وكوكووبني عباس.[1]وكـــان لـــسليم التـــومي معارضين إزاء مشروعه القاضي بإعلان الطاعة والخضوع للأسبان خاصة أثناء الاضطرابات عام 1510م التي وقع فيها الاختلاف حول دفع الضرائب للأسبان والسماح لهم ببناء قلعة قـــرب المدينة ،ونتيجة لقرار الملك الاسباني عام 1511م الزيادة في الضريبة التي يدفعها سالم التـــومي مقابل الحماية بـــ 50% على مستورداتهم من الصوف وذلك لكي يدفعهم إلى دفـــع تكـــاليف حملاته على أفريقيا، فطلب السكان مقابل ذلك من الملك الاسباني اســـتبدال المعاهـــدة بهدنـــة والانسحاب من القلعة غير انه رفض استنادا إلى معلوماته حول رغبة البرجوازية الجزائرية الـــتي كانت ترى في هذه القلعة و الحامية ضرورة لأمنها وحماية لميناء المدينة.[2] فأصـــبحت مدينـــة الجزائر خاضعة، مهددة، مقسمة، فقيرة وقلعة النيون بمثابة حاجز يعيق عملية الملاحة والتجارة مع أعداء أسبانيا ،وكان هذا الفشل والضعف الذي عانى منه المغرب الأوسط ممثل أساســـا في انعدام الجيوش النظامية المسلحة بأسلحة نارية وضعف التحصينات لمواجهة مدافع الأسبان.

3-الأوضاع الاقتصادية:

شهدت منطقة دول المغرب منذ القرن الرابع عشر تراجعا اقتصاديا فسر على انه فقـــدان للدور الاقتصادي لتجارة أفريقيابعد أن كانت معبرا للبضائع الإفريقية خاصة الذهب وبـــضائع الشرق،لكن مع بدايةالاكتشافات الجغرافية حولت التجارة نحو المحيطين ، وفقد البحر المتوسط أهميته التجارية فتضررت دول المغرب والمدن الإيطالية من هذا التحول ، الذي أدى إلى ظهـــور

[1]Laroui (Abdellah) :l’Histoire du Maghreb, Maspero, Paris, 1970, pp.240-241.

[2] سبنسر: المرجع السابق ،ص .28 .

تمرد داخلي بفعل لجوء الحكام إلى تعويض خسائر التجارة البحرية بفرض ضـرائب جديـدة، قادت إلى استقلال بعض القبائل وانفصالها عن السلطة المركزية . وبالرغم من استمرار العلاقات التجارية من أوروبا ودول أفريقيا إلا أن هذه العلاقات النشطة بدأت تتوقف مع مطلع القـرن الخامس عشر نتيجة لسيطرة الأسبان على سواحل الجزائر ، إذ بمجرد احتل هؤلاء وهران تجنـب البنادقة التعامل معها كونها أصبحت تشكل خطرا على تجارتهم وفضلوا التحول إلى مدينة هنين كما كان احتلال بجاية صدمة لتجار جنوه والبندقية باعتبار أن أسبانيا دولة منافسة لهم وتشكل تحديا تجاريا لمكانتهم التجارية [1]ومع تراجع التجارة المغاربية الإسلامية ، بدأ يظهر عامل أخـر وهو هجرة الأندلسيين فساهمت في دخول نوع جديد من الحياة الاقتصادية والاجتماعية إذ أعيد إحياء شرشال بعد ثلاثة قرون من الانحطاط إلى جانب تنشيطهم لأعمال حربية في البحر بغرض الثأر من الأسبان أو البحث عن مصادر رزق جديدة [2].

كما قام الأندلسيون بالعمل البحري بهدف إنقاذ بقيا المسلمين الفارين من الأندلس بعـد القمع الأسباني المنظم ضدهم [3]،ونتيجة حتمية لهذا الوضع بدأت تظهر ظـاهرة التـصوف في المغرب لتتجه المنطقة نحو الانغلاق على الذات خصوصا بعد الهزائم المريرة التي لحقت بالمسلمين لتشكل فيما بعد وعاء للمقاومة ضد الأسبان والبرتغال مثل الزاوية الشريفية بالمغرب الأقـصى وزوايا القادرية والشاذلية بالمغرب الأوسط فرفعت لواء الجهاد المقدس ضـد الأسـبان ، و الـتي صاحب توسعاتها استخدام المسيحية ومكنت في النهاية من الاستنجاد بالإخوة أبناء يعقوب.[4]

II - مجلس أعيان مدينة الجزائر ودوره

تعد قبيلة الثعالبة ، قبيلة عربية استطاعت التقدم إلى الساحل انطلاقا من الجنوب ، و أصـبحت مسيطرة على مدينة الجزائر وسهول متيجة وما جاورها، و استغلت مقتل السلطان الزيـاني أبو زيان أحمد، فاستولت على الحكم في مدينة الجزائر وما جاورها، وعينوا مجلـسا للـشيوخ بالمدينة التي اتخذوها عاصمة لهم ، ترأسه سيدي عبد الرحمان الثعالبي، كأمير عليهم إلى أن توفي سنة 1468م وبقي الحكم في أيديهم إلى أن آل الأمر إلى أولاد سالم إحدى بطون الثعالبة الذين

(1) جلال(يحي) : العالم العربي...،المرجع السابق ،ص 26-36.
(2) جوليان: المرجع السابق ، ص 45.
(3) Amoura : op-cit,p137.
(4)Braudel :la Méditerranée …op-cit ,pp .46-50.

انتخبوا سالم التومي أميرا عليهم ، فأخذ النفوذ بيد من حديد يساعده مجلس أعيان أعـــضاؤه من شيوخ وأثرياء القبيلة، يتشاور معهم في القضايا، لكن عندما حاول أهل الجزائر الخروج عن طاعته استغل ظهور أسبانيا فتسلط عليهم مخاوف الاحتلال ،وأقدم على التحالف مع الأسبان لعلهم ينقذون سلطانه وينقصون من وطأة تأثير البرجوازية عليه(1).

كان هذا المجلس يضم أعيان مدينة الجزائر (CNVA)، مـــن علمائهـــا وفقهائها،يعقـــد جلساته في الجامع الكبير أو في دار الإمـــارة، وقد شكل بهدف الأشراف على تسيير المدينـــة إلى جانب الأمير المعين من قبل قبيلة الثعالبة وهو الذي اتخذ تلك المبادرة التاريخية في تشكيل وفـــد للذهاب إلى مدينة جيجل ليقدم طلب استنجادي للقائد المسلم بابا عروج لإنقاذ مدينة الجزائـــر من الهيمنة الأسبانية،وقيادة حرب التحرير لاسترداد المراكز الإسلامية المحتلة وتحرير المسلمين من مخاطر المشروع الأسباني ومنع تكرار مأساة الأندلس في المغرب ، لقد خاطب الوفد عروج بهذه الكلمات التاريخية:

"...سمعنا بكم أنكم أناس تحبون الجهاد وأخذتم بجاية و جيجل من أيدي النـــصارى ونـــصرتم الدين ، فهنيئا لكم أيها المجاهدون، لابد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من أيدي هـــؤلاء الملاعـــين الكفرة لأننا في محنة عظيمة ومذلة شديدة"(2).

لقد كان لهذا المجلس أيضا موقفا تاريخيا تمثل في رفضه القاطع قرار خير الـــدين مغـــادرة الجزائر على لسان مفتي المدينة:"..حضوركم سيدي –يقول المفتي – ضروري جدا لأمن هذه المدينة وسلامتها، المواطنون ليس لهم غيرك كحاكم ،وسيكون من غير المـــشرف أن تتـــركهم عرضة لهجمات الكفار الذين لا ينتظرون إلا الوقت الذي تبتعد فيه عنهم ليغرقوا هذه الـــبلاد بجيش من البرابرة ، تقترح على نفسك أن تذهب إلى استانبول لتشارك في الحملات الحربيـــة ن لكن تخدع نفسك إذا أنت تفكر في أن الله سيأخذ ما تقوله بعين الاعتبار في وقت تهمـــل فيـــه أكثر واجباتك أهمية ، في القسطنطينية ألف آخرين بإمكانهم أن يحلو محلك ، لكن هنا لا احـــد يمكنه أن يشغل مكانك ، والعمل الأكثر استحقاقا الذي تستطيع أن تقوم به ، في نظر الله ، هو

(1) Ibn Khaldoun :op-cit p 17-18

(2) آجقو (علي):المغرب الأوسط من المجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة الأمة، باتنيت للمعلوماتية ، الجزائر،1999،ص14.

أن تبقى في هذه المدينة للدفاع عنها ضد أعداء الدين [1]،وهذا الرد يعتبر طلبا ضمنيا وتحمـــيلا للمسؤولية الأخلاقية والشرعية[2].كما تكشف الرسالة الموجهة إلى الخليفة سليم الأول من قبل مجلسالأعيان الدور القيادي الذي قام به المجلس كسند لعروج و خير الدين ،في أوائل ذي القعدة بين 26 أكتوبر – 03 نوفمبر 1519م جاء فيها:''..إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام الـــسلطنة العلية، ونكتب لمقامها العالي معبرين ومعترفين بالإجلال والتعظيم نفقد اطعنا أمركم وعليكم لا محالة اعتمادنا لقد جرت أحداث جليلة، حيث استولى الكفار على بلاد الأندلس وانتقلوا منـــها إلى قلعة وهران وبجاية، وشددوا علينا الطلب وآنذاك قدم ناصر الدين وحامي المـــسلمين أروج فقبلناه بالعزم والكرم.إننا على غاية من الضعف والبلاء، ولهذا أرسلنا إلى بابكم العـــالي الفقيـــه العالم سي أبالعباس احمد راجين خدمة مقامكم العـ الي...،،[3]وقد حل هذا المجلس بعد أن ظل قائمالمدة تصل إلى اثنتين وثمانين سنة وحلتمحله دواوين الدولة الجزائرية ،وليس هناك دليـــل واضح على صحة ما كتب حول إيفاد السلطا ن العثماني سليمان بن سليم للإخوة بناء يعقـــوب إلى افريقية للتعرف عليها وتسهيل ضمها إلى الخلافةوربط الصلة بهم استجابة لطلب مجلـــس أعيان مدينة الجزائر قبل سنة 1519م، إلا أن الاعتقاد الوارد أن الخليفة العثماني كـــان يقـــدم الدعم الدائم لعروج وأخاه خير الدين قبل استقرارهم بإفريقيا [4]،بينما يثور اعتقـــاد أخـــر أن الارتباط الفعلي تم بعد استشار ة خير الدين لمجلس أعيان مدينة الجزائر اثر استشهاد عـــروج في أمر السلطة ، في حين يرجعها البعض إلى بداية العمل بالقوانين الخلافة العثمانية عام 1562م، وهو التاريخ الذي انتهت فيه الثورات القبلية والفتن الداخلية ، وتحرير بجاية، وتوحيد البلاد مـــن وجدة غربا إلى الكاف شرقا. [5]

---

[1]آجقو: محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة الجزائرية – النظام السياسي والمؤسسات - ط2 ، شركة باتنيت للمعلوماتية، الجزائر،2002-2003،ص12.

[2] آجقو:"الدولة الجزائرية الأولى (PEA) دراسة مؤسساتية" ،مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية العدد2 ،جامعة باتنة، الجزائر ، 1994،ص 149.

[3]التميمي (عبد الجليل):"أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 "،المجلة التاريخية المغاربية ،العدد 6 تونس 1976 ص-ص 116-120.

[4] الجزائري (محمد بن عبد القادر) : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر، شرح وتعليق حقي(ممدوح) ، ط2، دار اليقظة العربية ،بيروت، 1964 ،ص 91.

[5] بن علي شغيب: المرجع السابق ، ص 50.

المبحث الثاني : ظهور الإخوة أبناء يعقوب ، الظروف و التوجهات:

ا - ظروف ظهور الإخوة أبناء يعقوب:

عند نهاية القرن الخامس عشر،كان يعيش في جزيرة مدلي [1](لسبوس) فخارجي[2] تحت اسم يعقوب بن يوسف وكان جنديا متقاعدا [3] ، وكانمتزوجا من سيدة أندلسية [4] ولدت له إسحاق و عروج[5] و خسروف و[6]محمد إلياس وقد نشأ هؤلاء الإخوة وسط حرص الأب على تنشئتهمنشأة إسلامية صلبةو قد اختار الابن الأكبر طريق العلم والمعرفة فمضى في دراسته الإسلامية،في حين انصرف بقية الإخوة نحو التجارة بسواحل المدن الثلاث التجارية – سلانيك – اقربوز -طرابلس ،و اختاروا البحر ميداناواستقروا في جزيرة مدلي [7]فخرج

---

(1)سيطر فرسان رودس على الجزيرة –ميتلين – ثم نزعت منهم من قبل العثمانيين عام 1457 وقد عمل الخليفة محمد الثاني على تتبع هؤلاء في البحر

(2)صانع الفخار أي يتعاط الخزافة .

(3)يرى سبنسر أن يعقوب قرصانا ثمأصبح جنديا برتبة عريف في الجيش العثماني وبعد تقاعده اتجه إلى جزيرة مدلي وأصبح خزافا بينما المرجع السابق ،ص 29 ،بينما يرى أحمد توفيق المدني أن يعقوب بن يوسف كان تركي يعيش في جزيرة مدلى ببحر الأرخبيل من باقيا الفاتحين المجاهدين، كان متزوج بسيدة أندلسية ولت له أولاده إسحاق و عروج وخير الديننشأأبناء يعقوب نشأة إسلامية صلبة وترعرعوا في حجر الجهاد الإسلامي برا وبحرا ضد المسيحيين يعتقد بعض المؤرخين انه من أصل الباني تجند في الجيش العثماني بينما يصر المؤرخون الفرنسيون على اعتبار أصله فرنسيا من عائلة آل اوطون الشريفة هاجر إلى الشرق . أن يعقوب ريس كان مسلم يعيش بالجزيرة يمارس التجارة بسفينة، وقام بتعليم أبناءه فن الملاحة بعد أن حضر فتح مدلي مع السلطان محمد الثاني سنة 1457 . Sander rang, op-cit ,p3

(4)دارجدل كبير بين المؤرخين خاصة المسيحيين المبهورين بشجاعة أبناء يعقوب على اعتبار أن والدة أبطال أبحر نصرانية تدعى Catherine وان والده جندي انكساري وذهب البعض إلى اعتبارها أرملة لأحد القساوسة بينما اعتبرها البعض الآخر فتاة نصرانية ابنة قسيس أرثوذكسي من سكان الجزيرة، بينما يصر المؤرخون العرب والمسلمين على أن أصولهم تنحدر من الدماء الأندلسية باعتبار أن والدتهم فتاة أندلسية من الفارين من حرب الإبادة وهو ما دفع الأبناء إلى العطف على أهل الأندلس طيلة 40سنة

(5)لقب عروج فأصله هو الصعود كان الأتراك يسمون هذا الاسم تبركا بالمعراج و عروج رسول الله (ص) إلى السماء الكنية إذ أن اسمه الحقيقي هو أروج بالتركيةتعني رمضان لأن الأتراك كانوا يسمون أبنائهم ببعض شهور السنة الهجرية ولا يتلفظ الأتراك بحرف العين ويستدلون بلوحة وجدت في شرشال في برج الترك "هذا البرج أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير القائم بأمر الله والمجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب بتاريخ أربع وعشرون وتسعمائة 1517م"

(6)يرى احمد توفيق المدني أن فضلاء الأندلس والمغاربة هم الذين اقترحوا على خسروف تغيير اسمه وأطلقوا عليه اسم خير الدين.

(7) الجزائري : المرجع السابق ،ص92.

الأولاد من بلدهم ليرتزقوا ويعينوا العائلة على تحمل عبئها الثقيل ، وصادف ظهورهم تحـــول البحر المتوسط إلى حلبة صراع بين الدول الأوربيةالمسيحية والدولة العثمانية المـــسلمة ، كــــل طرف يسعى إلى فرض نفوذه واحتكار البحر .

وقد تسنى للبحارة المسلمين المشاركة في هذا الصراع بدور لا يمكن إغفالـــه ،إذ قـــام المجاهدون المغاربة بالارتباط بالأخوين عروج وخير الدين للوقوف ضـــد مـــشاريع المـــسيحيين وتعاظمت بذلك أهميةالبحر المتوسط مع نمو القوة البحري العثمانية ، فتمكن عروج الذي افتتح المجال أمام إخوته بمشاريع التجارة البحرية نظرا لخبرته ، إذكان قد ركب البحر و هو صـــغير وتمكن من أن يجهز مركبا ، تولى قيادته ،غير أنه وقع في الأسر مـــن طـــرف فرســـان رودس واستشهد أخوه الياس عام 1501م فعمل في المجاديف و القيد في رجل يه وحاول خير الدين فك أسره بالشراء أودفع الفدية التي قدرت آنذاك بـــ1000 دوقة ذهبية[1] بمساعدة احد النصارى بمدينة بودرون.[2] غير انه فشل، نظرا لنقمة تجار رودس على الأسرى المسلمين، وقـــد اســـتفاد عروج من أسره بالجزيرة فتعلم العديد من اللغات منها الفرنسية والايطالية، واطلع على ســـير إدارة الجزيرة وسياستها ما جعله على بصيرة من الأمور الإدارية، التي سيستعين في فرض النظام والإدارة بالجزائر،وبعد ثلاث سنوات من الأسر والعمل كمجداف تمكن من الفرار، بأن ألقـــى بنفسه في البحر وهو على مقربة من سواحل بعض الجزر القريبة من البر العثماني اثـــر عاصـــفة أصابت السفينة التي كان أسيرا فيها ،ووجد المساعدة بإحدى القرى التي اعتـــادت أن تقـــدم مساعدة للفارين من الأسر[3]، و منها ركب البحر عائدا إلىجزيرة مدلي، حيث أبوه و إخوته . ليعود من جديد إلى نشاطه،غير أنه كاد أن يسقط في الأسر من جديد، [4] وكان على مقربـــة من سواحل قرمان التركية (Carmanie)، فأكرمه قور قود ابن الخليفة بيازيد الذي كان يتولى إمارة قرمان و رأى فيه جنديا فارسا مقاتلا شجاعا،فجهز له سفينة ، و بعث به غازيا في بحـــار إيطاليا حيث كانت الحرب البحرية ضد الإسلام و المسلمين قائمة، فاقتنص سفينتين محملـــتين

---

[1] ألتر : المرجع السابق ،ص 29 .

[2] Sander et Denis :op-cit ,pp. 1-8.

[3] لم يتفق المؤرخون على المكان الذي تمكن فيه عروج الفرار من الأسر فالبعض يعتقد انه فر وهو بالقرب من سواحل مصر ،والبعض الأخر بالقرب من سواحل جزيرة رودس إلا أن الغالب هو فراره وهو على مقربة من سواحل الأناضول الغربي بجزيرة كاستلو روسو Castello Rosso

[4] Sander et Denis :op-cit, pp. 9-14.

بالبضائع الثمينة كانتا تابعتين لدولة الكنيسة البابوية، وسفنا إيطالية أخرى، [1] ،وبعد استراحة خلال فصل الشتاء ركب البحر من جديد على رأس أسطوله الصغير بعد أن ضم إليه السفن التي غنمها، و انضوى تحت لوائه جماعة من البحارة المسلمين و أثناءها تعرف إلى البحار علي ريس الذي كان يستعد للإبحار إلى الإسكندرية فقرر عروج الالتحاق بطاقمه[2]،وبعد استقراره بمصر لفترة قصيرة عزم بأن يلقي بثقله في غربي البحر المتوسط،بجهة الأندلس موطن أمه بصفة خاصة . و اختار جزيرة جربه قاعدة لنشاطه، انطلق من هناك إلى ناحية الأندلس، لإنقاذ المسلمين الأندلسيين.[3]

وسرعان ما اتضحت قدرة بابا عروج [4] على المغامرة، بإستراتجية استحدثها في مهاجمة السفن والتي كانت تكمن في عدم استخدام المجاديف والاستعانة بقوة الرياح فقط[5]. فخاض حربا ضد السواحل الأوروبية ،ومنها اتجه إلى تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين إلى جانب طرابلس و الشرق الجزائري ،فرأى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد أن يستعين بهذا البطل لحماية الدين و الدولة من غارات القراصنة المسيحيين و هجماتهم البحرية [6] ،و أن يجعل مما يدفعه من خمس الغنائم موردا يدعم خزانة الدولة التي لم تكن مزدهرة، فأقطعه مرفأ بحلق الوادي[7]ليتخذ منه قاعدة لمحاربة المسيحيين و تجنيد المتطوعين من الديار الإسلامية إلى الموانئ الأفريقية لمقاتلة الأسبان.[8]فأستقر عروج على سواحل المملكة التونسية عام 1504م بأسطول من 12 سفينة وحولها إلى مركز لنشاطه البحري، وحاول عروج خلالها استمالة قبائل الشابية

---

[1] أن عروج اتجه إلى شمال إفريقيا بناء على أمر من الخليفة سليم لمعرفة حقيقة البلاد والعمل على التصدي للأسبان ومساعدة الأندلسيين وهو يتماشى مع فكرة أن قورقود كلفه بالإبحار غرب المتوسط للتصدي لإعمال القرصنة ضد المسلمين. انظر المهدي بن شغيب: المرجع السابق، ص. 97

[2] Sander et Denis :Op-Cit, pp 15-18 .

[3] وولف:المرجع السابق ،ص- ص 28-30.

[4] أطلق الأوربيون على عروج وخير الدين اسم بربروس وكلمة بابا تعني الاحترام والتقدير أما اصطلاحا فهي رتبة عسكرية

[5] ألتر : المرجع السابق، ص14.

[6] Sander et Denis : Op-Cit, p. 3.

[7] المدني :حرب الثلاثمائة سنة.... ، المرجع السابق ، ص-ص 155-159.

[8] سبنسر : المرجع السابق ،ص 28-31.

المستقرة في الـقيروان والتي امتد نفوذها إلى غاية موانئ تونس شرقا وغربا حتى حدود قسنطينة، بهدف إيجاد قاعدة لتجنيد البحارة وتكوين جيش متحرك لمشاريع مستقبلية ،و بعد زمن قصير ونتيجة لقرار السلطان سليم الأول بتحديد النشاط البحري في موانئ الأناضول والتجارة بها بسبب خلافه مع الـسلطان قرقود[1] ،أضطر خير الدين إلى الاتجاه نحو المناطق الأكثر نشاطا فاتجه إلى الضفة الغربية للمتوسط [2] أين التقى أخاه عروج وهو متجه إلى جربه،واستقر لأخوان في تونس بميناء حلق ألواد،الذي كان يتوفر على الشروط المناسبة- كبرج مراقبة، وبناء للجمرك - ، للنشاط الـبحري وعمل عروج وأخوه مع 100ملاح على تقويته وتحصينه ، وأدركا منذ الوهلة الأولى أهمية تونس كموقع جيد للعمل البحري [3]،و تحولا إلى أسطورة بفضل الغنائم و الشجاعة التي يتميزان بها في معاركهم ضد الأسبان و الإيطاليين.

وأصبحت تونس منطلق جهاد الإخوة، ومقاومة الأساطيل المسيحية فجمع عروج المتطوعين حوله في إمارته المستقلة في جربه كقاعدة خلفية وحلق ألواد كقاعدة أمامية ونزولا عند اقتراح السلطان الحفصي بتولي آمر شرق الجزائر، بعد أن امتدت إليها يد الأسبان وصار سكانها أكثر استعدادالطلب المساعدة منه [4] فبدأعروج وخير الدين في رسم خطة للجهاد البحري، ونصرة المسلمين الأندلسيين الفارين من الإبادةالاسبانية المنظمة [5]،واستطاع عروج بناء أسطول تعدت عملياته من السفن في عرض البحر إلى مهاجمة الموانئ الأوربية خاصة الاسبانية مستعينا بالبحارة المغاربة وصل عروج إلى المغرب الأوسط عام 1516م ،واستقر بجيجل لوفرة غاباتها وأشجارهاالصالحة لبناء السفن [6]،واستعداد سكانها لتقديم المساعدة واستطاع بفضل مساعدتهم طرد الجنويين ،و خلال تلك الفترة التاريخية، انتقلت القوات الإسبانية من مرحلة الاستراحة إلى مرحلة الهجوم المنظم على المغرب الإسلامي تحت راية الصليبية[7].

---

[1] وهو الأمير الذي ساعد عروج كثيرا بعد فراره من الأسر، وكان كفيلا بالإعمال الخيرية و بفدية الأسرى المسلمين.

[2] إذ أن المنطقة لم تكن مجهولة بالنسبة للبحارة العثمانيين أمثال الريس بولاق و كورت اوغلو وسنان .

[3] ألتر: المرجع السابق ، ص40- 45.

[4] جلال يحي : المغرب الكبير... ،المرجع السابق ،ص- ص 23-26.

[5] Amoura :Op-Cit ,p 137.

[6] باتيسك: المرجع السابق ،ص. 66-67.

[7] بن علي شغيب : المرجع السابق ،ص. 47-51.

II -سياسة عروج ومحاولة تحرير المستعمرات الاسبانية:

بعد أنعانى سكان بجاية ، وشرق الجزائر من اعتداءات الأسبان اتصلوا مباشرة بعروج حيث أرسل إليه أمير أبو بكر الحفصي من قسنطينة وفدا إلى قاعدته بحلق ألواد يلتمس منه مساعدته لاسترجاع المدينة من أيدي الأسبان كما أرسل إليه أعيان بجاية وعلماءها دعوة لإنقاذها[1] ، وبالرغم من أنه استجاب لهذه الطلبات وبادر بمهاجمة بجاية بأسطوله في أوت سنة 1512م، إلا انه لم يفلح في استرجاعها، ثم عاود الهجوم عليها مرة أخرى سنة 1514م، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها فانسحب إلى ميناء جيجل[2] الذي استرجعه من أيدي الجنويين ،و لم يعد إلى قاعدته في جزيرة جربه ،وحاول مرة ثالثة وفشل فاتجه إلى الغرب نحو مدينة الجزائر.

1- المحاولة الأولى ضد الأسبان ببجاية:

في فترة حرجةيسودها المستقبل الغامض ، ظهر بابا عروج و أخوه خير الدين اللذان سيطرا على البحر المتوسط ،و أقامادولة في شمال إفريقيا ،و بفضل الشجاعة التي يتميز بها ،ضم العديد من الأشخاص و أصبحوا يمثلون قوة بحرية[3] .و اتجهت أنضارهما بعد مراسلة حاكم قسنطينة أبا بكر الحفصي إلى جانب الأعيان والعلماء من أهل بجاية لهما نحو بجاية المحتلة من قبل الأسبان والمنقسمة قبليا في محيطها ، إذكان عبد العزير المقراني يسيطر على القسم الشرقي من بلاد القبائل وعاصمته بني عباس ، أماالقسم الغرب فكان تحت سيطرة ابن القاضي ، وفيها تتواجد مملكة كوكو وسعت اسبانيا إلى التحالف مع هذا الأخير لتمويل الحامية بالمواد الغذائية.

وقد حاول أهل بجاية المقاومة إلا أن الانقسام، وضعف القوة العسكرية دفعتهم إلى التفكير في الاستعانة بقوة إسلامية ذاع صيتها فشكل العلماء والأعيان من أهل بجاية وفدا قابل عروج وناشده إنقاذ بجاية [4]من قبضة العدو ، وكذلك فعل ملك قسنطينة أبو بكر الحفصي، فقرر عروج الاستجابة لطلب الأعيان الذين اتصلوا به في حلق الوادي حيث كان يعسكر فجمع هو

---

[1] ابن أبي الضياف(احمد):اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان،ج2، نشرة2 الدار التونسية للنشر والتوزيع و ش.و.ن.ت ،تونس/الجزائر، 1977،ص 170.

[2]سقطت مدينة جيجل في أيدي الجنويين عام 1260م وأصبحت مركزا للتبادل التجاري ثم احتلها أندري دوريا أثناء قيادته للأسطول الفرنسي وتمكن عروج من فتحها عام 1514م وأصبحت أول قاعدة للعمل البحري واستقر بها.

[3]Haedo :op-cit,pp.42-45.

[4] بن علي شغيب:المرجع السابق، ص-ص 52—54.

وأخوه خير الدين (05) سفن وتوجه في 01اوت 1512م نحو بجاية وبدأبمحاصرة القلعـــة[1]،
وانظم إليه قرابة (20)ألف متطوع من الأهاليتولى قيادتهم المجاهد الموفق ، ونتيجـــة لوصـــول
أسطول اسباني مكون من 15 سفينة جاء لنجدة المدينة قرر عروج القيـــام بمنـــاورة خداعيـــة،
متظاهريبالابتعاد بقوتهما عن بجاية، وانطلق الأسطول الاسباني للمطاردة، وعندما وجد عروج
أن بعض قطع الأسطول قد أصبحت ضمن مجال مدفعيتهما،قاما بانقضاض مباغت ، ونجـــح
في الاستيلاء على سفينة إسبانية وأغرق أخرى فيما لاذت بقية قطع الأسطول بالفرار ،وكان من
رأي خير الدين محاصرة بجاية بحرا وترك المتطوعين لمحاصرتها برا حتى يضعف أمرها وتحين فرصة
مناسبة للهجوم .غير أن عروج صمم على الترول بقسم من قواته للقيام بهجوم فوري فكان هذا
إنذاراللإسبانيين، الذين عرفوا أن تلاحم القوى في البر والبحر سيؤدي إلى تعاظم قوة المسلمين،
فعملوا فورا على طلب المزيد من الدعم من إسبانيا،وغيروا بالمقابل سياستهم للفصل بين القوى
البحرية عروج وأخيه خير الدين والقوى البرية الوطنية في المغرب الإسلامي ، وذلك باســـتمالة
هذه الأخيرة، وإغداق الأموال عليها ، وبذلك أمكن لهم العثور على من يتعاقد معهـــم لتـــأمين
الإمداد والتموين للحامية الاسبانية ،و نتيجة لإصابة عروج في ذراعه برصاصة فكسرته [2] تراجع
خير الدين، نقل أخاه نحو تونس لمعالجته ، و أخذ القيادة حيث بدأ في الهجوم على الـــسواحل
الإسبانية لتسهيل انتقال المسلمين الفارين من إسبانيا ثم مهاجمة جزيرة مينوركة ،و وصـــل إلى
كورسيكا الخاضعة للجنويين تحت إمارة أندري دوريا ،و بعد شفاء عـــروج مـــن جراحتـــه و
للهروب من رقا بة الملك الحفصي قرر أن يكون له مركز أكثر حماية فاتجه إلى جربه أولا أيـــن
سيمكث عاما كاملا 1513م لإصلاح سفنه و تعويض خسارته و في عام 1514م قام بمعيـــة
خير الدين الذي تحمل مسؤولية العمل البحري في غياب عروج في الإعداد لمخطط تحرير جيجل
،و الاستعداد لتكرار عملية تحرير بجاية.[3]

2- تحرير جيجل:

---

[1] نايت بلقاسم : المرجع السابق ، ص 58.

[2] بن علي شغيب:المرجع السابق ، ص . 53 بينما يرى آخر، أن عروج أصيب بقذيفة مدفع كسرت ذراعه الأيسر وقد عوضها عروج بذراع من فضة أهداها له أصدقائه. ألتر: المرجع السابق ،ص45-46.

[3] خلال هذه المدة استطاع خير الدين إقامة علاقات مع بحارة مسلمين مشهورين وقدم ما غنمه هدية لسنان ريس وكمال ريس كما أرسل هدية للخليفة العثماني أوصلها الريس محي الدين.

استفاد عروج من تجربته الاستطلاعية لمدينة بجاية، فعرف أنه من المحال محاصرتها وخوض حرب طويلة ضدها ،وهو في قاعدته البعيدة بتونس.فقرر فتح جيجل التي تبعد مسافة 120كيلومترا عن بجاية غربا لاتخاذها قاعدة للعمليات المقبلة ،أين يتم فيها تجميع الوسائط وحشد القوى ،وكانت مدينة جيجل خاضعة لحماية جنوه منذ سنة 1260م ،وعندما قام عروج بهجومه الأول على بجاية ،أسرعت حامية جيجل فطلبت الدعم الذي تولى أمره المغامر أندري دوريا الذي كان يعمل في حينها في خدمة فرنسا ، و في عام 1514م قام عروج بمعية خير الدين بتسليح السفن و أتجه نحو جيجل لتحريرها ، استجابة لطلب الأهالي والسكان المسلمين ،و بمجرد وصول الأسطول الإسلامي انظموا إليه ،و خلال حصار جيجل تمكنا من الاستيلاء على برج الجنويين و أسر مئة (100)جندي جنوي [1] وتم تحريرها وأسس مملكة صغيرة من 20 ألف من الأهالي ، [2]وكانت في المركز التجاري هدايا ثرية فقاما بإرسال العديد منها إلى الخليفة سليم الذي أصبح خليفة للدولة العثمانية ،بمبعوث تحت رئاسة محي الدين ريس[3].

تمكن عروج من تحقيق هدف مزدوج ،فقد استطاع تحرير أول مدينة ساحلية إسلامية ، وحصل أيضا على قاعدة صلبة ومأمونة –برية بحرية –يمكن له الانطلاق منها لتطوير أعماله القتالية بعيدا عن تأثير السلطان الحفصي ،وهكذا استقر عروج في جيجل ،وبدأ في العمل على تحصين قاعدته الجديدة بمساعدة ابن القاضي وقبيلته زواوة ،وكان لا يزال في حاجة لفترة من الراحة، حتى تشفى جراح ذراعه المبتورة،وقد أفاد من فترة الهدوء هذه فعمل على تطوير اتصالاته بمختلف الوفود الإسلامية التي زارته ،وكسب التأييد ،وإقناع المترددين منهم بضرورة نبذ الخلافات والاتحاد من اجل تحرير البلاد الإسلامية .

3- المحاولة الثانية لتحرير بجاية:

أكمل عروج استعداده، وغادر قاعدته الجديدة متوجها إلى بجاية في شهر أوت سنة 1514م وهو يقود جيشا، يضم عشرين ألف مجاهد من قبائل المنطقة ،وصل إلى بجاية فأحكم الحصار حولها، واشتبك مع حاميتها التي كانت تحت قيادة دون رايموند (Don Raymond)

[1] ألتر : المرجع السابق ، ص 48.

[2] Ibn Khaldoun :Op-Cit, p 418.
[3] Sander et Denis :Op-Cit, p 4.

في معارك قاسية، على أمل إنهاء الوجود الاسباني وبالتالي فتح الطريق نحو مدينة الجزائر، ونصب برجا للمراقبة لتمكنه من متابعة المعركة ، وكان يتابع في الوقت ذاته دراسة التنظيم الدفاعي للمدينة في محاولته لتحديد نقاط الضعف التي تساعده على اختراق التحصينات والأسوار، واستمرت عملية الحصار طوال ثلاثة أشهر أدرك عروج بعدها صعوبة اقتحام المدينة ، فقرر الانسحاب ورفع الحصار، وعاد إلى جيجل لقضاء فصل الشتاء فيها وإكمال الاستعدادات فجاءه رسول من بجاية يكرر طلبه حاملا رسالة من العلماء.[1]

4- المحاولة الثالثة لتحرير بجاية:

تحرك عروج في مارس 1515 لتنفيذ محاولته الثالثة من أجل تحرير بجاية، وقد اعتمد في محاولته هذه على إجراء حصار بري – بحري، فقاد قواته في البر، ووجه أسطوله بحرا للمشاركة في العملية،حيث اقتحمت السفن مصب نهر الصومام الذي كانت مياهه غزيرة خلال ذلك الفصل من السنة، وما ساعده بإحكام الحصار على المدينة قيام جيش القبائل بالسير إلى غاية مجرى واد الصومام ليلتقي مع الأسطول البحري ليبدأ حصار المدينة ثم مهاجمتها ،وركز الهجوم على معقل الحصن الصغير حتى تم له تدميره، والقضاء على معظم حاميته، وحاولت القوات اقتحام المدينة عبر أنقاض القصر الصغير، غير أنها اصطدمت بالمواقع المحصنة ،ومراكز الدفاع القوية كما فشلت محاولة الهجوم من ناحية البحر، عندها وجه عروج مدافعه إلى القصر الكبير، وأخذ يقصفه بتركيز كبير، فيما تقدمت قواته نحوه، واستخدمت المتفجرات والألغام من أجل تدمير الخندق المحاط به وتدمير أسواره ،ثم عمل على رفع المدافع إلى التل من أجل ضرب الأسوار بالرمي المباشر ،بعدها قرر مهاجمة المدينة هجوما عاما من كل الجهات، ووقعت معارك دموية استشهد فيها عدد كبير من المجاهدين،وقتل عدد من الاسبانيين أيضا،وقد تركز الهجوم الإسلامي على خمس نقاط حتى لا يترك للإسبانيين فرصة التجمع في مكان واحد ، و بعد ثلاثة أشهر من المحاولات أضطر عروج و من معه، ونتيجة لنقص في التموين و الذخيرة[2]، ووصول نجدة اسبانية من خمس سفن بقيادة دي مارتين(Di Martin) لنجدة الحامية الاسبانية قرر

---

[1] "..إن الله تعالى تكفل بنصركما حيثما توجهتما، لم ينكس لكما راية قط الجهاد فكيف تدعونا في أيد العدو الكافر ، لا نعبد الله إلا على خفية ولا نقدر على إشهار ديننا، وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم" .

[2] رفض سلطان تونس مساعدة عروج بالبارود بعد أن قرر هذا الأخير إرسال خير الدين لجلب المدد مما اضطره إلى رفع الحصار والعودة إلى جيجل،وهو ما وتر العلاقات بينهما .

الانسحاب ، ورفع الحصار قائلا قولته المشهورة " هنا تركت ذراعي ،وها أنا سأترك قلعتي أيضا ، والله لن أعود قبل أخذها .."[1].

وعندما حاول الإبحار بسفنه وجد أن منسوب مياه وادي الصومام قد تناقصت حتى لم يعد باستطاعة السفن الملاحة فيه ،كما لم يعد استطاعته هذه السفن العودة إلى البحر نظرا لأن الاسبانيين كانوا قد حشدوا أسطولا قويا وقف يتربص خروج السفن من النهر .فأمر عروج بإحراق السفن بعد أن استخدم قسما منها لعبور القوات ، وحتى لا تسقط في أيدي الأسبان و عبر البر عائدا إلى جيجل بعد أن خسر ثلاثة أرباع جيشه فمكث بالمدينة، بينما قام خير الدين بالذهاب إلى تونس من اجل تعويض ما خسرته قواته، و بناء سفن جديدة [2].

5- نجدة مسلمي الأندلس:

في خضم ذلك وصلته أصوات الاستغاثة من أهل الأندلس فتحمل مسؤولية نجدة أهلها، توجه خير الدين على رأس قوة بحرية، بتكليف من عروج لضرب الثغور الاسبانية ونجدة أهل الأندلس فأنقذ ما أمكن إنقاذه، نظرا لما كان يتعرض له من مضايقات الأسطول الاسباني ،وأنقض على جزر البليار التي أصبحت تحت سيطرة الاسبانيين ،واحتل مينوركا ،ثم رجع إلى قاعدته في مدينة جيجل ،وفي أثناء فترة غيابه ،كان أخوه عروج قد وطد مكانته في الجهة والجبال المحيطة بها،حيث التفت حوله قبائل كتامة وعينته أميرا للجهاد عليها، وتمكن عروج بذلك من تكوين جيش منظم،أحسن تشكيله في مجموعة من الكتائب ،ودربه على استخدام الأسلحة الحديثة والرمي بها ، وانظم إليه حليفه أحمد بن القاضي شيخ بلاد زواوة الغربية ،أو كوكو بقواته المحلية هذا الأخير حاول استغلال سمعة عروج للحصول على بعض أملاك الحفصيين خاصة تلك المتاخمة لحدود إمارته .

III - استنجاد أهالي الجزائر بالأخوة أبناء يعقوب:

نظرا للتشتت العام والفوضى المستحكمة، و عدم إستقامة أمر الملوك الزيانيين و اضطراب أمر الحفصيين أثر قوي في خروج بعض المدن بالمغرب الأوسط عن طاعتهم ، وإنشائهم لمدن مستقلة

---

[1] ألتر:المرجع السابق ،ص- ص48-49.

[2] نور الدين (عبد القادر): غزوات عروج وخير الدين، مطبعة الثعالبة ، الجزائر ،1934 ، ص.ص 25-26.

فعليا ، ومنها مدينة الجزائر التي استقلت في شؤونها عن الإمارات المتناحرة، هذه المدينة التي بقيت محافظة على حريتها و إستقلالها تحكمها هيئة من الثعالبة تحت رئاسة شيخ من شيوخهم.

وقد كانوا مستضعفين عاجزين عن حماية استقلالهم، و مقاومة الغزو الاسباني ، نتيجة لتحكم الطابع القبلي في السياسة وضعف الأسلحة ، فاستقروا إلى ضرورة القبول بالحماية الاسبانية وأداء الضريبة لهم على غرار ما كانوا يؤدونه للحفصيين أو المرينين الذين تداولوا على ملك متيجة والجزائر [1] بعد أن التفاوض الوفد مع مجلس سرقسطة من اجل بناء حصن على إحدى الجزر المقابلة للميناء ، وبمجرد الاتفاق أرسل الأسبان احد المهندسين العسكريين فأشرف على بناء القلعة التي أصبحت تدعى صخرة الجزائر (Penôn D'Argel) على أنقاض منار إسلامي قديم واحتل الأسبان صخرة المرسى وبنو عليها حصنهم المشهور المعروف باسم البنيون سنة 1510م وتحول أيضا إلى وكر للجوسسة والتخريب يشن منه الأسبان دوما غارات ، مما جعل المدينة في حالة استنفار دائم فسئم أعيان المدينة ذلك ،وصادف وجود الإخوة أبناء يعقوب بجيجل وفاة الملك فرديناند في 23جانفي 1516م ،فرأى أعيان مدينة الجزائر أنهم أصبحوا في حل من المعاهدة السابقة، فقرر مجلس أعيان الجزائر الاجتماع للبت في قضية المعاهدة ،وكان سائدا لدى سكان الجزائر انقساما بين المؤيد للالتزام بالمعاهدة والمعارض لها، فقد كانت السلطة ممثلة في شخص سالم التومي شيخ بني مزغنة [2] ،واعيان المجلس يرون ضرورة الاستمرار في الالتزام بالمعاهدة وبنودها في حين كان وجهاء المدينة من شيوخ وأئمة يرون ضرورة التخلص منها بالاستعانة بالقوى المجاورة للزيانيين أو الحفصيين أو المرينين، ذلك بهدف استعادة الوضع الطبيعي للمدينة تجارة ونشاطا بحريا ،وهذا لا يتحقق إلا بإزالة الحصن المقام في مدخل الميناء ،ومع وفاة الملك قرر سكان المدينة التخلص من المعاهدة خاصة الضريبة الثقيلة المفروضة عليهم ونزولا عند ضغط سكان مدينة الجزائر و أعيانها. [3]

قرر سالم التومي اللجوء إلى عروج للاستنجاد به فقام بتكليف وفد من الأعيان للسفر إلى جيجل عام 1516م ، و شرحوا له ما هم عليه من الضيق نتيجة الوجود الاسباني ، وتدخله

---

(1) أمبلي(محمد بن مبارك) : تاريخ الجزائر ،مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1963، ص-ص 292-298.

(2) و كان بني مزغنة قد انفصلوا من مملكة بني زيان بتلمسان،و كانت مدينة مستقلة و نصبوا كحاكم عليهم سالم التومي.

(3) Mercier(Ernest) :Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berberie) ,Tome 3, Paris 1868,p20

المستمر في شؤونهم [1]والخطر الدائم المحدق بهم وبمدينتهم باستمرار، وكان هو وأخوه يتهيأن لضربة قاضية ضد الأسبان في بجاية ،فرحب بالفكرة التي كان يرى فيها عاملا مساعدا لبناء قاعدة مستديمة للجهاد وتوسيع نطاق حربه ضد المسيحيين وخاصة الأسبان وبعد دراسة الموقف تبين له أنه باستطاعة الحامية الاسبانية توجيه مدفعيتها من جزيرتها –البنيون- التي كانت تشكل برج الأندلسيين لتدمير الجزائر في أي وقت[2] ،ونتيجة لذلك فإن باستطاعتهم احتلال الجزائر متى شاؤوا ،وان احتلال الأسبان لهذه المدينة التاريخية الهامة وتحويلها إلى قاعدة حصينة ،إلى جانب وجودهم بمدينة بجاية ،سيضمن للأسبان تفوقا كبيرا ، سيما وأن قواعدهم في وهران والمرسى الكبير ستتعزز ،هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى فإن سيطرة قواته على الجزائر سيساعد القوات الإسلامية على دعم مقاومته للمستعمرات المجاورة في بجاية ووهران ويضمن للأسطول الإسلامي حرية العمل من قاعدة إضافية ، وانطلاقا من هذا قرر عروج الاستجابة لطلب أعيان جزائر بني مزغنة فخلف أمر بجاية وقرر السير نحو الجزائر.

فغادر عروج قاعدته بجيجل على رأس قوة [3]تضم 800 من عناصره يولداش [4] ،و3000 من الأهالي،بينما أبحر خير الدين المتواجد في تونس ومعه 18 سفينة كبيرة ،و 3 سفن مسلحة،تحمل 2500 من البحارة ،ووصلت القوات إلى الجزائر فاستقبلها أهل الجزائر استقبال الفاتحين،وسار عروج فورا إلى مدينة شرشال وحررها من اجل إيجاد ملجأ آمن قريب لجنوده من جهة ،و لتحقيق الانسجام بين جنوده و السكان المحليين في أغلبيتهم من سكان

---

[1] أن سبب مجيء الإخوة أبناء يعقوب يعود أساسا أن ابن القاضي الزواوي راسل السلطان سليم فبعث للجزائر الباشا خير الدين وشقيقه عروج . نظر الزياني: المرجع السابق،ص176 .وهو شيء عاري من الصحة خاصة نتيجة لظروف وصول عروج وخير الدين إلى شمال إفريقيا.

[2] Devoulk (Albert) : " Alger .étude archéologique et topographique sur cette ville", R.A, N°20 1876, pp.67-70.

[3] تتناقض المعلومات حول القوة التي اصطحبها عروج معه إلى الجزائر 16 سفينة تحمل على متنها 500 تركي، وجاء هو برا عقبة 800 تركي مسلحين ببنادق و3000 من قبائل جيجل.كما تبعه 2000 من البربر، حيث قدر عددهم بـ6000 رجل.في حين يرى بينما آخرون يعتقدون أن عروج كان مسلحا بـ 4 سفن صغيرة تحمل على متنها 280 رجل و15 قطعة مدفعية. والمؤكد أن القسم الأكبر من الجيش جاء برا واستقبل من قبل سالم التومي وبدأ تسوية الخلافات مع حاكم شرشال الذي أراد منافسة عروج في العمل البحري في ظل موقع شرشال البحري، حيث نجح في القضاء عليه بعد حصار دام عشرين يوما .

[4]معناه رفيق الطريق

الأندلس و المتمرسين في العمل البحري ،و لكسب بعض الوقت في انتظار وصول قوة خير الدين البحرية الذي انطلق من جيجل بعد أن ترك حامية بها من 300رجل للدفاع عنها ومن جهة أخرى وصول سفينتين أرسلهما الخليفة وسفينة من جزيرة متلين تحمل إسحاق [1]ومن شرشال اتجه إلى الجزائر[2]،وتمكن من استمالة الأهالي وقرر زعماؤها وأصحاب الرأي فيها إسناد واجب أمير الجهاد إليه ،وكان ذلك من أبرز أحداث الجزائر في سنة1516م.

ما كاد يستقر في هذا الميناء حتى بدأ في إنشاء جيش منظم مسلح [3]،أخذ في بسط نفوذه على البلاد،وتقوية وسائل دفاع المدينة، ثم باشر مخطط تحطيم القلعة فاعتبر نفسه في حل من المعاهدة السابقة المبرمة مع اسبانيا، وعمد إلى فرض مراقبة شديدة على نبع الماء الذي يمول الحامية الاسبانية ، وقام بحفر خندق و نصب مدافعه في مواجهة القلعة وأخذ في قصف الحامية الاسبانية في محاولة أولى يوم 12اوت 1516تم حرمهم من الماء نهائيا ومن مواد التموين مما اضطرهم إلى التموين من جزر البليار.

ورغم هذا العمل فانه لم ينجح في استرجاعه ،ومع ظهور التهديدات من الغرب، والاستعدادات الاسبانية القائمة في وهران للقيام بعمل عسكري ضده، فحاول استغلال هذه الظروف لتعزيز مكانته باتخاذ مجموعة من الإجراءات، مثل نشر سلطانه على كامل السهول المحيطة بمدينة الجزائر ،ورفع رايته فوق[4] أسوار المدينة والقلاع المحيطة بها، كما بادر بسك النقود التي تحمل شعاره والتي كتب عليها [ضرب في الجزائر] وواكب هذه الانجازات بداية ظهور المؤامرات يقودها سالم التومي والبرجوازية الجزائرية.[5]

1- عروج في مواجهة المؤامرات:

أمام تزايد نفوذ عروج الذي لم يمض على وجوده بالمدينة أكثر من 20يوما، ومع بداية إقامته أسس دولة مركزية ،حيث خشي التجار البرجوازيون على نفوذهم فبدأوا بالاتصال بالأسبان من أجل الإعداد لمشروع القضاء على عروج .

---

(1) ألتر :المرجع السابق، ص. ص 50-52.

(2) Haedo:op-cit, pp.55 .

(3) المدني : حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق ،ص- ص 167-168.

(4) كانت راية ذات ألوان الأخضر والأصفر والأحمر

(5) المدني: حرب الثلاثمائة سنة...،المرجع السابق ، ص175.

حينما شعر الأمير سالم التومي أن الأمر قد أفلت من يده، وأن عشيرته من بني سالم لم تعد هي القوة الأساسية المسيرة للمدينة ،فأخذ في البحث عن الوسيلة التي تضمن له ولعشيرته استعادة ما كان لهما من نفوذ وسلطة مادية وروحية أين التقت رغبته مع رغبة البرجوازية ،وكان عروج بدوره قد شعر بأن الاتصالات التي كان يجريها سالم التومي ليست بريئة و تثير الشكوك ،وقد أثرت أيضا على عملياته فضلا على أن مشروع سالم التومي يكمن في التحرك على جبهتين على التوالي جبهة اسبانية وجبهة محلية ، فبدأ بدعوة الأسبان بوساطة قائد الحامية الأسبانية[1] إلى إعداد حملة عسكرية لإنقاذ الجزائر من عروج ،وفي نفس الوقت قام رفقة البرجوازية بالإعداد للمؤامرة مع قبائل متيجة، إلى جانب دعوة أمير تونس أبي عبدا الله الحفصي للتحالف مع الأسبان ضد عدوهما المشترك والذي كان هو أيضا يحاول القضاء على الخطر القادم من الغرب سيما و أن عروج كان ناقما عليه بعد حصار بجاية الأخير، نفس الخوف كان قائما لدى أمير تلمسان الموالي للأسبان والذي يرى في قيام سلطة قوية على مقربة منه تهديدا مباشرا له، فبدأ يسعى إلى تنظيم تحالف مع الكل لإرغام عروج على الرحيل أو القضاء عليه , غير أن عروج استطاع الإحاطة بمؤامرتهم و تفاصيلها وقرر التخلص من أطراف المؤامرة استعدادا للتصدي للحملة الاسبانية، فقام بشنق سالم التومي عند باب المدينة -باب عزون - و بتصفية كل المتآمرين[2] بقطع رؤوس أعيانهم في المسجد.[3]

---

[1] جوليان :المرجع السابق ،ص-ص321-331.

[2]أن سالم التومي بعد أن أدرك أن عروج قد ابعد الخطر الأسباني عنه بدا يحاول استرجاع سلطته واستغله الأسبان الذين كانوا عاملا قويا في جعل شيخ المدينة يحاول اللعب على حبلين خاصة وان الأسبان قد تعهدوا له بحماية عرشه مقابل الولاء وهو السبب الرئيسي في سخط الجزائريين عليه ،فكان ظهور عروج عاملا مقلقا لعملاء أسبانيا الذين رأوا فيه ضياع امتيازاتهم ففضلوا التعاون مع الأسبان للقضاء على القوة الناشئة

"Feraut (Charles):"Conquête de Bougie par les Espagnoles",R.A N°12 ,P 250

[3]عن سبب إعدام عروج أعيان الجزائر بالمسجد : أن الأعيان وجدوا الوسيلة للقيام بمراسلة سرية مع حاكم البرج الأسباني واتفقوا معه بأن يقتلوا جميع الجنود أو يضعوا الجزائر تحت حماية أسبانيا. وفقا للمخطط تقوم جماعة منهم بحرق أسطول =عروج وبينما يقوم الجنود لإخماد الحريق، يغلق الثوار أبواب المدينة ويثرون على عروج، وفي الحين توجه الحامية الأسبانية جندها إلى المدينة ليحتلوها ويعزلوا عروج، فتفطن عروج لمكيدتهم فكتم الأمر وانتظر يوم الجمعة فعندما دخل الأعيان المتآمرون المسجد الجامع لأداء الصلاة، أغلق الأبواب واعدم كل من ثبت تأمره. Haedo :Op-Cit ,pp.55-56.

2-تنظيم الدولة في عهد عروج:

بعد أن أصبح عروج زعيم الجزائر أصبحت ملجأ للانطلاق في عمله البحري بدأ في تخفيف الحصار على حصن البنيون قصد تنظيم القطر، لتحقيق أهدافه من استقراره في المغرب الإسلامي عامة، والجزائر خاصة بتطهير وتحرير المنطقة من السيطرة الأجنبية التي كان على رأسها اسبانيا إلى أن استشهد في سبيل غايته بساحة الوادي المالح بناحية تلمسان ،كما استشهد إسحاق مع جماعته بقلعة بني راشد.[1]

وقام عروج بتنظيم المدينة تنظيما كدولة حيث نظم الخزينة، وكلف رؤساء القبائل والضباط بمهام الجمركة ،ووضع المقاييس والموازين ، وعين مراقبين للإشراف على السوق ووضع بذلك المبادئ القاعدية لتنظيم الدولة، كما قسم البلاد إلى عشرة ولايات حيث اختار شقيقه خير الدين لتولي ولايات المنطقة الشرقية الخمسة بمركزها مدينة دلس وخصص لنفسه الخمسة الباقية في الجهة الغربية.

بعد ذلك قام بتعيين قواد الجيش وكتاب وأحصى السكان والأبنية والأملاك العقارية ،كما سجل واردات الجزائر ومصاريفها[2] معتمدا في ذلك على نصائح العلماء والأئمة كما قام بإخضاع المثلث ألزيري – الجزائر – مليانة – المدية وأضاف إليها الشلف وجزء من جبال الظهرة وجبال الونشريس و متيجة و شرشال ثم استدعى من جيجل رجال مخلصين ، كلفهم بممارسة النشاط البحري [3] كما اشرف على تنظيم الضرائب حسب الأصول و تنظيم التسليح .كما قام ببناء بعض المباني في القصبة كقلاع دفاعية ، ووضع حاميات بها ثم بدأ في فرض النظام على القبائل المحيطة بالمنطقة خاصة تلك الرافضة للنظام الجديد الذي أعلن عنه بغية الإبقاء على الامتيازات القديمة أو لسيطرة العقلية القبلية عليها. [4]

بفضل هذه الأعمال أصبح عروج حاكما فعليا على الجزائر حيث أقام دولة الجزائريين [5]،كما فرض الأمن وأسس إدارة جديدة قادرة على القيام بواجباتها غير انه ظل بعيدا عن تحقيق وحدة

---

(1) بن علي شغيب: المرجع السابق ، ص-ص 98-104.

(2) التر: المرجع السابق، ص. ص 56-57.

(3) سبنسر : المرجع السابق ،ص 33.

(4) التر :المرجع السابق، ص.ص 53-54.

(5) نايت بلقاسم : المرجع السابق ،ص 62.

التراب في ظل تواجد الإسبان و بعض الممالك الضعيفة ،أين بدأت ملامح التمرد والخيانة تظهر من الأسبان الذين بدأوا يشعرون بخطر هذه الانجازات على نفوذهم، إلى جانب بعض أهالي متيجة من البرجوازية. [1]

3- بداية تدخل الأسبان في المؤامرة:

استطاع يحيى بن سالم التومي من الفرار إلى وهران بعد مقتل أبيه، ليستنجد بالأسبان لاستعادة سلطة أبيه، فبين لهم خطر استقرار عروج بمدينة الجزائر وطالبهم بالعمل بسرعة، رغم الصلح الذي عقده عروج مع عائلة الضحية بتدخل من الوالي سيدي عبد الرحمان خليفة أحد أعيان قبيلة الثعالبة.

لم يكن الأسبان في حاجة لمثل هذه الاستشارة، فقد أدركوا للوهلة الأولى أن استقرار عروج بمدينة الجزائر يشكل تهديدا لكل مشاريعهم، و مخططاتهم الصليبية في التوسع عبر أقاليم المغرب الإسلامي خاصة حينما بدأ عروج في توسيع حدود دولته وتنظيمها بفتح مدينة تنس. فكتب حاكم وهران دي قوماريس(De Guomerez) إلى الوزير الأول خمينيس يقترح عليه الهجوم على الجزائر، بعدها سافر يحي ابن سالم التومي إلى اسبانيا لتأييد طلب الوالي ، والتماس الإعانة حيث أظهر لهم سهولة القضاء على سيطرة عروج وإخراجه من الجزائر لأن أهلها كما زعم ساخطون عليه، وأن القبائل كلها ضده مستعدة للثورة عليه، وصادف الأمر رغبة الأسبان في إبعاد الإخوة أبناء يعقوب وتنصيب عميل لهم. [2]

وقد حاول المؤرخون الأوربيون ربط هذه النزعة بموقف الأهالي من عروج ، إلا أنه بعيد كل البعد عن الحقيقة فالأستاذ عبد الجليل التميمي يؤكد على حقيقة مخالفة ،مؤكدا احتضان الأهالي لعروج ومساعدتهم له. [3]

VI -مقاومة الإخوة أبناء يعقوب لحملات الإسبان على الجزائر 1516-1541م :

1- موقف الإسبان من عروج وسلطته : كان وجود عروج بالجزائر يشكل خطرا حقيقيا على اسبانيا منذ محاولته الأولى على بجاية ، فبدأت تعمل في محاولة لتشكيل موقف أوروبي موحدا من

---

(1) Haedo : op-cit .pp55-56.

(2) Serres : op-cit ,p 1.

(3) "إن موقف الأهالي من العثمانيين لم يشبه الحقد والكراهية والعداء، ولو كان ذلك لقاوموا العثمانيين ولردوا الفاتحين" انظر التميمي (عبد الجليل) : الولايات العربية ... ، المرجع السابق، ص 95.

هذا الخطر،فعقدت اجتماع الكورتيس [1] تمخض عن قرار بتنظيم تحالفات أوربية ،ووضع مخططات سريعة والإعداد لحملات مهمتها البحث و تعقب عروج وخير الدين ، وكان هؤلاء قد اتجهوا إلى محاولة تخليص بجاية من الإسبان[2] فكان هذا العمل دافعا للفرنسيين إلى محاولة تحطيم القوة الإسلامية حيث توجهوا أيضا نحو بترزت أولا لقطع خطوط الاتصال بين عروج، وقاعدته الأولى بتونس والمتمثلة في أسطول الريس مصلح الدين كورت اوغلو [3] نتيجة التخوف من تحول المدينة إلى ملجأ للبحارة المسلمين بحوض البحر المتوسط ، لكن بوجود عروج بالجزائر أصبح الخطر أكبر على المشاريع الاسبانية حيث صادف ذلك وفاة الملك فرديناند عام 1516م فأصبح الكاردينال خمينيس هو المسير للمملكة الاسبانية و شهد بنفسه تطور الأحداث الخاصة في الجزائر، وفي نفس الوقت كان سلطان تلمسان قد بدأ يشعر بذعر كبير من مشاريع عروج [4] فلم يبق هو أيضا ورحب بالتدخل الإسباني ،واقنع الأسبان برغبة الجزائريين و عرب متيجة التخلص من حكم عروج بمن فيهم ابن سالم التومي الذي قدم لهم من معلومات حول التحصينات و الاستعدادات. فأثار ذلك حماس خمينيس للحملة ،وبدأ الأسبان في تسيير أول حملة تحت قيادة ديغو دوفير (Diégo de Vera) [5] عام 1516م الذي نظم جيشا قوامه 8000 رجل و كان الهدف احتلال الجزائر و القضاء على النظام الجديد و تنصيب يحي أبن سالم التومي المرافق لهم ملكا عليها الذي وعد الأسبان بالعودة إلى الاتفاقية السابقة وطرد عروج من الجزائر[6] و مع وصول الحملة الإسبانية أمام الجزائر نهاية شهر سبتمبر قامت بالإنزال دون عائق، و تمركز الجيش عبر محيط المدينة في المنطقة المسماة اليوم حسين داي.وبدأت ملامح التآمر بين شيخ مدينة تنس مع والي مستغانم واتصالهم بالأسبان حيث ساعدهم في ذلك حاكم وهران.

---

[1] وهو بمثابة مجلس استشاري يضم النبلاء و الحاشية المالكة إلى جانب قادة الجيش.

[2] ألتر : المرجع السابق ،ص 54.

[3] Sander et Denis: Op-Cit , p. 35.

[4] من المشاريع التي أثارت خوف السلطان قيام عروج بالقبض على شيخ البلد الذي ثبت اتصاله بالأسبان بتبليغهم عن كل تحركات عروج وجمع الضرائب قدرت بـ 8000 قطعة ذهبية و 700كيلة قمح و 1000راس من الغنم و 14 حصانا =و 1000رأس من الأبقار وقام خير الدين بإلقاء القبض على العميل وأرسله إلى عروج الذي عفا عنه شريطة إحضار الضريبة التي جمعها من الأهالي انظر : ألتر: المرجع السابق ، ص 57.

[5] يعتقد هايدو أن الاسم الحقيقي لقائد الحملة هو Francesco Verra وليس Diégo

[6] Haedo : Op-Cit .pp-59-61.

نتيجة لسوء تنظيم الجيش و مخطط الهجوم المعد و سوء تقدير القيادة للمخــاطر وعلــم الجزائريين المسبق بالحملة والاستعدادات التي قام بها عروج من تحصين المدينة ، وتنظيم الجــيش باستدعاء 30 ألف متطوع جزائري ،كل هذه العوامل أدت في النهاية إلى تحقيق نــصر حاســم وفشل الحملة و ترك الأسبان 3000 قتيل و 400 اسير سقطوا في يد الجزائريين، هذا الانتــصار جعل من عروج محط أنظار الشعب،بمساعدة أخيه خير الدين تحول إلى قوة وســط الفوضــى السائدة في الجزائر . و عكس معلومات سلطان تلمسان فقد ساهم العرب و سكان المدينــة في إحداث ضرر كبير بالجيش الإسباني.[1]

2- المحاولات الأولى لتوحيد الجزائر:

بعد فشل حملة الأسبان قام عروج بتقسيم فتوحاته إلى شقين باتجاه الشرق كلف بها خــير الدين الذي قام بتعيين مقر قيادته بدلس من جديد ،و أحتفظ عروج بالغرب حيــث شــكل بالجزائر العاصمة قوة قيادية ثم بدأ السير بجيش تجاه تنس التي كانت تابعة لسلطة بنو زيان ، أين تمكن من فتحها وقضى على سلطانها حميد العبد المتآمر مع أهل متيجة وطرده نحو الجنــوب في جوان 1517م كما تمكن عروج من القضاء على جيش تلمسان عند نهر الشلف ،الذي جــاء لنجدة ملكها ،ودخل المدينة واستقر فيها حيث استقبل بها وفد من مدينة تلمسان الذين طلبــوا مساعدته ضد أبو حمو الثالث المتحالف مع الأسبان و المغتصب لعرش حفيده أبو زيان الثالث المسعود ووضعه في السجن . استغل عروج هذه الفرصة وعقد اتفاقا مع أسرة الوطاسيين حكام فاس بالحياد في التراع وقرر إنهاء مشكل تلمسان.[2]

3- محاولة ضم تلمسان:

اتسم موقف سلاطين تلمسان بالمراوغة حيث يتحالفون مع عروج تــارة و ضــده مــع الأسبان تارة أخرى منقسمين فيما بينهم ، ويقومون بحروب نيابة عن الأسبان الــذين كــانوا يستفيدون من تنافرهم ويأخذون رهائن مقابل ولائهم . كما عمل هؤلاء .نتيجة للمعاهــدات السابقة على تمويل لأسبان في قلاعهم المحاصرة بالمؤن والأنعام-رغم الحضر المفروض من قبــل علماء المسلمين - وكان هذا التعامل بدافع المال والسلطة، وهو الذي تضرر منه عروج وخــير الدين.

---

[1] Joy (Edward): A Complete History of Algeria, Vol.4 Coll/ Brest University,1982 ,pp 230-231.
[2] Haedo:Op-Cit,pp.61-63.

هذا الموقف أدى إلى نقمة الشعب عليهم، كما يأس عروج من عهود هم الواهية، وكلما زاد احتلال الأسبان للشواطئ الجزائرية زاد نفوذ عروج وخير الدين صعودا و زاد المملكة الزيانية تقهقرا. وكان عروج يحارب الأسبان والملوك الزيانيين معا،استغل عروج استنجاد أعيان تلمسان به ،فاستخلف أخاه خير الدين على مدينة الجزائر و محيطها وانطلق إلى تلمسان عبر الهضاب الغربية متحاشيا الاصطدام بالحاميات المنتشرة في محيط وهران ،وسيطر في طريقه على قلعة بني راشد الواقعة بمنطقة هوارة ،متخذا منها قاعدة لحماية خطوط مواصلاته ، نظرا لما كان يتوافر لها من المميزات الدفاعية [(1)]، وولى عليها أخاه إسحاق و صديقه اسكندر بمساعدة 200 جندي مسلحين بالبنادق والمدفعية ،وكلفهم بتنفيذ عمليات صغرى لإزعاج الإسبانيين في وهران وحرمانهم من حرية العمل [(2)] ،و في الطريق أنظمت إليه القبائل المناصرة للملك المخلوع فخرج أبو حموا لملاقاته ، غير انه هزم و فر إلى فاس ، ودخل عروج تلمسان فاتحا و أطلق سراح السلطان الأسير،و نصبه ملكا ثم قرر العودة إلى الجزائر، غير انه شعر أن هناك مؤامرة بدأ بعض أطراف الأسرة الزيانية في الإعداد لها ،هؤلاء المؤيدين لأبي زيان وأولئك أنصار أبو حمو ، وبينهما أنصار الإسبانيين وعملائهم،وتعاظمت الفتنة إلى درجة حملت أبو زيان عل إعلان تمرده على عروج الأمر الذي أرغم هذا الأخير على إعدام 70 من أسرة بني زيان في خزان [(3)] ماء بالقصر[(4)] ،ونتيجة لشعوره بخطورة البقاء في مدينة بعيدة عن الساحل ، قام بإرسال حامية إضافية من 500 رجل إلى قلعة بني راشد الواقعة بنصف المسافة بين الجزائر و تلمسان والتي تمثل خط الرجعة، ثم بدأ في تأديب القبائل المتمركزة في المنطقة الغربية.[(5)]

4-الصراع الاسباني الجزائري حول تلمسان واستشهاد عروج:

كان أبو حمو ملكا على تلمسان على علاقات تجارية مع وهران إذ كان يمول الحامية الإسبانية بكل ما تحتاجه ، و بالتالي فإن فقدان الأسبان لهذا الدعم سيكون كارثة على وهران ،و

---

(1) نظرا لموقعها المناسب كحلقة الوصل بين الجزائر وتلمسان حيث كانت تبعد مسافة 25 كيلو مترا عن معسكر وتبعد عن مستغانم نحوا من 55 كيلو مترا.

(2)De .Grammont .(H.D) :" Quel est le lieu de la mort d’Aroudj Barberousse" .R.A N°22 1878, pp 391-392.

(3) يرى بن اشنهوا ان عدد الذين تم إغراقهم في صهريج لباده "نسبة إلى ابنة السلطان أبا زيان" هو 50 نفرا

(4) Mercier :Tome III,Op-Cit p211.

(5)Roland(Claudine)et Gros(Jean Didieu) : Moi Barberousse pirate et Roi de Barbarie ,Casterman Collection,Bruxelle1984,p80.

لذا أستغل أبو حمو هذه العلاقة و لجأ إلى الأسبان للحصول على تأييد شارل الخامس [1] الذي تولى مقاليد الحكم خلفا لفرديناند ، فأمر الملك الاسباني المركيز دوقومارا (De Gomerz) حاكم وهران بالإعداد للحملة ضد النظام الموالي لعروج بتلمسان ، و تنصيب السلطان أبو حموا ملكا عليها.[2]

قرر القائد الاسباني العمل أولا على قطع الاتصالات بين تلمسان و العاصمة بالاستيلاء على قلعة بني راشد ، فعين القائد مرتان دارقوت (Martin d'Argote) لقيادة هذه الحملة التي انطلقت بقوة مشكلة من 2000 رجل من أتباع أبو حموا، إضافة إلى 10الاف جندي اسباني باتجاه القلعة، بهدف قطع طريق العودة أمام عروج ومنع وصول الإمدادات من الجزائر وقد استطاعت الحامية الدفاع عن القلعة في صدامات مسلحة كلفتهم الكثير خاصة بعد تمكن الأسبان من فتح ثغرة بسور القلعة .

نظرا للخسارة الكبيرة التي منيت بها ، إذ استشهد ثلثي عناصرها و هروب كل سكان القلعة، هذه العوامل كلها اضطرت إسحاق إلى طلب الانسحاب والاستسلام المشرف، وإخلاء القلعة شرط خروج كل المتواجدين بسلاحهم ،والسماح له ولبقية أفراد قواته بالتوجه إلى تلمسان.[3] إلا أن الاتفاق لم يحترمه الأسبان، فبمجرد خروج العناصر المتبقية من الحامية قام عنصر من أنصار أبو حمو بقتل أحد أتباع إسحاق [4]،فكانت إشارة لبداية المذبحة، وأقدم الأسبان على قتل كل عناصر الحامية المنسحبين باستثناء 16 عنصرا تدخل القائد الاسباني لمنع إبادتهم، أما إسحاق و إسكندر فقد جاهدا إلى آخر لحظة و سقطا شهيدين ،وكان ذلك في جانفي سنة 1518م[5].و قام القائد الإسباني بتسليم القلعة لأبو حمو ، بمساعدة حامية إسبانية للحفاظ على سلطته فيها و عادت القوات إلى وهران.

بعدها قام المركيز قومارا بتسيير حملة جديدة للسيطرة على تلمسان، وعند اقترابه قام السكان من أتباع أبو حمو بفتح أبواب المدينة للغزاة، فأضطر جيش عروج اللجوء إلى قلعة

---

[1] يعتقد أن هناك احتمال بعد هزيمته أمام عروج قد لجا أولا إلى سلطان فاس طلبا للمساعدة.

[2] Primaudie :" Documents inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnol en Afrique" R.A N°19 1875 (1506-1574) p-p 140-153.

[3] Sander et Denis :Op-Cit , p 102.

[4] يرى البعض أن سبب الصدام كان إقدام احد الجنود الجزائريين بقتل جندي اسباني حاول نزع أغراضه فكانت بداية المذبحة التي قضت على الكل باستثناء قلة أسرت.

[5] Primaudaie : Documents ….Op-Cit , p 150.

المشورة[1] ،وظل يدافع مدة 26يوما أملا في المساعدة القادمة من سلطان فاس ،و بعد انتظـــار غير مفيد شعر عروج أن المؤن بدأت تنفذ ، قرر الخروج والانسحاب من تلمسان ليلا [2] عـــبر بوابة هامشية و اختراق خطوط الأسبان ،و بدا في السير شرقا قـــصد الوصـــول إلى الـــساحل لانتظار سفن أخيه خير الدين المتوقع وصولها ،وبعد ساعات اكتشف القائد الإسباني مارتـــان دار كوت انسحابه والذي مثل خسارة كبيرة له ، فبدأ بملاحقة عروج ليتمكن من اللحاق بـــه قرب جبال بني سناسن أين دارت أول مواجهة غير متكافئة ، انسحب إثرها عـــروج محـــاولا اجتياز واد المالح [3] وفي محاولة لتشتيت الجنود الأسبان لجأ إلى حيلة برمي قطع نقدية ذهبيـــة في طريق انسحابه قصد الهاء ملاحقيه لكنه فشل في محاولته ،و لم تنقذه من المصير المعد له من قبـــل القائد الإسباني الذي قام بتحفيز جنوده و حثهم على الملاحقة.و نتيجة للتعب والعطش الـــذي نال عروج و مرافقيه أضطره لاحتماء بالآثار القديمة في مكان يقع بين زاوية سيدي موسى وممر النهر المالح[4] و الاستعداد للمقاومة التي لم تدم طويلا وسقط عروج شهيدا [5] رفقة ما تبقى من جيشه و ذلك سنة 1518 عن عمر يناهز 44 سنة بعد حياة مليئة بالمغامرة قضى منها 14 سنة في إفريقيا[6].

عاد القائد الإسباني منتصرا رفقة الضابط الذي قام بقطع الرأس الشريفة لعـــروج وجـــر جثمانه أميال إلى تلمسان [7]،و استقبل استقبال الفاتحين، و نصب أبو حموا على العرش مقابـــل دفع مبلغ مالي إلى إسبانيا سنويا قيمته 12000 وحدة ذهبية و 12 حصان و 06 نسور صيد. كإعلان للتبعية وعلى العكس من اعتقاد السائد لدى الأسبان، فان استشهاد عروج لم يحـــدث اضطرابا سياسيا في الجزائر مما دفع الأسبان إلى تـــسير حملـــة بقيـــادة الجنـــرال مـــارينو دو

---

[1]وهي جامع اعتاد التلمسانيون أداء صلاة العيد فيه وقد حاول أهالي تلمسان التحايل على عروج بان طلبوا منه السماح لهم بأداء الصلاة ،و لم يتمكن عروج القضاء على هذه المكيدة إلى بعد جهد انظر، ألتر: المرجع السابق، ص 66

[2] يذكر زهار عبد الجواد أن عروج لما شعر بالخطر خرج من المدينة رفقة صديقه بن القاضي باتجاه صحراء انجاد على بعد 120كلم عن تلمسان هذا الأخير الذي شعر بخطورة الموقف فقرر الهرب و غير اتجاهه مبتعدا عن عروج.

[3] وهو إحدى الأودية التي تصب في خليج بوشقرون وتقع غرب وادي حلوف واطلق عليه الرومان Flumen Salsum

[4] Berbrugger :" la mort du fondateur de la Régence d'Alger" R.A,N°4, 1859 -60, p. 25.

[5]قام الأسبان ورجال الدين بصنع من ملابسه شعارا سمي شارة بربروس انظر ألتر: المرجع السابق ، ص 67

[6]De Grammont : R.A N° 22, 1878, Op-Cit. p240.

[7] ذكر القائد الاسباني " انه قام بتوجيه ضربة برمح فأصابه في صدره وهو ما أكده ساندوفال، وقام بقطع رأسه ، التي نقلها إلى وهران ، وانه أصيب بجرح في أصبع يده اليمنى ، وظلت هذه العلامة تذكره بهذا الانجاز العظيم...."

ريبيرا(Marino de Ribera) كمحاولة لتقويض أركان خير الدين إلا أن العاصفة قــضت على معظم سفن الأسبان وغرق 4000 جندي[1].

V- شخصية عروج:

رغم الحكم القاسي الذي تعرض له عروج من قبل بعض المؤرخين المسيحيين فإن هايــدو اضطر إلى الاعتراف بشخصيته فقال عنه :" إذا أن وصف عــروج الرئيــسي هــو الــسرعة والاستعجال الذي كان يقضي بها أموره ، وهما ثمرة طبيعية للوضع القائم أن عروج كان وليــد عصره وتصرفاته لم تترجم فعلا".

أمادو قرامون فيقول :" هكذا مات مؤسس مملكة الجزائر وعمره أربع وأربعون سنة، ولم يترك خلفا ويتفق اغلب المؤرخين على أنه كان مجرد رئيس عصابة لصوص ناقلين هذا الخــبر، الواحد على الآخر، وليس هناك في الحقيقة رأي أصل من هذا، إذا كان بربــروس الأول مــن أبطال الإسلام شن في البحر حروبا شعواء، بدون شفقة ولا رحمة على أعداء سلطانه ودينه. وقد قام بهذا دون أن يحيد عن الأساليب المألوفة في ذلك العهد، ولم يظهر قسوة أكثر مما كــان يستعملها أعداؤه الذين كان يحاربهم . لما سمحت له أعماله البطولية بجمع قوات كافية وضــعها تحت قيادته إثر انتصاره الأولى حتى ينجز مشروعا عظيما، فإنه عرف بفضل مهارته كيف ينتهز الفرص ويؤسس ملكا في وسط الفوضى السائدة في شمال إفريقيا .رأى أن الوسيلة الوحيدة لدوام سلطانه نفي وطرد المسيحيين من الديار، فهاجم حلفاءهم وأولياءهم ليضطروا هم إلى جلــب المؤن وتلقي النجدة من إسبانيا دون غيرها.كانت مساعيه في بداية أمره ناجحة وكانت غزواته لأقاليم الغربية مكنته من التغلب على غزوات العدو البحرية لولا خيانة حلفائه الــتي أدت إلى سقوطه. لقد تأسف عليه أشد الأسف كل من خدم تحت إمرته.. "[2].

أما شخصيته الوصفية فيجمع المؤرخون على حقيقة واحدة هي كمال الجسم وحدة النظر فقد كان مربوعا عريض البنية، بطول متوسط، لكنه ضخم الجثة عيناه تلمعــان صــافيتان ، و الأنف كان يميل إلى السمرة ، شجاعا حربيا، كان أشقر اللون أحمر اللحية، كــان شــديد الانتقام من الأعداء، قائدا يحارب بشجاعة نادرة ،كريما سخيا، تبرع بكل أمواله التي تصح له

---

[1] سبنسر: المرجع السابق ، ص35.

[2] De Grammont (H.D) : Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Ernest Leroux ,Editeur ,Paris 1887, p25.

من الفئ على جنوده وأصحابه وذويه، ولا يبقى لديه إلا القليل منها، فقد كان سخيا بأمواله بدون حساب الأمر الذي جعله يجمع حوله الكثير من الناس خصوصا عندما كانت المجاعة تجعل الناس في ضائقة، فتراه يخرج إلى البحر لعله يجد سفينة أعداء حاملة الحبوب فيأسرها ويوزع غنائمها على الفقراء بدون عوض ولا يأخذ منها شيئا. و كان محبوب تجاه رجاله، صارما وهذه الصرامة تذهب إلى حد العنف فيما يخص النظام و الانضباط.[1]

ويذكر عبد القادر نور الدين واصفا عروج: "أن من تأمل في خدماته ومساعيه وعرف مآثره الخالدة، فإن يتفطن لحسن مقاصده وأغراضه فإن هذا الرجل العبقري سعي في توحيد البلاد وجمع شمل أهله وتحطيم المعتدين عليها الطامعين في أرزاقها، فله الفضل العظيم في تأسيس أول دولة لمدينة الجزائر، وخير ما يقال أن بابا عروج هو أول من وضع اللبنة الأولى لبناء صرح الدولة الجزائرية، وأول من تنبه إلى تمتين أساسها، وتكريس مجهوده في توحيد القطر الجزائري، وجمع شمل أنحائه، فجعل للجزائر شخصية تمتاز بها ،وشعار خاص بها ومنابع خيرات مختلفة ومتنوعة متأثرا بنمط السلطة التي كان فرسان رودس يمارسونها كنظام ارستقراطي عسكري والتي اطلع عليها أثناء أسره، لهذا سعى إلى إقامة حكومة جزائرية على هذا النمط"، حيث أقام نظام استشاري من 60 عضوا - مجلس الحكومة - مستعينا أيضا بشيوخ الزوايا وعلماء الدين وقادة الجيش.

و يصف سامح ألترعروج بقوله :"الريس عروج كان شجاعا في جهاده، مدافعا عن دينه وإسلامه ضد أعدائه، و لم يكن في جهاده مخالفا للقواعد المتبعة آنذاك، كذلك فانه لم يكن ظالما ولا متهاونا مع خصمه وعندما جمع قوات كافية رغب العمل ملتمسا لديه القدرة على ذلك، فاتجه إلى شمال إفريقيا مستفيدا من الفساد والفوضى هناك .. كان بأوصافه ضخم الجثة وقوي البنية التي منحت له القوة والثبات في قراراته، لم يكن سفاكا للدماء بغير حق، فالكل بادله الاحترام حتى الجبناء كانوا يحترمونه.."[2].

VI- اتصال عروج بالخلافة العثمانية:

عمل عروج نظريا في البحرية الإسلامية العثمانية ،نتيجة لشعوره بالانتماء لهذه الدولة في الجهاد البحري ،ومن الناحية الرسمية كان ضابطا بحريا في قوات الدولة العثمانية ولذا عمل منذ

---

[1]Sander et Denis : Tome II ,Op-Cit,pp117-119.

[2] ألتر: المرجع السابق ، ص.ص 67-68

قدومه إلى شمال أفريقيافي هذا السياق .فقام بإرسال هدية رمزية للخليفة سليم عنـــد تحريـــره لجيجل وأرفقهدية برسالة شرح له فيها ما يتعرض له -وأخوه خير الدين-مـــن صـــعوبات في جهادهما المرير لإنقاذ المسلمين والدفاع عن الثغور الإسلامية في شمال إفريقيا ،فتقبل الـــسلطان سليم الهدية ،ورد عليها بإرسال 14سفينة محملة بالجنود مع كميات معقولة مـــن الأســـلحة والذخائر والتجهيزات ،ووصل هذا الدعم إلى قاعدته بجيجل اثر محاولته الثالثـــة ضـــد بجايـــة وأصبح أكثرتصميما على إجراء محاول ة جديدة ضد بجاية بفضل هذا الدعم فتم حشد السفن والمدافع الضخمة والمواد التموينية والأسلحة والذخائر التي تكفي لحملة طويلة الأمد[1].

وقد اختلف المؤرخون في سبب اتجاه العثمانيين إلى المغرب الأوسط فمنهم من يقول أن الإخوة أبنايعقوب أوفدهم السلطان سليم مباشر ة إلى المنطقة، بناء على استنجاد الجزائـــريين بالدولة العثمانية كما أشار إلى ذلكمحمد بن يوسف الزياني في مخطوطته قـــائلا :" أعلـــم أن سبب مجيئهم "الأتراك" للجزائر... هو تغلب النصارى على السواحل، و لم رأى ذلك العلامـــة ولي الله أبو العباس الشيخ أحمد بن القاضي الزوا وي كتب إلى السـ لطان سليم، فبعث للجزائـــر الباشا خير الدين حسن بن المدلية وشقيقيه عروج وإسحاق[2]ومنهم من يرى أن قدوم عـــروج كان عفويا ضمن نشاطه البحري في البحر المتوسط إذ تحكمت العديد من الظروف في العلاقـــة بين عروج والخلافة العثمانية خاصة تلك المرتبطة بحالة البحر المتوسط إذ كان هذا البحر مسرحا لصراع مرير بين المسلمين والمسيحيين، نتيجة لسعي الأسبان خاصة في السيطرة على هذا المجال الحيوي، والانتصارات المدوية للأخوة أبـ ناء يعقوب ، بفضل ما يتميزان به من شجاعة ومعرفـــة بالعلوم البحرية أناستمالهم الخليفة العثماني . فوضعوا أنفسهم في خدمته واستجابوا لرغبتـــه في القيام بحملات بحرية حربية على شواطئ اسبانيا لإنقاذ ومساعدة مسلمي الأنـــدلس بأســـطول مكون من حوالي عشرة سفن و 1000 بحار[3].

ولذا فانه فإنه يبدو أن الدولة العثمانية لم تكن بمعزل عن الأحداث التي كانت تجـــري في منطقة البحر المتو سط الغربي,في حين يؤكد البعض من أن الباب العالي حين علم بما يتعرض له المسلمون الأندلسيون من ا ضطهاد وإبادة على أيدي الأسبان، وضع تحت تصرف عروج وخير

---

(1) Serres :Op-Cit, p23

(2) جلال (يحي) : العالم العربي الحديث ....، الجزء1، المرجع السابق، ص 39.

(3) Sanderet Denis : Op-Cit ,p13.

الدين مراكب وأرسلهم لنجدتهم، فكانا يجمعانهم من شواطئ اسبانيا ويذهبان بهم إلى مدينة جيجل أوالى أماكن أخرى مجاورة وقد ظل الارتباط غير مباشر إلى حين قيام خير الدين بالانضمام إلى الخلافة رسميا.(1)

VII - تولي خير الدين القيادة:

بعد استشهاد عروج قرر الجند و أعيان مدينة الجزائر مبايعة خير الدين بالإجماع خلفا لأخيه على رأس الدولة الفتية ولكنه وجد نفسه في موقف صعب للغاية، نقصا في القيادات وتخلي عنه بعض الأصدقاء، إضافة إلى خشيته من ثورة المناطق المجاورة لمدينة الجزائر، وتمرد سكان المدينة خاصة البرجوازية وقبيلة سالم التومي التي كانت تتحين الفرصة للثورة ضده، واحتمال استغلال الأسبان لانتصارهم فيعمدون إلى طرده (2)،وجنوده القلائل الذين بقوا معه في مدينة الجزائر غير قادرين على مواجهة العديد من الأعداء في وقت واحد فوضع ثلاثة احتمالات: الاحتمال الأول العودة إلى جيجل والانطلاق في العمل البحري من جديد ، والاحتمال الثاني العودة إلى مقر الخلافة و أن يضع نفسه في خدمة الخليفة ،والاحتمال الثالث البقاء و مواصلة الكفاح (3) واستقر رأيه على الاحتمال الثاني أي الذهاب إلى مقر الخلافة للقاء الخليفة قصد الحصول على مساعدة لمتابعة الجهاد وخاطب الأعيان قائلا:" الآن لم يبق لي شيء افعله من اجل إسعاد مدينتكم قررت أن أغادركم واترك إلى جانبكم فرقة كافية من المحاربين الأبطال الذين سيعملون من اجل أن يحترم اسم الجزائريين ... عندكم الأسلحة- السفن – الذخائر من اجل أن تقوموا بمحاولات جديدة ... حين وصلت إليكم لا يوجد ولا مدفع واحد من اجل الدفاع عن المدينة، الآن بفضل الله لديكم أكثر من 400 مدفع مما أرغم عدوكم على تركّكم...حينما تجدون أنفسكم أمام ضائقة وتبرز أمامكم حالات صعبة وخطيرة، استشيروا الفقهاء، وهذين القائدين الشجاعين، احمد بن القاضي قائد المنطقة الشرقية ومحمد بن علي قائد المنطقة الغربية، والذين هم بجانبي ومساعدتهم وبعون الله ستتغلبون على كل العراقيل "(4) وكان

---

(1) Roland et Gros :Op-Cit ,pp 201..

(2) أن سلطان تلمسان استغل استشهاد عروج فقام بمحاصرة الجزائر برا بينما حاصرها الأسبان بحرا كما حاول المركيز دو كاريز السير باتجاه العاصمة لكن خوفه من المجازفة أنقذ الجزائر من عملية ساحقة Sander et Denis : op –cit ,p 106

(3) Watbled(Ernest) :"Etablissement de la domination Turque en Algérie" ,R.A N°17 ,1873 pp 352-387.

(4) آجقو: الدولة الجزائرية الأولى.... ، المرجع السابق ،ص.ص147-148.

تصور خير الدين للسلطة من وراء هذا الخطاب أن يكون الحاكم احد أعضاء المجلس – مجلس الأعيان – مقتنعا بالكفاءة والقدرة على الوقوف في وجه الصعاب المتعددة وأبعاد العسكريين عن الحكم إلى جانب الرؤية الموضوعية للسلطة بخلق مجلس استشاري.غير أن علماء الجزائر رفضوا ذلك وأجابوه:"بأن الله يوجب عليه الجهاد في هذه المدينة –الجزائر- لحماية المسلمين، والذين لا يسمح له بتركها نهبا للمفترسين "، فأجابهم بكلمات مؤثرة كشف فيها عن إستراتجية جديدة في التعامل مع الأحداث ،وهي ربط مصير الجزائر بقوة في مواجهة القوة الاسبانية واشترط بقاءه بربط الجزائر بالخلافة العثمانية ، [1] وكان من حسن حظ خير الدين أن القوات الاسبانية التي استخدمت ضد تلمسان أعيدت إلى اسبانيا.

اقتنع أهالي الجزائر وأعيانها والقلة القليلة من الجيش [2] أن خير الدين يتناسب مع المؤمن الحقيقي الذي آثر الدفاع عن المدينة بدل الحزن على أخيه،فاعترف به سكان المدينة كخليفة لأخيه رئيسا على الجزائر من قبل مجلس الأعيان بصفة رسمية كحاكم على الجزائر، معتبرين أن الجزائر تمثل قاعدة أمامية إسلامية في الجهاد ،فشرع في إعادة الثقة إلى نفوس الأهالي و الارتباط معهم أكثر فبدأ بالسيطرة على الأبراج مستعينا برجال القانون و النظام و العلماء و تم تعينه لكنه شعر بأنه لا يستطيع مواجهة حملات ألإسبان، ونظرا للموقف الداخلي الذي ظل حرجا إذ ثارت مدينة تنس و شرشال،مستغلة استشهاد عروج [3] كما حاول السلطان الحفصي التحالف مع سلطان تلمسان للقيام بعمل مشترك ضد الجزائر كما أن بلاد القبائل بدأت في التمرد بقيادة أحمد بن القاضي وأصبح السلطان أبو حمو الذي امتد نفوذه إلى مدينة مليانة ، يهدد مدينة الجزائر في حد ذاتها[4].

---

[1] "لقد بقيت منفردا دون إخوتي الذين استشهدوا جميعا فوق أرض الجزائر وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان،واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره،وصاحب تونس الحفصي الذي لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذي أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا -أثناء حملة بجاية-لولا لطف الله فالرأي هو أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية،وهو السلطان سليم خان –ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة،ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته،والدعاء له في الخطب على المنابر،وضرب السكة -النقود-باسمه لنتفيأ ظل حمايته،فاستكانوا لذلك ورضوا به،وأعلنوا بالدعاء له على المنابر،وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية،وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر".

[2] ألتر: المرجع السابق ،ص- ص 100-106.

[3] سبنسر: المرجع السابق ،ص.ص 35-36.

[4] ابن أبي الضياف: المرجع السابق ،ص 11.

فقرر الجزائريون بذلك أن تكون دولتهم الفتية جزءا من الخلافة العثمانية ،ووافق خير الدين على البقاء مؤقتا رئيسا لهذه الدولة ، وان يكون الحاكم له القدرة والكفاءة على إدارة البلاد ،وحتى يتخذ الخليفة العثماني قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر،ويمدهم بما طلبوه من دعم عن طريق الوفد الجزائري الذي رحل إلى القاهرة ،حيث كان الخليفة سليم مقيما بعد فتحها لتنظيم البلاد،وقابل الوفد الذي كان يرأسه الحاج حسين الخليفة سليم وأجابهم على سؤالهم ،وأعلمهم بموافقته على أن يشمل دولة الجزائر برعايته،وأن تكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية [1] ،وأضفى على خير الدين لقب باي لرباي أي باي البايات باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون أو سوف يتولون الحكم في بلاد الشمال الأفريقي،وخول الخليفة دولة الجزائر حق صك النقود باسمها ،وذلك دلالة على الاستقلال ضمن الخلافة العثمانية [2]، وعمل الخليفة بعد ذلك مباشرة على إرسال دعم إلى الجزائر يتكون من قوة بحرية محملة بأربعة آلاف مقاتل من المتطوعين وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية،ووصلت هذه الإمدادات إلى مدينة الجزائر حيث تم إنزالها على ساحل باب الواد،وبدأ خير الدين في إعداد القوات الجزائرية لمجابهة الأعمال العدوانية المتوقعة .التي سرعان ما تجسدت إذبدأ شارل الخامس الذي حقق نصرا في تلمسان يفكر في طرد خير الدين من شمال إفريقيا و "تحرير" سواحل البحر المتوسط منه .

1- خير الدين يكمل المسيرة :

بدأ خير الدين في استكمال أعمال عروج لتنظيم البلاد، و قام بتنظيم الجيش تنظيما عسكريا صارما قام ببناء ثكنات للجيش واسعة وحسنة الترتيب ،وفرض اللباس العسكري المميز وجهزه بأسلحة متطورة ،كما أخضعهم لنظام قضائي عسكري إلى جانب استكمال البناء للبحرية وتقويتها وأسندت إليها مهمة محاربة القوى البحرية المسيحية في البحر المتوسط.[3]

كان أمام خير الدين في ظل أوضاع بلاد المغرب المتميزة بالانقسام وتضارب المصالح بين الأفراد وذوي النفوذ المحليين ،طريق العمل المنطقي يتلخص في : الأول هو المحافظة على مدينة الجزائر سليمة وكقاعدة ، ومركز لهذا الاتحاد الموجه ضد الأسبان ، والثاني هو الانضمام

---

(1) التميمي (عبد الجليل): أول رسالة من أهالي...، المرجع السابق، ص-ص 116-120.

(2)Lutsky : op-cit, p168-169.

(3) جوليان: المرجع السابق ، ص 334 .

والاتحاد مع تلك القوة الإسلامية الضخمة المتمثلة في الخلافة العثمانية ، والتي كانت في ذلك الوقت قد تولت قيادة العالم الإسلامي بفتحها الشام ومصر والحجاز واليمن ،و كان هذا الاتجاه ضمن: أولا كسر التحالفات التي كان الحفصيون والزيانيون يقيمونها مع اسبانيا مقابل الحماية ،وثانيا الحصول على العون لتوحيد الشمال الإفريقي. وبموجب الرسالة التي وجهها شيوخ وعلماء الجزائر للخليفة سليم ، أصبحت الجزائر تمثل طليعة العالم الإسلامي في جهاده ضد المسيحيين وخاصة ضد الأسبان وبدلا من علم الشهيد بابا عروج ذو الألوان الثلاثة الأصفر والأحمر والأخضر، تم رفع العلم العثماني، الأحمر ذا النجوم الثلاث وهذا التوحيد للأقطار الإسلامية أعطى للعالم الإسلامي حيوية في صراعه ضد حركتي الغزو الأجنبي المسيحي والخيانة المحلية[1] كما كان التحاق الجزائر بالباب العالي باعثا قويا في اضطراب بنو زيان في تلمسان ، وبني حفص بتونس و الوطاسيين أيضا بالمغرب الأقصى خشية امتداد النفوذ العثماني إلى بلادهم ،فاجتهد الحفصيون و الزيانيون يومئذ في العمل على قطع العلاقة بين الجزائر وإستانبول وسعوا في إيقاظ الفتن و الثورات الوطنية ضد خير الدين وفيهم من استعان بالأسبان وملوك المغرب الأقصى ولكن ذلك كله لم يثبت أمام قوة الجيوش النظامية ،ففشل بنو زيان في إثارة السكان، أما الحفصيون فقد استعملوا الدسائس و استمالوا إليهم ابن القاضي ومحمد ابن علي دفعوهما إلى الثورة ضد خير الدين للتخلص منه فتزعما تمردا واسعا غير انه فشل في الاحتفاظ بالسلطة في الجزائر إذ بعد 5سنوات تمكن خير الدين من استعادة المدينة وشرع في بناء أسطول حربي مجهز بوحدات بحرية خفيفة و سريعة و تهيأ لتخليص تونس و الجزائر من السيطرة الاسبانية كما أن معارضة القيادات المحلية في كل من تونس والمغرب وتلمسان للنفوذ العثماني في شمال أفريقيا وخوف هذه القيادات على فقدان امتيازاتها و سلطاتها قد عجلت بتحرك خير الدين لكي يقيم علاقات أوسع مع الخلافة العثمانية و يقضي على النفوذ الإسباني و القيادات المحلية المبعثرة الرافضة للزعامة العثمانية .[3] وبهذا تمكن عروج و بعده خير الدين من إفساد المشروع والخطط الاستعمارية الاسبانية بفضل بسياسته الرشيدة .[3]

---

[1] جلال: تاريخ إفريقيا.... ، المرجع السابق ،ص.ص100-101.

[2] Jehel(Georges) :la Guerre de course en Méditerranée 1515-1580,Actes des journée Universitaire,Presse de l'Université,Paris ,1990,p180.

[3] بوعزيز (يحي) : "علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا فيما بين القرن 16-19 "،مجلة الثقافة، العدد 48 ،الجزائر، 1978، ص-ص 34-178.

3- محاولات توحيد المنطقة:

كان سكان تونس و تلمسان ينظرون إلى التطورات الحاصلة بالجزائر نظرة خوف فقيـــام دولة قوية قد يهدد عرش المملكتيناللتين ظلتا قائمتين بفضل المساعدة الإسبانية ، فعمل هـــؤلاء على دفع رؤساء القبائل الذين يحكمون باسم دولة الجزائر إلى الثورة ،هذه المحاولة حققـــت في البداية بعض النجاحات ،فبعد وفاة السلطان أبو حمو مسعود حرم أبنه المسعود من الحكم من قبل أخيه السلطان عبد الله و لجأ إلى المغرب فبدأ بالاتصالات مع خير الدين متأثرا بالإنجازات التي حققها ،طالبا الدعم لاستعادة حقه في العرش و، قبل طلبه و منحه فرق ة من الخيالة ،و مكنه من تشكيل جيش من القبائل سلحها خير الدين ،و وصلت هذه القـــوة إلى تلمـــسان، فأضـــطر السلطان عبد الله إلى إخلاء المدينة و اللجوء إلى وهران لدى الحاكم الإسباني ، و تم تنـــصيب المسعود ملكا على تلمسان .معلنا تبعيته لحاكم الجزائر إعترافا بالجميل، لكن بمجـــرد رحيـــل الجيش الجزائري من تلمسان تحول شيئا فشيئا عن سياسة الولاء لخير الدين، و اتجه للتحالف مع الأسبان لقطع الطريق أمام مسعى أخيه .ففوجئ خير الدين بهذا العمل فبدأ في إعـــداد جـــيش لمعاقبة هذا الخائن ، و عندما كانت الإعدادات جارية و صلته أخبار عـــن رغبـــة السلطان المخلوع مولاي عبد الله من خلال وسيط من علماء الجزائر في الصفح و طلـــب الـــصداقة ، مقابل إعادته إلى العرش .لكن عروض السلطان المخلوع كانت بعيدة عن الواقـــع لوجـــوده بوهران تحت رقابة الأسبان و صعوبة هروبه منها ، لكن خير الدين قرر الاستفادة مـــن هـــذا الوضع بأن أعد خطة تتمثل في الزحف بالجيش باتجاه الغـــرب فيـــستغل الـــسلطان الأســـير الاضطراب الذي سيحدثه هذا العمل لدى الأسبان ، فيقوم بالخروج من وهران ويلتحق بخـــير الدين مستعينا بالقبائل المساندة له .

فوضع خير الدين مخططه بمهاجمة أولا مستغانم التابعة آنذاك لبني زيان و التي تمثل بوابة نحو تلمسان باعتبارها المسيطرة على طرق المواصلات بين الجزائر واتجاه القوات الجزائرية، ثم الـــسير باتجاه تلمسان مرورا بقلعة بني راشد و بعد موافقة المجلس العسكري على المخطـــط، انطلـــق الجيش المتمثل في الخيالة و المدفعية بالزحف على مستغانم في الوقت ذاته تحركت القوة البحريـــة بحرا، و تمت السيطرة على المدينة . هذه الحركة السريعة أربكت الأسبان في وهـــران ومكنـــت

السلطان عبد الله من الخروج من المدينة و الإلتحاق بالجيش الجزائري،الذي كان قـــد بـــدأ في حصار قلعة بني راشد ، و تمت له السيطرة عليها دون مقاومة تذكر ،ووضعت حاميـــة بهـــا ،و انطلق الجيش من جديد بعد استراحة قصيرة باتجاه تلمسان رفقة السلطان عبـــد الله وبلغهـــا خلال يومين فقط ، وحاول السلطان المسعود وقف زحف الجيش الجزائري غير أن عدم توازن القوى دفعته إلى الانسحاب ثم الاعتصام بأسوارالمدينة فأقام الجيش الجزائري معـــسكره قبا لـــة تلمسان، و ظل محاصرا للمدينة مدة20 يوما دون نتيجة تذكر ، فاضطر خير الدين إلى اعتمـــاد خطة تمكنه من إجبار المدافعين على الخروج من المدينة ، فقام بمناورة في شكل انسحاب ،فأعتقد المدافعون عن المدينة أن الجيش الجزائري قد مل من الحصار وفضل التراجع فأقدموا على فـــتح الأبواب وملاحقة الجيش المنسحب فكانت فرصة للجيش الجزائري للقضاء عليهم ،و أســـتعاد مولاي عبد الله العرش ، لكنه وكعادة سلاطين تلمسان سرعان ما نقض العهد فتراجع عن صك العملة و الدعوة للخليفة في المساجد ، أما الحامية الجزائرية فقد عزلها عـــن النـــشاط بعـــد أن خصص لها أموالا مسبقة.[1]

4-بداية التمرد ضد خير الدين:

ظل الاستقرار بعيدا عن البلاد الجزائرية فرغم الانتصارات التي حققها خير الـــدين علـــى الجبهة الغربية و خاصة بتلمسان ,فان الجبهة الشرقية كانت الأوضاع بها تنذر بكارثة للدولـــة الجزائرية فقد سعى سلطان تونس إلى استمالة بن القاضي ،[2] ولجأ هذا الأخـــير إلى الجبـــال

---

(1) بن ابي زيان بن اشنهو : المرجع السابق ، ص14.

(2) كان أحمد القاضي قد وضع خير الدين ثقته في شخصه نظرا لتاريخه السياسي، فقد كان قاضيا على بجاية عند الحفـــصيين ثم واليا بعنابة وساعد هناك عروج عند حصاره لبجاية ثم لميناء عنابة ثم انتقل إلى بلاد القبائل حيث أسس إمارة سنة 1511 وجعل مقره بقرية الأربعاء نايـ ت ايراثن.كان مصاحبا لعروج في حصار بجاية وفي حـ روبه وحصاره لتلمسان ســـنة 1518 ومرافقا لعروج أثناء استشهاده، وقد وضع نفسه تحت إمرة خير الدين الذي ولاه الشرق الجزائري الأمـــر الـــذي أثـــار حفيظة عبد العزيز سلطان بني عباس الذي سارع بإبلاغ السلطان الحفصي بتونس . هذا الأخير الذي ظل يحرض ابـــن القاضي على الثورة، وهو ما حصل فعلا، فأعلن ابن القاضي البيعة للسلطان الحفصي الذي جعله أميرا على الجزائـ ـر وحاول خير الدين إخماد هذه الثورة لكنه فشل رغم استعانته بحسن قاره الذي فضل الالتحاق بابن القاضي انتقاما من خير الدين لسنوات حبسه، فاتفق المتمردان على مواصلة الحرب وتمكن من دخول الجزائر واحتلالها بعد أن رحل خير الدين ولجأ الى جيجل عام 1521ودام حكم ابن القاضي ست سنوات إلى سنة 1527م تاريخ مقتله وخلفه أخوه الحسن الـــذي كـــان مواليا لخير الدين الذي تزوج حسن بن خير الدين بإحدى بناته، رغم موقفه غير المشرف من هجـــوم أســـطول شـــارل الخامس على الجزائر، حيث حاول مهاجمة حسن أغا من الخلف لكنه فشل .

والتفت حوله قبائل آيت يحي , آيت بوشايب و آيت فرلوسن وقام بتحصين مملكة كوكو[1]،وكانت مجهزة بجيش قوامه خمسة الآف (5000) رجل و ألف وخمسمئة (1500) فارس وفي هذه الإقطاعية بدا في الاتصال مع الأسبان [2]،كما استطاع استمالة قاره حسن الذي أصبح يحلم لنفسه بالسلطة بعد أن كان العامل المساعد في انتصارات الأخوة أبناء يعقوب في المغرب الاسلامي[3]،كما تمكن من إقناعه بضرورة العمل معه من أجل استعادة الأراضي التي فقدها في إقليم الجزائر فتحالف معه ضد خير الدين[4] الذي اكتشف هذه الخيانة الهادفة إلى الإطاحة به، والمتزامنة مع مؤامرة وجدت الكثير من الأنصار يخطط لها في العاصمة ، فقرر الإسراع في إجهاض المشروع وتم إعدام (20) متآمرا بعد محاكمتهم أمام المجلس الحربي .

سارع إلى إرسال قوات برية للدفاع عن الأراضي الجزائرية و بعد معارك ومناوشات أقدم الجيش الجزائري على التوغل في الجبال فليسه أم الليل كان هذا التوغل خطأ حاسما فقد مكن قوات بن القاضي من الإحاطة به و إبادته ،و لم يتمكن إلا القليل منهم الخروج من الكمين.هذه الكارثة التي حلت بالجيش الجزائري فتحت المجال لبداية التمرد في بلاد القبائل ، وشجعت بن القاضي على مواصلة مسيرته اتجاه الجزائر ومحاصرتها ،و أمام المقاومة التي وجدها من المدينة و حلول فصل الشتاء أضطر إلى التخلي عن مشروعه و التوقيع على معاهدة السلام ، و مع قدوم فصل الربيع نقض بن القاضي المعاهدة إلا أنه هزم من قبل الجيش الجزائري الذي تمكن من تفرقة المتمردين مرة أخرى [5]، ومع شعور خير الدين باستمرار الخطر، فكر في اللجوء إلى حليفه سلطان تلمسان الذي كان ولاؤه يتأرجح نتيجة ما كان يواجهه من خطر تجمع القبائل العربية و البربرية في الصحراء تحت قيادة أخيه مسعود ،إلى جانب قلة جيشه مما منعه من

---

[1]قرية ريفية يسكنها 1600 نسمة والتي تجثم على الصخور الوعرة.

[2]Robin (N) :" Note sur l'organisation militaire et Administration des Turcs dans la Grande Kabylie" R.A N°17 -1873, pp. 132-196.

[3]قام خير الدين بتكليف قارة حسن رفقة جيش لمحاربة ابن القاضي و كان قارة حسن من ضابط الجيش الجزائري ، هذا المتمرد الذي انهزم في كل محاولاته و تمكن قارة حسن من استعادة القل و احكم سيطرته على كل القبائل القاطنة هناك , ثم عرج على مدينة قسنطينة و فرض عليها طاعة الحكومة الجزائر له لكن هذه النجاحات سرعان ما عادت سلبا على خير الدين إذ استطاع أبن القاضي إقناع قارة حسن بالانفصال و خيانة خير الدين و الاستقلال بالأراضي التي سيطر عليها و وعده بالمساعدة من القبائل القاطنة بجبال جرجرة.

[4] بن علي شغيب: المرجع السابق ، ص 109.

[5]Nil Robin (Joseph) : la Grande Kabylie sous le régime Turc, Bouchéne, Biblio Histoire du Maghreb, Saint Denis, 1998,p-p300-380.

تقديم الدعم له ،بالإضافة إلى ما لمسه من بعض الشخصيات القبلية الجزائرية رغبـــة في الإقـــدام على إثارة الفتن وحتى الاتصال بالأسبان.

قرر خير الدين الرحيل عن العاصمة على متن (03) سفن،والاستقرار في جيجل ثم انتقـــل إلى جزيرة جربه وأخذ يغزو المدن المسيحية وحاصر عنابة و لم يفلح في فتحها وتمكن من اســـتعاد نشاطه و قدرته على العمل من جديد بحرية أكثر ،وإعادة بناء قواته فانشأ دار لبنـــاء الـــسفن وصنع سفينة من نوع باشا رده[1] وزاد من عدد سفن أسطوله وشكل جيـــشا مـــن الجنـــود المتطوعين، فشعر السلطان الحفصيبصفة بحرية تدور حول رأسه ، خاصة بـ عد تآمره على خير الدين فلجأ إلى إرسال الهدايا والوسطاء لإجراء المصالحة لكن خير الدين رفض وصـــمم علـــى مهاجمته ، وبمجرد أن سمحت له الظروف سير قواته و استولى على مدينة القـــل عـــام 1521م ووضع بها حامية من (200) جندي وعلى عنابة عام 1522م التي ترك بها حامية أيضا مـــن (1500) جنديثم على مدينة قسنطينة .وترك بها حامية من (600)جندي وحث قادة الحاميات على تحسين علاقاتهم مع السكان وبعد أن جمع القوة العسكرية اللازمة خلال سنوات 1521-1527م[2] أبحر إلى الجزائر بجيش وأسطول نظاميين تحت قيادة درغوث (Dragut) وسنان باشا فحاصر الجزائر وضيق على ابن القاضي فأخرجه منها فلجأ إلى ثنية بـــني عائـــشة بـــبلاد القبائل وهناك قتله إخوته لإنهاء الفتنة.[3]

5- انضمام الجزائر للخلافة العثمانية:

يعود الوجود العثماني بحوض البحر المتوسط إلى سنة 1493والمتزامن مع سقوط غرناطة, فقلقامت الدولة العثمانية بتشجيع حركة الجهاد البحري ، وساعدت أصحابها على بناء السفن وكان أول اتصال حدث عام 1491م حينما حاول القائد العثماني احمد بـــن الحـــاج محمـــد الكرماني ، إقامة علاقات مع أهلالمدن الساحلية سيما رجال الدين لمحاربة العـــدو المـــشترك [4]

---

[1]وهي نوع من السفن القارغة : ولكنه أكثر قوة وتسليحا تحتوي على 23 إلى 26 مقعدا مزدوجة التجديف يعمل على المجداف الواحد5-7 أشخاص

[2] العنتري (محمد الصالح) :تاريخ قسنطينة ، مراجعة وتقديم بوعزيز (يحي) ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1991 ،ص.ص26-27.

[3] ابن ابي زيان بن اشنهو : المرجع السابق ،ص-ص 147-151.

[4] سعدالله (أبو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10الى 14 هـــ / القرن 16/20 م، الجزء 1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1985، ص 131-135.

وإعادة رسم خريطة المغرب الإسلامي الجديد فكان الجهاد البحري هو الباعث على وجـــودهم على شواطئ الشمال الإفريقي ،وباسم العقيدة الإسلامية والولاء بالسلطان دخـــل الجزائريـــون أيضا في الرابطة العثمانية فعملية الالتحاق هذه قد تمت في النطـــاق الإســـلامي وفي ســـياق العمليات التي كانت تجري في البحر المتوسط لان المغ رب سيقوم بدور في ذلك النـــضال بـــين الإمبراطورية الاسبانية والخلافة الإسلامية فأصبحوا في نظر سكان الجزائر يمثلون القوة الحقيقية التي تدافع عن الإسلام ومنه جاءت عملية الاستغاثة لتصبح الجزائر بعدها قاعدة هذا النـــضال خاصة في معركة 1541مالتي حققت انتصار ا عاما للجميع فحتى اليهود الـــذين شـــاركوا في المعركة وجدت في بيعتهم في منطقة باب عزون وفي كتبهم المقدسة أدعية وصـــلوات تخليـــدا لذكرى المعركة.[1]

لقد اتسم الوضع المواكب لظهور العثمانيين في غرب المتوسط في بداية القـــرن الخـــامس عشر بفشل بنو عبد ألوافي محاولتهم خلق دولة ت شمل جميع أطراف الجزائر،وتـــضاءل أهميـــة الحكام في ظل سعي كل من تونس والمغرب إلى اقتطاع أجزاء من المغرب الأوسط غربا وشرقا وهذا الوضع لا يساعد على قيام دولة ثابتة المعالم في المغرب الأوسط إلى جانب استمرار التهديد البرتغالي الاسباني فالأول اتجه نحو المغرب في حين ركز الثاني على الجزائـــر بهـــدف اســـتغلال الثروات وأصبح التهديد يطال العالم الإسلامي كله وهذا ما يفسر تدخل العثمانيين بقوة للدفاع عن الإسلام في أوروباوشرق المتوسط وغربه [2] فكان تدخل العثمانيين سببا أساسيا في فـــشل المشروع الاسباني إقامت الجزائر بمبادرة غيرت مجر ى التاريخ الإفريقي ،اذ تمكن خير الدين من أن يجعل للجزائر مكانة لدى الدول العظمى واستطاع بناء دولة إسلامية عتيدة وفي إطار العلاقة الإسلامية على أنقاض إمارة ضعيفة.[3]

في الخارج كانت أخطار إسبانيا بادية تهدد بابتلاع شمال إفريقيا كله بسبب تمركـــزهم في عدة نقاط من الساحل أمثال وهران و بجاية، وبتدخلهم المستمر في شـــؤون الإمـــارة الزيانيـــة بتلمسان والحملات الاسبانية المستمرة .ونبعت من هذه الأعمال، إستراتجية خير الدين المتمتـــع بالقدرة على مواجهة المخاطر بحزم قد اتخذ قرار ا أوليا : بربط مصير الجزائر بالدولة العثمانيـــة

---

[1] قداش (محفوظ): "الجزائر في العهد التركي"، مجلة الأصالة ،العدد 52، الجزائر ، 1977،ص- ص 6-14.

[2] جلال: تاريخ إفريقيا الحديث... ،المرجع السابق ،ص 95.

[3] جوليان :المرجع السابق ، ص-ص 325-328.

لأنه لا يستطيع أن يواجه هذا العدد الكبير من الخصوم إلا بمساندة الباب العالي، وتحقيق أهدافه الواسعة، [1] وكان الخليفة يدرك أهمية هذه الدولة الجزائرية بالنسبة للجهاد القائم فيها ضد الاستعمار الصليبي الاسباني [2] ،وبعد أن أتم ربط الجزائر بالخلافة قام في تدعيم سلطة المدينة والاستقرار فيها, فتقرب من رجال الدين ونظم دفاعات المدينة بتدعيم الحصون القديمة وبناء حصون جديدة وقام بتجنيد الجيش وتنظيم القبائل الخاضعة للسلطة كما سعى إلى تدعيم ترسانة أسلحته[3] وسعى إلى فرض نفوذ السلطة على بقية المدن الجزائرية بإرسال حاميات و تنصيب ولاة من الشخصيات القبلية المعروفة والموالية له.[4]

6-التصدي للحملات الصليبية الاسبانية:

جهز الإمبراطور الإسباني شارل الخامس حملة عنيفة ضد الجزائر مشتملة على أربعين (40) قطعة بحرية وفيها من الجند (5) آلاف مقاتل برأسها والى صقلية هوكود ومنكاد وغونزاليس فومار دي ريبيرا وذلك عام 1519م وأخذوا في ضرب المدينة بالمدافع ووضع خير الدين خطة[5] تتمثل في مواجهة القوات الاسبانية خلال يومين وعدم ترك الوقت لراحتهم ، ثم تكليف فرقة من (500) جندي لمهاجمة الأرزاق الاسبانية[6] ،وقد أفلح خير الدين في إخراجهم من خنادقهم بهجومه على سفنهم المصفوفة على الشاطئ وهناك اشتبكت قوات الفريقين مدة يومين كاملين خسر خلالها الأسبان ثمانية آلاف مقاتل أكثرهم ضباط ومن بينهم رئيس الحملة ومات عدد كبير منهم غرقا ونجا منهم آخرون.

---

[1] ابن ابي الضياف:المرجع السابق ، ص 13.

[2] بن علي بن شغيب : المرجع السابق ، ص.ص 100-101.

[3] Watbled : Op-Cit ,p 359 .

[4] Haedo : Op-Cit, pp118-120.

[5] بن علي بن شغيب: المرجع السابق ، ص 112

[6] قرر خير الدين تكوين قوة من خمسمائة جندي واجبها الإغارة على المعسكر الاسباني المجاور لوادي الحراش والذي لم يترك الاسبانيين لحراسته إلا قوات قليلة ومن ثم الإغارة على السفن ،وتوجهت هذه القوة -المنتقاة من خيرة الجيش - فأبادت حرس المعسكر وأشعلت النار في القوارب التي تصل الأسطول بالبر ،وأخذت هذه القوة بتهديد السفن الراسية في عرض البحر وكان القائد الاسباني يتابع تطور هذه العملية التي تهدد خط المواصلات للقوات الاسبانية .ونجحت العملية الخداعية التي خطط لها خير الدين ،إذ توجهت قوة كبيرة من الاسبانيين نحو البحر في محاولة لإنقاذ القوارب والسفن وانقسمت القوة الا سبانية بذلك إلى قسمين . فاستغلتها المقاومة الجزائرية في شن الهجوم النهائي وظهر نتيجة لذلك الاضطراب على القوات المعادية ،أن فقدت قيادتها السيطرة وباتت وعاجزة عن إدارة المعركة .

بعد هذا الانتصار تحول خير الدين إلى تنس فأرسل قوة لاستعادتها فطلب حاكمها النجدة من الأسبان فاضطر خير الدين إلى قيادة القوة البحرية بنفسه وتمكن من فتحها واسر السفن الاسبانية الخمس التي جاءت لنجدة المدينة وبعد عودته إلى الجزائر بلغه علم بوصول الأسطول الاسباني بقيادة فرديناند قوامه (110) قطع بحرية[1] وعلى الفور قام بهجوم معاكس على مدينة تنس بحرا من خلف الأسطول الاسباني فاحدث اضطرابا في قيادته ، وتدافعت السفن واصطدمت بعضها ببعض فغرق اغلبها ومن بين السفن الغارقة سفينة القائد الاسباني الذي وقع في الأسر بعد أن التقطه الأهالي وأسر الجنود الجزائريون ستة وثلاثين قبطانا وثلاثمائة جندي و بحارا ،الأمر الذي أرغم اسبانيا إلى محاولة التدخل لإطلاق سراح الأسرى بدفع فدية مقدارها 100الف ليرة لكن علماء المسلمين والأعيان اعترضوا على الفدية بحجة أن هؤلاء البحارة خبراء في العمل البحري وفي المستقبل قد يلحقون ضررا بالديار الإسلامية ولما علم الأسرى رفض خير الدين إطلاق سراحهم حاولوا التمرد وأعلنوا العصيان وبدأوا يخططون للفرار فأمر خير الدين بإعدام 300 منهم ومن بينهم الأمير فرديناند ،وعرضت اسبانيا من جديد دفع الفدية مقدارها ثمانية الاف (8000) مقابل الحصول على جثة القائد لكن العلماء ورجال الدين تدخلوا بذلك رافضين تسليم الجثة لان الشريعة الإسلامية لا تجيز بيع جثث الموتى.[2]

IIIV- بداية تحرير الثغور الإسلامية:

بعد الانتهاء من مشاكل التمرد، والفتن واستعادة خير الدين لسلطته على المدن المتمردة متيجة وتنس و شرشال ،التي انفصلت عن الدولة أثناء فترة غيابه عن الجزائر بين 1521-1527 م، كما تمكن من استمالة بعض القبائل في الغرب الجزائري كقبيلة بني هاشم لتقف في وجه قبيلة بني عامر المتحالفة مع الأسبان[3].

التفت بعدها إلى إنهاء بعض التمردات التي مازالت قائمة فقضى عامين كاملين في ملاحقة المتمردين 1526-1528م وألقى القبض على حكام تنس و شرشال الفارين وفرض سيطرته على الساحل الممتد من جيجل إلى وهران وفي سنة 1528م تمردت قسنطينة على

---

[1] Alarcia (Tellez Diego) :El papel de norte de África en la politica exterior luspãna (ssXV-XVI),Tiempos Modernos,2000,pp.2-13.

[2] ألتر : المرجع السابق ،ص-ص42-83.

[3] Lespinasse(L) ." Notice sur les Hachems de Mascara" R.A N° 21 1877_;pp 142-145.

الحاكم الذي عينه خير الدين فجهز حملة ،وجهت ضربة قاسية إلى المدينة والقبائل المتمردة المجاورة لها،ثم استكمل التنظيم الإداري للجزائر شرع في الإعداد لوضع مؤسسة بحرية و تمكن من غزو جزر البليار ، وإثرها قرر الانتهاء من المشكل الذي يهدد استقلال الجزائر و هو حصن البنيون الذي يراقب مدخل ميناء الجزائر ، و يجبر القوة البحرية الإسلامية على الرسو في شواطئ باب عزون معرضة للأخطار الطبيعية والحربية.

1- استرجاع قلعة البنيون:

تعاقب على حكم الحصن منذ إنشائه العديد من الحكام أولهم بيدرو دو ميناس(Pedrro de Meines) وأخرهم حاكم القلعة مارتان دوفارغاس (Martin de Fergas) في عهد شارل الخامس حيث كان يتواجد في هذا الحصن حامية من قرابة مئة وخمسين (150) جندي اغلبهم كانوا بعائلاتهم بالإضافة إلى العبيد والخدم ، وكانت ظروف الحياة في هذا الموقع غير مستقرة منذ بنائه،خاصة حين قام عروج بتعميق المأساة بفرض حصار على الموقع ومنع تزويده بالماء والمؤونة ،فلجأت الحامية إلى إحضار كل شيء من وهران أو من جزر البليار الاسبانية . وبعد تولي خير الدين الحكم فرض عليهم إجراءات للحد من نزولهم إلى المدينة بالاتفاق بينه وحاكم القلعة ضمن حدود جغرافية ضيقة المسموح بها ،و تهديدهم بالقتل في حالة مخالفة الأمر، واعتبر هذا الإجراء دفاعا شرعيا عن المدينة تمهيدا لإزالة الحصن نهائيا.

إذا كان وجود الحامية الاسبانية في جزيرة الصخرة -صخرة الجزائر- أمر يتناقض مع ما تتطلبه مدينة الجزائر من الآمن [1] ،وكضرورة إستراتجية وسياسية لبناء دولة ذات سيادة ، فقد قرر خير الدين بعد أن تم له تنظيم الأمور، العمل على تحريرها .فوضع مخططا استراتيجيا يتمثل في خطوات أساسية أولا: تنفيذ مخطط شقيقه عروج بقطع الماء عن القلعة فاضطر سكانها إلى خلط ماء البحر بالخمر ليتمكنوا من شربه[2] ،ثانيا : البدء في تنفيذ مخطط الهجوم ألاستعلاماتي بان أرسل شخصين تظاهرا بالدخول في الدين المسيحي، إلىالقلعة حيث استقبلهم سكان القلعة

---

(1) التر: المرجع السابق، ص. ص85-86.

(2) شوفالييه(كورين): الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر1510-1541، ترجمة حمادنة(جمال)، د.م.ج، 1991 ،ص .30.

إلا أنهم سرعان ما اكتشف أمرهم فشنقا حيث رآهما سكان المدينة[1]، وهذا المشهد جعل خـــير الدين يسرع في اتخاذ إجراءاتعسكرية ضد القلعة ، وقبل الهجوم أرسل مفاوضــــا إلى القلعـــة يدعوهم للاستسلام مقابل الحفاظ على حياتهم ، غير أن حاكم القلعة رفض العرض وحين تأكد من إصرارقائد الحامية عل ى رفض الاستسلام قرر اللجوء إلى القوة العسكرية كحـــل ثالـــث .بمخطط يبدأ بقصف مدفعي مركز وكثيف من مواقعها المشيدة على مسافة مائتي متر فقط مـــن جدران المعقل الإسباني ثم الإنزال البحري، وفي صبيحة يوم الخميس 6 ماي 1529م، والـــذي تزامن مع حلول أول يوم من شهر رمضان المعظم فتحت بطاريات المدفعية الجزائرية المتمركـــزة نيرانها بكثافة عالية، واستمـ ر القصف طوال يوم الخميس وليل الجمعة بكامله حتى الفجــر، ولم تتمكن الرميات الأولى من التأثير كثيرا على تحصينات المعقل وأسواره الصلبة،إذ بذل الإسبانيون جهدا كبيرا لتحصينه ،وزيادة قوته،وأقامو ا فيه مستودعات ضخمة من الأسلحة والعتاد والمـــواد التموينية حتى تتمكن حاميته من الدفاع ومقاومة أي حصار لمدة طويلة،فركز قصفه من جديـــد على الأسوار الخارجية مدة 15 يوما بكاملها ،وفي نفس الوقت أمر خير الدين بتجهيـــز كـــل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد،وأذاع من خـ ـلال جواسيسه [2]في كل مكـــان ، أنـــه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو .وخرجت السفن فعلا من وراء صخور الجزائـــر، وأخذت طريقها نحو الشمال،ثم عادت أدراجها تحت جنح الظلام،واختبأت في مرفأ تامنفوست المقابل للجزائر على الطرف الآخر من الخليج . ثم صمتت المدفعية، وظن أفراد الحامية الإســـبانية أن العملية قد انتهت ،وأنه باستطاعتهم أخذ قسط من الراحة ،وفي تلك الآونة بالـــذات كـــان الأسطول الجزائري يخترق الخليج من ناحية تامنفوست تتقدمه تلك السفينة الضخمة التي كـــان خير الدين قد غنمها من البنادقة وشحنها بالسلاح والرجال،وأحاطت السفن بـــالجزيرة مـــن الشرق والغرب،وعندها تنبه حراس القلعة لحركة القوات الإسلامية و حاولوا استنفاقـــواتهم ، غير أن الوقت كان قد فات وتأخر الإنذار ،إذ ما لبث الجيش الجزائري أن قام بالإنزال فـــوق

---

[1] كان هدف خير الدين من وراء إرسال العميلين هو الاطلاع على الحالة النفسية لجند القلعة ووسائل الدفاع و التحصينات إذ استغل هاذين العميلين حضور جميع عناصر الحامية القداس بكنيسة القلعة فصعدا إلى احد الأبراج وقاما بإرسال إشارات غير أن أمرهما اكتشف من قبل خادمة فشنقا وعلقا على شرفة القلعة المقابلة للمدينة،انظر:

[2]ساهم احد الأسبان كجاسوس انظم إلى خير الدين في الكشف عن نقاط الضعف في القلعة والمعاناة التي كان يعشها الجنود الأسبان الذين اضطروا إلى إنفاق أحصنتهم وشرب مال البحر بعد الحصار الذي فرضه خير الدين.

أرض المعقل،وهاجموا الحصن بإغارة مباغتة وتمكنوا من اقتحامـــه [1].دارت معركـــة قـــصيرة وحاسمة،سقط فيها 65 مقاتلا من الاسبانيين وخـــسرت قـــوات المـــسلمين 46جنديا،وأســـر المسلمون من الإسبانيين 90جنديا و 25 من النساء والأطفال ،وكان قائـــد معقـــل الـــصخرة مارتينو دي فارقاس [2]من بين الأسرى، كما تم استخراج الأموال التي حاول قائد الحامية التستر عليها وقدرت بألفي دوقة [3] وكان لهذا التحرير وقع كبير على أوروبا ، بتأثيره النفسي والمادي خاصة على حاكم وهران الذي وبخ على هذا الفشل . وما كادت هذه العملية تتم حتى ظهرت في الأفق سفينة إسبانية ضخمة تحمل على ظهرها قوة تتكون من 700 محارب عـــلاوة علـــى الأسلحة والإمدادات المختلفة، وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تتابع تحرك هذه السفينة ، وهـــي تقترب من معقل الصخرة، و لم تلبث سفن البحرية الجزائرية أن انقضت عليها وأسرتها، واقتادتها إلى ميناء الجزائر[4].

بعد هذا الانجاز العظيم كلف خير الدين الأسرى بإعادة بناء منارة مسجد خير الـــدين [5] ،الذي كان قد بدأ في بنائه في العاصمة ورفع مئذنته وبناء الميناء .[6] ثم قـــسم الأســـرى إلى قسمين ،تم تكليف القسم الأول بتدمير التحصينات التي أقامها الاسبانيون في جزيرة الـــصخرة فيما تم تكليف القسم الثاني ببناء المسجد وانتقل بعد إزاحة هذا الكابوس الجاثم علـــى صـــدر الجزائر إلى تحصين الجزائر،فأمر جماعة الأسرى بنقل الصخور والحجارة التي تراكمت من أنقاض معقل الصخرة، لوصل البر بالجزيرة تحت إشراف معلمي البناء الجزائريين ، كما أرسل السفن إلى الجهة المقابلة نحو الخليج عند مرفأ تامنفوست لجلب صخور رومانية قديمة لإكمال العمل،وبذلك أمكن بناء الجسر العريض الذي لا يزال يحمل حتى اليوم اسم جسر خير الدين ،الذي أوصل بين الجزر الأربع[7] بعضها ببعض ببناء دائري متين،ليست فيه إلا فتحة واحدة وهكـــذا تم إنـــشاء

---

[1] المدني :حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق ،ص.ص 215-216.

[2]ينتمي إلى عائلة من الفرسان حيث كان أبوه Diego de Vergas من الرجال الذين حاربوا المسلمين في الأندلس وقد رغبه خير الدين الدخول في الإسلام لكنه رفض فأعدمه.

[3] Primaudie : Op-Cit , p160-166.

[4] Sander et Denis : Tome I, Op-Cit ,pp115-122 et Tome II,p106.

[5]وهو نفس المسجد الذي دمرته الحملة الاسبانية

[6] Devoulx : Op-Cit, pp 350-355.

[7] في الأصل هي 20جزيرة

مرسى حصين[1] للمدينة العتيق[2] الذي يعرف اليوم باسم الجفنة[3]،ليصبح مقـــرا للأســـطول الجزائري يحميه من العواصف التي تحملها رياح الغرب ،كما تم تسليحه بوضع في الــــبرج فنـــارا يرشد السفن وبطارية مدفعية بعدد من الحراس وأقام قرب البرج ثكنة عسكرية.[4]

ثم بدأ في العمل لإنقاذ أهل الأندلس ،وكلف الريس إيدن وصالح بالإبحـــار إلى ســـواحل اسبانيا لتقصي أخبار المسلمين فوجدوا ما يقارب من مائتي عائلة بأموالهم فأنقذوها ثم انطلق في محاولة توحيد المنطقة بإقامة تحالف مع بقية الإمارات يهدف من ورائه تشتيت القوة الاسبانية ، فاتصل بسلطان فاس يطلب منه دعم جهوده في تحرير الثغور الإسلامية على المحيط الأطلـــسي كما أرسل إلى تونس وتلمسان رسلا تحرضهم على نقض التحالفات ، و الثورة ضد اسبانيا ،غير أن الأسبان كانوا أسرع منه من جهة وعدم تقبل هؤلاء السلاطين لفكرة الثورة علـــى ملــك اسبانيا ،حامي سلطتهم من جهة أخرى، إذ تمكن الأسبان من إزاحة سلطان تلمسان عبـــد الله حليف خير الدين وفرضت ملكا ضعيفا طيعا له ا اثر ثورة داخلية قامت بها القبائــل ، غـــير أن نفس القبائل رفضت حكمه وأرغمته على الفرار إلى وهران وأعيد الملك عبدا لله إلى السلطة[5]، لكنه في نفس السنة تنكر للمعاهدة المعقودة مع حاكم الجزائر ودخــل في مفاوضـــات مـــع الأسبان على أمل الاعتراف به ملكا مقابل التناز ل عن جميع المدن الساحلية غير أن الأســـبان

---

(1) وبذلك كان مولد ميناء الجزائر الذي رغم أبعاده المحدودة،واصبح مصدر رعب للبلدان العدوة خلال لثلاثة قرون ،ففيما يعرف الآن بمرفأ الإمارة البحرية ،كان يستقر أسطول الجزائر الذي كان يضم إذ ذاك حوالي سبعين باخرة، بأسمـــاء مثـــل المرعب والوردة الذهبية ومفتا ح العالم وصقر البحار،وقد تم تحسين الجهاز الدفاعي ببناء سور يمتـــد علـــى مـــسافة ثلاثـــة كيلومترات ،به عدة أبراج للحراسة ،واستمر بناء سور المحيط بالمدينة حوالي 85سنة .كما تم بناء المنازل العديدة =وكـــان الدخول إلى المدينة يتم عن طريق خمسة أبواب رئيسية، با ب ألواد شمالا، وهو يربط المدينة بالخارج وبالمقبرة، وباب عـــزون جنوبا، وهو يحظى بتردد أكثر لأنه يطل على متيجة ويسهل النشاطات التجارية، وباب البحرية أو بـــاب الجزيـــرة الـــذي يشرف على الميناء، أم ا باب الترسانة أو باب الصيادين،فإنه يؤدي إلى دار الصناعة حيث تبنى السفن الـــشراعية الـــصغيرة ،وأخيرا باب جديد الذي ينفتح على قلعة القصبة ،وهي القلعة الضخمة والواقعة في قمة المدينة ،وكانت هناك أبراج أخرى تكمل الجهاز الدفاعي على البحر مثل برج الفنار-أو برج المنارة الذي شيده خير الدين" .

(2) كوران(ارجمنود): السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، ط2، ترجمة ،التميمي(عبد الجليل) تونس،1974 ، ص 12.

(3) المدني: حرب الثلاثمائة سنة .... ،المرجع السابق ، ص 218.

(4) ألتر : المرجع السابق ، ص 85.

(5)Primaudaie : Docum…., op-cit ,p p 173-190 et pp ,237-275.

رفضوا مطالبه[1] واقترحوا معاهدة تكفل لهم السيطرة الكاملة على تلمسان ومحيطها **(انظر الملحق رقم7).**

2-محاولة شارل الانتقامية:

نتيجة لهذه الانتصارات قرر الملك شارل الخامس القيام بعمل عسكري انتقاما لهزيمة حصن بنيون، فكلف أميرال البحر قارسيا بورتندو(Garcia Portondo) بالمهمة، والذي انطلق بقوة 12 سفينة حربية ضخمة لمطاردة أسطول خير الدين إلى أن وجده بالقرب من جزر البليار. وظن الأميرال الإسباني أن الموقف لمصلحته ،فهاجم الأسطول الجزائري بقوة وعنف ، ،غير أن الأسطول الإسلامي تلقى ا لصدمة ،ووجه خير الدين على الفور هجوما مضادا قاده بنفسه ركزه على سفينة القيادة الإسبانية ، ودارت معركة عنيفة قتل خلالها قائد الأسطول الإسباني وقسم كبير من أفراد سفينته ، وحوصرت بقية سفن الأسطول ، فتم أسر بعض السفن الإسبانية وحرق بعضها الآخر وإغراق عدد منها ،وانتهت معركة بتدمير الأسطول الإسباني تدميرا كاملا بحيث لم تنج منه إلا سفينة واحدة استطاعت الفرار لأعلام قيادتها عن المجزرة .[2]

أثارت معركة جزر البليار مناخا من الفزع تجاوز حدود إسبانيا فبادر ملك اسبانيا إلى معالجة الموقف بحزم ،وعمل على إعادة تنظيم أسطوله وأسند قيادته إلى ضابط مغامر كان قد اكتسب شهرة واسعة من قيادته للأساطيل البحرية الأوربية خاصة أسطول جنوه وفرنسا وممارسة أعمال القرصنة ،وكان هذا الضابط هو الأميرال اندريا دوريا [3] الذي أوكلت له مهمة تدمير الأسطول الجزائري والقضاء على خير الدين عام 1530م .فحدد محطة عمله الأولى شرشال وبدأ في الإعداد للحملة استمرت سنة كاملة بمدينة جنوه في المقابل ظل خير الدين - رغم انه كان يجهل محور تحرك الأسطول المسيحي بقدر جهله لما كان يعتزم خصمه تنفيذه - في

---

[1] الاعتراف به ملكا على المناطق الداخلية، قطع الأسبان لعلاقاتهم مع ابن رضوان قائد قبيلة بني عامر، أن تكون مدة المعاهدة 10 سنوات انظر المدني : حرب الثلاثمائة سنة.... ، المرجع السابق ،ص- ص 257-259.

[2] مدني : حرب الثلاثمائة سنة... ،المرجع السابق ،ص-ص218-.220

[3] اندريا دوريا هو سليل أكبر بيوت مدينة جنوه الإيطالية وأمجدها ،وقد ورث عن أبيه و جده حب المغامرة البحرية ،و لم يكن يهمه هوية الشخص الذي يعمل تحت رايته،على شرط أن يكون مسيحيا مقاتلا،فعمل أولا تحت لواء مدينة جنوه ثم خدم ملك فرنسا -فرانسوا الأول- الذي سلمه قيادة أساطيله ،إلى أن صدرت عن الملك الفرنسي بادرة إساءته ،فأعاد إليه سنة 1529 القلادة التي سلمها له رمزا للقيادة ،ودخل في خدمة الإمبراطور شار ل الخامس الذي كان يحكم يومئذ اكبر دولة مسيحية في أوروبا وأقواها. المدني: حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق ص-ص 220-221.

انتظار ريثما يحدد المكان الذي يختاره عدوه مسرحا لعملياته فقام كإجراء تكتيكـــي باســـتنفار جميع القوى الإسلامية، وجمع أسطولا من 35 سفينة في ميناء الجزائر وأرسل إلى الريس ســـنان الموجود في جربه وكلفه بإخبار جميع رياس البحر المسلمين بنية الأسبان مهاجمة الجزائر ، ثم قرر أن يفرض على خصمه ميدان المعركة لملاقاته في جزر البليار ،وكان اندريا دوريا قـــد غـــادر المرسى الإيطالي الكبير في جويلية 1531م على رأس أسطول اسباني يـــضم عـــشرين ســـفينة ،متجها نحو الساحل الجزائري وقد حدد هدفه الأول تدمير الأسطول الإسلامي الجزائري ، ثم التوجه إلى شرشال واحتلالها لخنق الدولة الجزائرية ،ووضع المغرب العربي الإسلامي بكامله تحت الحكم الكاثوليكي الإسباني، غير أن خروج خير الدين لملاقاته بعد علمه بالعملية وتعـــارض اتجاه كل طرف حال دون تحقيق هدف الحملة الأول فاتجه إلى هدفه المباشـــر بعـــد أن تلقـــى مساعدة ملك فرنسا بعشرين مركبا [1]،وهو مدينة شرشال بحيث أنه يـــستطيع إذا مـــا تم لـــه احتلالها،الاستقرار فيها وتنظيم حامية قوية بها للدفاع عن قلعتها ،وبذلك يصبح خـــير الـــدين عاجزا عن مهاجمته أو إخراجه منها، وكانت مدينة شرشال يومئذ مركزا من أكـــبر مراكـــز الدولة الجزائرية الحديثة ،وقد عرف عروج أهمية موقعها الممتاز فعمل على تحصينها،وشيد فيهـــا قلعة قوية ،وأقام فيها مصنعا لتأمين متطلبات الجيش الجزائـــري ، وإمـــداده بالعتـــاد والمـــواد التموينية،كما أقام فيها مصنعا للأخشاب لتزويد السفن ، يعتمد علـــى غابـــات الونـــشريس والغابات الكثيفة القريبة منها،وكانت بحكم موقعها الطبيعي [2]تشكل تهديدا مباشرا للجزائـــر ، إذا ما أمكن للأسطول الإسباني احتلالها تمهيدا لعملياته التالية غربا وشـــرقا .غـــير أن المقاومـــة الشديدة للحامية القليلة العدد التي قوبل بها الأسطول الاسباني وجيشه شتت قواهم واضـــطرهم إلى انسحاب ،وتمكن الجزائريون من اسر 600 جندي اسباني من بينهم معاون اندريا دوريـــا الذي اخبر خير الدين أن الأسطول الاسباني المنسحب يتجه إلى ميناء جنوه ،فتحرك خير الدين على أمل اللحاق به ، والقبض عليه وظل 10ايام مبحرا دون نتيجـــة [3] ،لكنـــه اصـــطدم بالأسطول الفرنسي و اضطره إلى الانسحاب اثر معركة فقد فيها ثلاثة سفن بطاقمها.

---

[1] الجزائري: المرجع السابق ، ص 97.

[2] وهي لا تبعد عن مدينة الجزائر الواقعة إلى شرقها بمسافة 120 كيلومترا ،ووهران الواقعة إلى غربها.

[3]كان سبب عدم تمكن خير الدين من اللحاق بالأسطول الاسباني أن اندريا دوريا ،ونتيجة لهزيمته أمام شرشال لم يتجـــه مباشرة إلى جنوه بل فضل اللجوء إلى موانئ اسبانيا للراحة وانتظار وصول المدد من جنوه عبر سفينة الصخرة السوداء التي

3- تشييد ميناء الجزائر:

بعد أن طرد خير الدين الأسبان من القلعة ،استغل الأسرى البالغ عددهم 3000 أسـيرا لبناء رصيف بسرعة ،وبدأت عملية التحصين والتسليح استعدادا للمواجهة ،ولما كـان لمدينـة الجزائر مرفأ صغير متواضع مما يضطر السفن إلى الرسو في شواطئ باب الواد الذي تتنـاثر فيـه الصخور أو في بقية الشواطئ البعيدة عن الحراسة مما يعرض أمن أسطول الجزائر للخطر.

فقد قرر خير الدين تشييد ميناء بأنقاض قلعة صخرة البنيون بداية قام ببناء رصيف طولـه مائتي متر200وعرضه خمسة وعشرون مترا وارتفاعه أربعة أمتار يصل الصخرة التي كانت تقوم عليها القلعة بالمدينة فأصبح ا لمرفأ، ميناءا هاما بشكل نصف دائري بين المدينة وخليج ماتيفو هذا الخليج القليل العمق ثم دعمه ببناء، مكسر للأمواج[1] ملازم للرصيف طوله 200متر وعرضـه 25 مترا وعلوه مترين وربط به المدينة بالبحر بواسطة ممشى أو ممر، وقام ببناء مكسر الأمـواج اكبر في الناحية الجنوبية الشرقية فأصبح بذلك للجزائر مركز ا أكثر قدرة على مراقبة الطـرق الملاحية [2]، كما قام ببناء دار للصناعة بالمصيدة محمية بشرفات مجهزة بالمدافع والبنادق.

ورغم أن ميناء الجزائر كانت متوسط النشاط معرض لكل العواصف البحرية قبل هـذا الانجاز ,فان وضعيته الإستراتيجية التي تسمح له بمراقبة النشاط الملاحي في حوض البحر المتوسط دفعت بخير الدين إلى الاهتمام به ، وإصلاحه ليكون جاهز للعمل البحري العسكري والتجاري[3],وأصبح الميناء مهيمنا على الحركة البحرية في الجزائر ثم ادخل عليه تغييرات ليتحول فيما بعد إلى مقر للأميرالية .وقد جعل منه العثمانيون في الحين القاعدة الحصينة التي يعتصم بها أسـطولهم حين أصبح خير الدين قائدا له ، أتاح موقعه بين مضيق صقلية ومضيق جبل طارق أن يراقـب ويقطع الطرق المباشرة بين جبل طارق والبحر المتوسط الشرقي ، وبين جنوب إسبانيا وجنوب

=إغراقها خير الدين وهو العامل الذي سيدفع بالقائد الجنوي الاسباني إلى الإبحار في المتوسط بحثا عن خير الدين الذي عاد إلى الجزائر ليجد رسول الخليفة الشاوش مصطفى يحمل كتاب من الخليفة يعلمه بعقد الصلح مع فرنسا ويطلب منه عـدم التعرض للسفن الفرنسية . ألتر : المرجع السابق، ص- ص 90-98.

[1]Perrot(A.M) :Alger : Esquisse Topographique et historique du Royaume et de la ville,2eme Edt/ librairie ladvocat ,Paris, 1830 ,pp 38-39.

[2] كوران: المرجع السابق ،ص 12.

[3] جوليان: المرجع السابق، ص- ص 330-336.

إيطاليا أو صقلية كما أتاح لها إحتكارالعمل البحري في المغرب الأوسط ، وغدت مدينة الجزائر – منذ ذلك الحين – الحصن المفضل للجهاد البحري.

و بفضل الجهود التي قام بها خير الدين تحولت إلى حصن يصعب اختراقه وكشفت عـــن تصوره الإستراتيجي لمركز مدني وحربي جيد التخطيط خاصة بعد اتحادرياس البحر الجزائريين مع رياس البحر العثمانيين أصبحتالجزائر القوة الضاربة في حوض المتوسط [1]،ووضعوا هدفهم الأساسي إنقاذ المسلمين من ظلم الأسبانوالقضاء على التجارة الاسبانية في البحـــر ، وضـــرب سواحلها إلى جانب تلبية نداء الخليفة في كافة الحروب التي خاضها في حرب مالطة ، تـــونس ، لبانت وبفضل هذا الميناء أولى البحارة الجزائريون أهمية كبرى لسفنهم وعملوا باستمرار علـــى تطويرها وتنظيمها. [2]

المبحث الثالث: شخصية خير الدين السياسية والعسكرية:

كان خير الدين غليظ البنية، أشقر اللون كثيف اللحية، و يحسن عدة لغات منها اليونانيـــة والتكية، العربية ،البربرية، الإيطالية، الإسبانية، الفرنسية .إذ كان خير الدين رجل دولة كمـــا كان سياسيا ، وكان يتمتع بشخصية جذابة حاولت أن تؤسس ســـلطة إســـلامية في المغـــرب الأوسط.لكنه كان مخيفا وحاكما صارما إذ اقتضى الأمر. كما كان زعيما مسلما ورعا يرى أن إعادة فتح الأندلس هدفا هاما للإسلام خاصة عندما بدأت قوانين شارل الخامس ضد المسلمين تطبق، وحاول خير الدين مساعدة المسلمين على الخروج من اسبانيا.هذه التجربة أقنعتـــه بـــأن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق إلا بقيام دولة إسلامية واحدة في شمال أفريقيا يمكنها إعداد القوة الكافية لاستعادة الأندلس فقضى ثلاثة أشهر ينقل المهاجرين الأندلسيين ويخطـــط لهـــذا الهدف. [3]

---

(1) سبنسر: المرجع السابق ،ص 42.

(2) بن أبي زيان بن اشنهو:المرجع السابق ، ص-ص 148-150.

(3) الجزائري: المرجع السابق، ص 93.

ويذكرساندوفال في محل تعليقه على شخصيته [1]:" لقد كان هناك قلة من الرجال لهم القدرة على تقدير الأشياء بحكمة وتبصر ، هذه الشخصية وجدت لتقود وكأن الطبيعة أرادت أن يكون هذا الشخص قائدا لعدة قرون .خير الدين الشجاع الذي يتمتع بروح عالية التي لا تتأثر في اعقد الأزمات. كانت سمعته الشهيرة قد بلغت كل ربوع العالم، والتي تمكن من إيجادها، بقيادته الحكيمة وقدرته على فن الإبحار وإقدامه على المعارك .."رغم الحقد الذي يكنه اندريا دوريا لخير الدين فانه لم يمنع نفسه من الاعتراف بإمكاناته حينما علم بوفاته بقوله: هذا الفذ والعدو الدائم الذي لا يمكن تعويضه في مواجهة القوى المسيحية .." ، إن خير الدين شخص بارز ، هذا ابن الحرفي من متلين وبدون أية مساعدة إلا ساعده، وعبقريته توصل إلى بناء الجزائر رغم وجود الأسبان في أوج قوتهم والذي تمكن من الوقوف في وجههم –رغم قوتهم العسكرية – ووجود قوتين جارتين تلمسان وتونس والخيانات الداخلية والفوضى من المقربين إليه ، استطاع خلال 40سنة أن يصبح سيد البحر المتوسط . الأمر الذي دفع بسليمان إلى منحه قيادة الأسطول في الكفاح المرير الذي سيخوضه ضد الدول المسيحية .... بربروس المغامر والأسطول تمكن من نشر الرعب في كامل سواحل المتوسط في كل حياته كان شجاعا حكيما, لم يتخل عن أي مشروع ، لم يمنح العراقيل أدنى فرصة لعرقلة نجاحاته المتكررة التي كان يحققها بصلابة ..لقد تخلى عن العديد من المظاهر الزائفة ليصل إلى تحقيق نجاحات .. لقد كان سعيدا بنشاطه رغم وجوده في وسط يتشكل من المنافقين والخونة .لقد كان متعلقا بمشاريعه وليس شرسا أو متشددا على غرار رجال عصره .. ".[2]

كان خير الدين بعيد النظر هادئ الطباع غير متسرع في اتخاذ القرارات وكثيرا ما يتشاور في أمره مع العلماء فينفذ أحكامهم إذا كانوا يطبقون حدود الله ، إذ إستقل بالسلطة وأصبح لا يشاطره فيها أحد إلا مجالس العلماء والفقهاء في لجزائر و جيجل، كان كثير الصفح عكس

---

[1] يعترف ساندوفال بشخص خير الدين في وصف نادر بالرغم من تسميته له بالملعون Maudit de Dieu وفتنة جهنم Tison d'enfer يعترف:" لقد كان يتحدث بلباقة وعادة بخبث ، كبريائه يظهر جليا ، ويصبح سريع الغضب عندما يتعلق الأمر بعمله، كما يستطيع استرجاع هدوءه .. لقد كان شجاعا وحذرا في الهجوم والمعارك، إذ تجده كثير التبصر بمجريات الحرب، صلب في المعركة ، مثابر وصامد فوق كل شيء لا يظهر إطلاقا أي ضعف أو خوف .." R.A N°15,1871 p178

[2]Sandoval(D.F.P) :Histoire et la vie de l'Empereurs Charles Quints ,vol: 1, Librairie Armond Colin , Paris ,1973, p-p 188-292.

عروج،كانت آراء العلماء الذين يعتمد على أحكامهم مبنية على كتاب الله وسنة رسوله فينفذها بحذافيرها رغم اعتراضه في بعض الأحيان إذا رأى فيها بعض القسوة. [1]

قد كتب عنه المؤرخون الانجليز بأنه صاحب المسار العجيب إذ انتقل من بحار إلى أن أصبح معضلة تاريخ أوروبا الحديث،فقد مثل بشخصيته المحترفة ذات الخبرة والقيادة القادرة على العمل العسكري المحلي ، صورة الخبير العاقل الذي يتميز بالانضباط و التحضر ، فجعلت منه أميرا روحيا وعمليا وماديا للبحر المتوسط .[2] فهو السياسي الماهر والمنظم العسكري ، والقائد الذي أسس الدولة الجزائرية وأعطاها شكلها المميز . وأعطى وجودها صفة الشرعية بربطها بالخلافة الإسلامية العثمانية وعرف كيفية الاستفادة من الوضع العام والتشتت الحاصل ووجود عدو مشترك لكل الإمارات وهو الأسبان ليلمع وسط حطام الإمارات المتناثرة كان خير الدين والدنيا[3] كما كان لامعا تجاوزت سمعته الحوض المتوسط . وأطلق على الفترة التي عاشها - عصر خير الدين - في الكفاح الإسلامي الجزائري.[4]

كان يتميز بخصلتين اثنتين عزم شديد ودهاء سياسي وهو المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية [5]،حيث دفعته عبقريته إلى ربط مصيره بمصير الخلافة العثمانية [6] مهتما بالعمران فبنى المساجد خاصة مسجد جمعة الشاوش عام 1520 والذي تحمل كتابته شغفه بالعمران.[7] وعن شخصية خير الدين يقول توفيق المدني :

"شخصية لامعة غريبة فذة أما سمعته فقد تجاوزت البحر المتوسط وهيمنت على الأفكار، وطبعت عصرا كاملا بطابعها الخاص وأطلق على كفاحه –عصر خير الدين – فهي شخصية متعددة الجوانب مختلفة المظاهر فقد كان له الجرأة والاندفاع لا يبالي بالصعوبات ودقة في السياسة وتدبير للملك، عبقرية لم تتخل عن صاحبها ساعة الحرب ولا ساعة السلم ومقدرة على التنظيم وقيادة الرجال فقد تميز بالبصيرة والقدرة على العطاء إلى جانب التأثر بما يعانيه

---

(1) Prieu(Alain-Dour) :les Barberousse,corsaires et Rois d'Alger,Edition la Marines,Paris 1943 pp121-123.

(2) Ficher :Op-Cit, p p36-38.

(3) ابن ابي الضياف : المرجع السابق،ص9

(4) وولف :المرجع السابق ،ص. ص36-37.

(5) سعد احمد (راشد) : الدول المغاربية –تاريخ وحضارة –البستان للنشر والطباعة ،ط1، المنامة،1988 ، ص 21.

(6) جوليان : المرجع السابق ، ص 328.

(7) هذا المجمع المبارك الذي بناه في سبيل الله السلطان البطل خير الدين

المسلمين في الأسر.."[1] وكانت لهذه الشخصية الفذة مواقف منها ما ارتبط بعقيدته ومنها مـــا ارتبط بعلاقاته الشخصية:

موقفه من معاملة المسيحيين للأسرى المسلمين:

بعد ما علم خير الدين أن الأوربيينكانوا يعمدون إلى قط ع أنوف وآذان المسلمين الـــذين يقعون أسرى لديهم ويقتلونهم بعد تعريضهم لعذاب شديد، أرســـلخـــير الـــدين رسميـــا إلى حكومات اسبانيا وجنوه والبندقية يعلمهم فيه أنهم إذا استمروا في ممارسة الأعمال غير الإنسانية فانه سيعامل أسراهم بنفس المعاملة، مذكرا إياهم بان كافة الأسرى حتى المقاتلين الذين يقعـــون أسرى لدى الأعداء معصومون من العذاب والقتل، تظاهر الأوروبيين بقبول تهديـــده ولكنـــهم استمروا في نفس الممارسات ، فاضطر إلى المعاملة بالمثل فشعرت الدول الأوربية انـــه جـــادفي تهديداته ،واضطروا إلى الإذعان لمطالبه فأنقذ بعمله هذا الأسرى سواء المسيحيين أو المسلمين.[2]

فك اسر صديقه درغوث :

عمل خير الدين على إعتاق القائد درغوث الذي وقع في الأسر عام 1543 وبذل قصارى جهده في ذلك، حي ث تمكن من الحصول على دعم تاجر جنوي لوميلي (Lomelli) وطلـــب منه التوسط لدى يوحنا دوريا ابن آخ دوريا كما أهداه ثلاثة آلاف دوكة و وعده بان يسلم له جزيرة تابرقة على الساحل التونسي مجازاة له إن تمكن من إفتكاك اسر صديقه ،فتمكن من عتقه بعد أربع سنوات من الأسر.[3]

وفاة خير الدين:

ونتيجة لحاجة الخليفة العثماني لخير الدين استدعاه فأناب على الجزائر محمد حسن باشـــا مكانه وسار بأهله إلى دار الخلافة فعينه وزير للبحرية وذهب للغزو متخذا اســـطنبول قاعـــدة لأسطوله إلى أن وافته المنية سنة 1546ولم يترك من الولد بعده إلا ابنـــه حـــسان ذو أصـــول جزائرية، إذكانت أمه عربية من مدينة الجزائر سليلة إحدى بيوتها الكبيرة واعترافا بفضل خـــير الدين وتلبية لرغبة الجزائريين أسند الخليفة سليمان القانوني رتبة أمير البحر - باي لربـــاي - إلى ابنه الذي ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها، وتعلم على أيدي علمائها.

---

(1) المدني : حرب الثلاثمائة سنة.... ،المرجع السابق ،ص. ص 203-204.

(2) ألتر: المرجع السابق ، ص83.

(3) بن أبي زيان بن اشنهو: المرجع السابق ، ص 154.

توفي خير الدين عن عمر يناهز الثمانين ، قضي منها ثلاثون سنة على رأس الدولة الجزائرية.و بوفاته غاب نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة . أفضل ما أقامه في الدنيا هو تكوينه للدولة الجزائرية التي أخذت على عاتقها واجب الجهاد ضد كل الحملات الصليبية.[1]

المبحث الرابع: مواجهة خير الدين للمشروع الاستعماري الأسباني

ا -الأسس الإستراتجية لسياسة خير الدين في الدفاع والمواجهة:

فرضت مجموعة الأحداث التي تعرضت لها الجزائر عبر سنوات التكوين و الصراع المرير الذي قاده خير الدين مجموعة الأساليب تتمثل أساسا في مواجهة التمردات الداخلية لتمتين الجبهة الداخلية ومواجهة المحاولات المتكررة للأسبان والقوى الأوربية لإضعاف الجزائر فعمل على:

أ) تكوين تحالف مع الخلافة العثمانية هدفه تنسيق الجهد العسكري على كافة المستويات لاضطلاع بواجب الجهاد في البحر و تنسيق العمل بصورة رئيسية مع قوات الخلافة العثمانية التي تخوض صراعها المرير في البر – الأوروبي ، في الوقت الذي يقود فيه الجهاد على الجبهات الأخرى كالأندلس و السواحل الجنوبية لأوروبا وشمال أفريقيا.

ب) القضاء على التمرد وتوحيد الجبهة الداخلية بسلسلة من العلاقات وصلت حد المصاهرة.

---

[1] يذكر هايدو أن وفاته كانت في شهر ماي 1548 بعد حمى دامت 14 يوما ،في حين يرى ساندوفال في كتابه تاريخ حياة الإمبراطور شارل الخامس ص 250 : أن خير الدين أصيب بإسهال جرثومي حاد انتهى بشلل كامل واستمرت هذه الحالة مدة 3 أشهر ليتوفى عن عمر يناهز 80 سنة Histoire et la vie de l'Empereurs : Sandoval Charles Quint، أما ليون قاليبار Léon Galibar في كتابه Histoire de l'Algérie ص 187 يحدد تاريخ وفاة خير الدين عام 1545 حيث يذكر أن حياة هذه الشخصية انتهت بعد مرض دام عدة أيام وهي الوفاة التي تتزامن مع وفاة =فرنسوا الأولملك فرنسا و الملك هنرى IIIV ولوثر ، عن عمر يناهز 80سنة ، كما حدد ممثل البابا كومبراين في استانبول تاريخ وفاة خير الدين بـ 4جويلية 1546 في رسالة التعزية التي أرسلها إلى الأسرة المالكة بفرنسا اثر وفاة الملك فرنسوا الأول.

ج)-نظرا للموقع الجيو استراتيجي للجزائر، عمل خير الدين على أن تقود الجزائـــر الجهاد ضد اسبانيا بالدرجة الأولى ،و ضد كل الدول التي ترفع رايـــة الـــصليبية ضـــد الإسلام بدرجة ثانية.

عرف خير الدين انه إذ أراد مقاومة المشاريع الاستعمارية عليه فرض حصار دائم على الثغـــور المحتلة والقضاء على التهديد المباشر المتمثل في قلعة البنيون ثم العمل على خوض الصراع ضـــد الإمارات المجاورة كالحفصيين و الزيانيين، و ربطها بإستراتيجية موحدة ولقـــد أثمـــرت هـــذه السياسة على مستوى العمليات بمجموعة من المظاهر أبرزها:

1تنسيق الجهد العسكري في العمليات المشتركة ، حيث عمل الأسطول الجزائري في مناسبات كثيرة وحتى عهود بعيدة تمتد إلى أكثر من ثلاثة قرون على دعـــم الأســـطول العثمـــاني في العمليات الكبرى كما تولى قادة الجزائر في مناسبات كثيرة قيادة وزارة البحريـــة و أســـهمت السفن الجزائرية بمجموعة المعارك التي تطلبت جهدا كـــبيرا كمعركـــة بريفـــستا في خلـــيج أرتاHerta عام 1538م ومعركة لبانت 1566م وقبلها الهجوم على طولون [1]،كمـــا قـــام الأسطولالعثماني بالمقابل بدعم الجزائر في كل مـ ناسبة ظهرت فيها الحاجة لمثل هذا الدعم أثناء هجمات الاسبانيين على المدن في المـ غرب الإسلامي.وكانت الخلافة العثمانية تقـــدم للجزائـــر باستمرار العتاد الحربي و ما تحتاجه لدعم قدرتها القتالية بشريا.

2كانإذ من الصعوبة على الدولة الجزائرية خوض الصراع الشامل ضد كل القوى الصليبية في وقت واحد . لذا عمل خير الدين على توحيد الجهد وتغيير طرق القتال من أعمال المواجهـــة البحرية المستمرة المباشرة الى الانتقال بعدها إلى حرب الاستتراف ضد القواعـــد الـــتي أقامهـــا الاسبانيين خاصة في وهران و المرسى الكبير وبجاية والعمل بعد ذلك في دعم الجهد ضد قـــوات الأعداء في المغربين الأدنى و الأقصى -تونس والمغرب -.

3- وضع خير الدين مبدأ عدم التمييز بين القواعد الأجنبية المتواجدة فوق ارض إقليم الجزائر و القواعد في المغربين الأدنى و الأقصى فرض هذا بدوره العمل على تنسيق التعاون مع الأقطـــار المجاورة في منـ اسبات كثيرةضد الخطر المشترك . وعدم التمييز يستند إلى فكرة العصر –سياسة التحالفات – ضد عدو مشترك وتنسيق العمل الحربي.

---

[1]Belhamissi : Histoire de la Marine Algérienne (1515-1830), Ed/ ENAL, Alger1986 pp138-139.

4- وضع خير الدين إستراتجية الدفاع الاستراتيجي وهي طريقة عدم التوقف دائما عند حدود انتظار وقوع العدوان لإحباطه ،بل التصدي لسفن الأعداءو استنزاف قدراهم البحرية ،والإغارة على المدن الساحلية المسيحية كحرب دفاعية ،لان الحرب هي نتيجة حتمية لـــروح العـــصر المتميزة بالقرصنة المسيحية ووجد فيها المسلمون أداة دفاعية متقدمة تدعم أساليبهم في دفـــاعهم الاستراتيجي.[1]

و أدى اتساع الصراع، إلى بروز حقيقتين:

أولاهما: تكوين خبرات قتالية رائعة على كافة المستويات و **ثانيهما** الاستعداد الدائم للقتال وهذا الاستعداد الدائم للقتال والخبرة القتالية أحبط الأعمال العدوانية فوق المياه الإقليميـــة للجزائـــر بأسلوب الحركة الإستراتيجية في البحر و السرعة في حركة القوات في البر و ربط جهد الأعمال القتالية بالجهد الاقتصادي لتدعيم قدرات المسلمين في الوقت ذاته . بهدف الحصول على المزيـــد من القدرة القتالية ، فقد عمل خير الدين على جعل الجزائر تكتسب قدرتها من خلال إضـــعاف أعدائها و هذا الهدف الذي وضع آليات المعاهدات الصداقة التي تنص بوضوح على تقديم الدول التي تصالحها الجزائر سفنا حربية أو عتاد قتالي كالمدفعية و الذخائر مقابل ما تضمنه لها الجزائـــر من الحماية في البحر وتبادل السلع التجارية.[2]

5- وضوح الهدف في كل مرحلة من مراحل الصراع و اختيار طرائق العمليات المناسبة لبلوغ هذا الهدف.قد حدد خير الدين منذ البداية هدفه ببناء الجزائر القوية ، و بتحرير بلاد المسلمين في المغرب ونصرة الأندلسيين و ببناء العلاقات داخليا و إسلاميا ودوليا بما يضمن لـــه تحقيـــق طموحاته.

كانت حروب خير الدين تتراوح بين حروب الاستنزاف و الحروب التـــصادمية،والحروب الهجومية الدفاعية.إذ رفض خير الدين في مرات كثيرة عقد معاهدة صلح أو هدنة مع اســـبانيا قبل الجلاء عن وهران والمرسى الكبير وهم خلفاؤه أيضا منح فرنسا امتيازات لا تتفق مع مصلحة الجزائر كما رفضوا عقد المعاهدات مع دول مختلفة إلابالشروط المناسبة للجزائر .مـــن خلال هذا الوضوح في الهدف و التصميم على بلوغه ، تم اختيار الأساليب المناســـبة لتحقيـــق

---

[1] Belhamissi : les Navires et les Hommes. la Marine et les Marins, 1518-1830 ,Tome II,3eme Edition ,Biblio/National, Alger,2003, pp,28-39.

[2] الزبيرى (محمد العربي): مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ش .و.ن.ت ،الجزائر ،1985،ص-ص،121-135.

هذه الأهداف.لقد حددت هذه الأسس الإستراتيجية وانعكاساتها وفق خطط تـــرتبط بطبيعـــة الصراع الذي تخوضه الجزائر و الذي تشابكت فيه العوامل الجغرافية و الديمغرافية -الـــسكانية – مع العوامل الاقتصادية و السياسـ ية لتشكل بمجموعها خصوصية الصراع الجزائري الذي قـــاده خير الدين و هو صراع تمثل في إطاتحد ديني قبل كل شيء ، بدءا من الأنـــدلس، و انتـــهاءا بالمغرب العربي الإسلامي و حمل خير الدين الجزائر مسؤولية ذلك.

عمل خير الدين بواسطة سياسته الراشدة على استقطاب المناطق الثائرة ببذر نوع من الشعور الوطني العام الذي كانت من مظاهره المواجهة الجهادية مع العدو عبر الثغور المتعددة خاصة بعد تولي شارل الخامس الحكم سنة 1516م الذي وضع هدفه الأول القضاء على الدولة الجزائرية الفتية وإزالة ما تمثله من تهديد وتوطيد الحكم الاسباني في المغرب الإسلامي في الوقت الذي انصرف خير الدين لتنظيم أمور الدولة الجديدة في الجزائر وحشد القدرات والإمكانات كلها من أجل تأمين متطلبات الحرب التي باتت وشيكة بعد أن استثارت عملية انضمام الجزائر للخلافة العثمانية حماس أوروبا بصورة عامة ، ونقمة إسبانيا المتعصبة بصورة خاصة لتطوير الحرب الصليبية وهذه الانتصارات الحاسمة ،أثارت قلق سلطان بني حفص بتونس خوفا من القوة المتعاظمة للجزائر ، فكتب إلى سلطان تلمسان يحذره من القوة المتصاعدة لخير الدين ويطلب الانضمام إلى المسعى لإثارة الفتن أمام خير الدين. [1]

II-قضاء خير الدين على تمرد بن القاضي:

بعد أن أعاد خير الدين تنظيم مملكة الجزائر اثر توليه الحكم حيث قسمها إلى قسمين: قسم شرقي يمتد من شرق العاصمة الجزائرية حتى حدود المملكة الحفصية بتونس وتشمل بلاد القبائل الجبلية ووضع على رأس هذا القسم حليف أخيه صديقه أحمد بن القاضي الـ غبريني-ســـلطان كوكو[2] ببلاد زواوة، [3].أما القسم الغربي، فيمتد من الجزائر إلى حدود دولة بني زيان –غـــير محددة بدقةحين على رأسها محمد بن علي .ظن خير الدين أن باســـتطاعته الاعتمـــاد في إدارة القسمين على الزعيمين المحليين لحكم البلاد و أن القبائل ستكون أكثر هدوءا واستقرارا في حال تسلم قيادتها زعماء محلين .وترك لمدينة الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة .غير

[1]Brett(Michel) : les Espagnoles et la Civilisation Islamique, Ed/ ,Atlas, Paris ,1981, pp142-204

[2]بلدة كوكو تقع على بعد (18) كيلوا مترا في الجنوب الشرقي من مدينة أربعاء بني براثن

[3]Ferdj :Op-Cit ,pp37-42.

أن هذا التنظيم أثار نقمة عبد العزيز ملك قلعة بني عباس [1] والعدو اللدود لأحمد بن القاضي،إذ وضع عدوه أميرا عليه وحاكما في جهته فحمل لواء العصيان وأعلن تبعيته للملك الحفصي بتونس.

غير أن التهديد الخطير لم يظهر من عبد العزيز ملك قلعة بني عباس الذي حاول الانفصال بقسنطينة بقيادته عام 1526م [2] بقدر ما ظهر من أحمد بن القاضي الذي ما إن شعر بقوته حتى انقاد لتيار المؤامرات .فأعلن تمرده على خير الدين وانضم إلى الحفصيين ملوك تونس معتمدا على ما يقدمونه له من الدعم والتأييد ،ومن العوامل التي ساهمت في ظهور الخلاف بين الحليفين القديمين رغم الخدمات التي قدمها ابن القاضي لعروج ثم خير الدين:

1. سعى بن القاضي إلى الانفصال بالإقليم الشرقي الذي ولي عليه من قبل عروج ونقله لعاصمته من أوزير إلى كوكو الأكثر حصانة كما قام بتنظيم الجيش والبحرية وهيأ ميناء أزفون استعدادا لإعلان الاستقلال[3].
2. انسحابه من معركة بني سناسن وعودته إلى منطقة القبائل مع جيوشه تاركا عروج لمصيره . عندما بلغ خير الدين الذي كان بمدينة الجزائر وفاة أخيه عروج وخيانة بن القاضي حقد عليه وحمله علانية مسؤولية ما حدث، وأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين حاكم مدينة الجزائر وآل بن القاضي إضافة إلى اتصالاته مع الحفصيين.

فأسرع خير الدين بعد أن استقر به المقام في الجزائر إلى إعداد مشروع للقضاء على الفتنة اولا بان قضى على رؤساء الطوائف المتمردة وكانو احوالي عشر ين رئيسا[4] ،وهو الأمر الذي ساعده على مجابهة قوات الحفصيين المتحالفة مع ابن القاضي ، التي انطلقت لتصل في موقع قرب ذراع بن خده والتحمت مع الجيش الجزائري بقيادة خير الدين الذي استطاع رد ها إلى الحدود وما أن بدأت فيه الجيوش التونسية بالانسحاب حتى ظهرت فجأة جيوش ابن القاضي، وانقضت على الكتيبة الجزائرية من الخلف مما أدى إلى إلحاق هزيمة ساحقة بها وذلك عام 1519 عند مجرى وادي بوقدورة الذي يشكل مضيق يفصل بين عشيرتي معاتقة و فليسه.

---

[1] كان خير الدين قد سلم له غرب قسنطينة للإشراف عليه فتولى قلعة لمسيلة التي أسسها صالح ريس فيما بعد انظر نوشي وآخرون : المرجع السابق ،ص 120.

[2] Mercier: Op-Cit , p 36.

[3] Oussedik:Op-Cit p 12-20.

[4] نايت بلقاسم :المرجع السابق ،ص63.

ونتيجة لانهزام خير الدين في موقعة (فليسه أم الليل)قرر الانسحاب بالجيش الجزائــري أو ما تبقى منه نحو الجزائر العاصمة فتبعه أحمد ابن القاضي [1] فأضطر خير الدين إلى الانــسحاب منها، واللجوء إلى جيجل بما بقي من جيشه ليجد فيها ملاذه الوحيد على أمل استعادة قوتــه والعودةلتحرير الجزائر من جديد [2]وأرسل إلى الجزائر فطلب أسطو له وأسلحته وكنــوز ه،في حين تابع ابن القاضي تقدمه إلى سهل متيجة التي خرج أهلها لمبايعته،وعمل في القرى تــدميرا ونهبا حتى وصل الجزائر .فجعلها قاعدة له،واستمر في حكمها مدة ستة أعوام 1521-1527.

خلال هذه الفترة كادت تتفتت تلك الرابطة التي أحكم خير الدين في صنعها، وشكل منها دولة الجزائر. وسرعان ما ضاق سكان مدينة الجزائر من تصرفات جنود بالقاضي فلجأوا مــرة أخرى إلى خير الدين طالبين تدخله للحد للفوضى التي كانت سائدة في مدينتــهم فتحــرك [3] متجها غربا لاستعادة الجزائر فسيطر في طريقه على جبال جرجرة ومحيطها، ثم تقدم إلى متيجــة حيث كان ابن القاضي [4] قد غادر الجزائر لملاقاة خصمه بين مرتفعات جبال القبائل،والتقــت القوات عند ثنية بني عائشة فهزم بن القاضي ،وتمزقت قواته حتى لم يبق معه إلا قلة من أنصاره الذين أدركوا ما خسروه من خلال التمزق الذي صنعه قائدهم فقرروا التخلص منه،وجاءت فئة منهم خيمته عند غروب الشمس فقتلوه ،وانتهت في سنة 1527 تلك الفتنة الــتي أضــعفت الجزائر إلى حد كبير[5].

وبعد هذا النصر أسرع خير الدين بقيادة قواته ،متوجها بها إلى الجزائر،حيــث اســتقبلته سكان المدينة استقبال الفاتحين ولم يستمر الصراع طويلا بين الجانبين،إذ عملت ا لقبائل علــى إعادة توحيد صفوفها من جديد[6] .وجاء الحسين بن القاضي –شقيق الشيخ أحمــد ،والــذي

(1) المدني : حرب الثلاثمائة سنة.... ، المرجع السابق ص 212-213.

(2) شوفالييه : المرجع السابق ،ص-ص 45-46.

(3) وولف : المرجع السابق ،ص 39.

(4) Féraud :" les Ben Djellab Sultans de Touggourt" R.A N° 23 1879 pp 167-170

(5) فرج(محمد الصغير): تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة 1954 ، ترجمة زمولي (موسى) ، منشورات مطبعة تالة، 2002 ،ص30.

(6)كان خير الدين في الفترة التي بسط فيها نفوذه على وادي يسر حتى مدينة تنس، لا يرغب على المزيد من التقدم نحــو الشرق بهدف عدم التصادم مع إمارة كوكو، غير أن الصراعات الداخلية التي كانت قد أخضعت آل بن القاضي وقــضى عليه. ليتمكن خلفاءه عام 1720 من تشيد أول برج وتم تعين ضابط ليحكم منطقة القبائل.

تولى الإمارة بعد مقتل أخيه،فوضع نفسه تحت تصرف خير الدين، سنة 1529م فتقبلــه خــير الدين بالتقدير والاحترام.بعد أن تولى السلطة في العاصمة و بقية الأقاليم جهز قوة لتأديب سلطان تلمسان المتآمر مع ابن القاضي في ثورته , عامان بعد ذلك تمكن خلالها من إنهاء كافــة أشكال التمرد و في نهاية عام 1529 تمكن من تحقيق الأمن في كامل التراب الجزائري وبعــد قتله واصل خلفا ؤه بسط نفوذ الدولة على بلاد القبائل ، وانصرف خير الدين لتضميد الجــراح التي خلفتها الفتنة الهوجاء، وعمل على إعادة تنظيم الدولة، وشكل الجيش وسلحه بطريقة أفضل مما كان عليه في السابق،وحشد أسطوله الضخم في الجزائر بعد أن ضم إليه ما كان قد غنمه من جهاده البحري خلال فترة وجوده بجيجل ،وما لبثت الجزائر أن استردت قوتها، ، وهي تمتلــك كل القدرات الضرورية لمتابعة حرب التحرير،حيث توافرت لها إرادة شعبية وجيش قوي منظم في البر والبحر،وإرادة قيادية صلبة تعرف هدفها وتضطلع بواجبها على أفضل صورة ممكنة.

VI-إستراتجية خير الدين في توسيع دائرة المواجهة:

فرض على خير الدين على الجزائر قيادة حرب هجومية دفاعية ،فقد جمع خــير الــدين حوله نخبة من الرجال جعلهم هيئة قيادته، وشكل أول أسطول جزائري من 15سفينة ،غير أن قوة البحرية الجزائرية في عهد خير الدين لا تكمن فقط في عدد السفن و نوعيتها الخفيفة مقارنة بالسفن الإوروبية الثقيلة أي في التحكم في السفن والاستعداد للمعركة، ولكــن في التــدريب والسلوك والانضباط العسكري والقيادات الكفأة ومنهم ابنه حسان [1] وطورغود ريس وصالح ريس-موحد الأرض الجزائرية وسنان ريس منقذ تونس فيما بعد و محمد حسن أغا الذي جعله نائبا عنه أثناء غيابه عن الجزائر، بالإضافة إلى تدريب المجدافين وانضباطهم الصارم .

ويصف شارل أندري جوليان خصوصية البحرية الجزائرية في رجالها بقوله : " لقــد بلــغ تمسكهم بالنظافة والنظام وتهيئة مراكبهم حدا جعلهم لا يفكرون في غير ذلك وكانوا حريصين خاصة على إتقان عملية رصف البضائع و بمزيد من القدرة على الانــسحاب والمراوغــة أمــا رياسهم فقد كانوا يتمتعون بسمعة كبرى في الجزائر أنهم يقومون بتنفيــذ الأوامــر بانــضباط والاعتناء بسفنهم وتجهيزها ولا يفكرون في أدنى شيء باستثناء العمل البحري وفي نفس الوقت

[1] للقضاء على الفتن قرر حسن بن خير الدين مصاهرة بن القاضي وتزوج ابنته وأنجب ولدا منها توفي عام 1570 بعد أن تولى قيادة الأسطول العثماني مثل أبيه ليكسب ود عائلة بن القاضي خاصة الحسين ومحمد وابن أخيه عمر بن احمد بن القاضي.

ولنفس الغاية لا يسمح لأحد ولو كان ابن رئيس الدولة نفسه تغيير مكانه أو مقر قيادة عمله." [1].

تطاع خير الدين بفضل هذه القوة السيطرة على المياه الصقلية ،و قضى على نفوذ البنادقة في حوض المتوسط ، وقضى على البحرية المسيحية في كريت وساعد الفرنسيين ضد اسبانيا والنمسا عام 1543م في معركة خليج الأسد على السواحل الجنوبية الفرنسية، خاصة ضد السفن الاسبانية التي كانت تعرقل أي عمل تجاري تجاه مرسيليا ،كما تمكن من بسط نفوذ البحرية الجزائرية على المضايق الأوربية.

1- خير الدين قائدا لأسطول الخلافة:

نظرا لازدياد مخاطر الحرب البحرية بين المسلمين والمسيحيين بقيادة اندريا دوريا أميرا للبحرية الاسبانية الذي كان موضع ثقة شارل الخامس، ازدادت مخاوف الخلافة العثمانية اثر هزيمة أسطولها في بيانوسيا(Pianocia)،وحملة الأسبان على مدينة شرشال في غياب خير الدين، وأمام تزايد احتمالات خروج البحر المتوسط من سيطرتها ،أصبحت الخلافة أكثر استعدادا لدعم جهود خير الدين لإنهاء التصعيد و الصراع البحري الذي رفعه الأسبان،ومعاقبة البنادقة على المساعدة التي قدموها لأندريا دوريا في معركة بيانوسا [2]

فبدأ الخليفة يفكر في دعوة شخصية قادرة على الوقوف في وجه اندريا دوريا بعد موت الريس كمال، شخصية يمكن أن تقف الند للند على حد وصف الإسبان[3]. لمقاومة الهجمة الصليبية، وإعادة بعث الأسطول ،والقوة البحرية العثمانية لتحقيق السيطرة على البحر . فوقع اختياره على خير الدين نزولا عند نصيحة وزيره إبراهيم الذي اعتبره الرجل الوحيد القادر على مجابهة اندريا دوريا ،لما كان له من السمعة ، والشهرة في العالم الإسلامي والمسيحي ،و قرر الخليفة استدعاءه و تعيينه قائدا للأسطول فكتب له الخليفة فرمانا سلطانيا سنة 1533 يقول فيه " رغبتي توجيه عمل ضد اسبانيا ، ضع مكانك رجلا جيدا وعاقلا وأسرع إلينا وإذا لم تجد من تتوفر فيه المقدرة أعلمنا ..." ،ووجدها خير الدين فرصة لاستكمال عملية التحرير والدفاع عن الثغور الإسلامية.

---

[1] جوليان : المرجع السابق ،ص-ص ، 334-335.

[2]Rosseuw :op-cit ,pp212.

[3]De Corsario à corsario no hay ganar .que los darriles de agua

نظرا لما يشكله هذا التعيين من خطر على الأساطيل الأوربية فقد كلف شــارل الخــامس قائده اندريا دوريا بإعاقة سفر خير الدين ، من خلال القيام بحركة معاكسة فقرر اندريا القيــام بحيلة سرعان ما اكتشفها خير الدين—سفينة الأسرى-[1] ،غير أن شرح الأسرى لتفاصيل الحيلة المدبرة دفعت خير الدين للقيام بإجراء مماثل وتظاهر بإخراج أمتعته من السفينة المعدة للرحيــل مدعيا تأجيل رحيله أمامهم، ثم قام بإطلاق سراح السفينة وطاقمهاالذي نقل ما شــاهده إلى دوريافانطلت الحيلة عليه ، ثم بد أخير الدين من جديد في الاستعداد للسفر وسط مخاوف من العدد الكبير للأسرىفاقترح عليه مستشاروه ، إعدامهم غير انه رفض واعتبر قتل الأسير جريمة وحرمها تحريما قاطعا إلا أن هؤلاء لم يحترموا العناية التي كان خير الدين يوليها للأسير ،فاستغلوا استعداداته للسفر فحاولواالتمرد والاتصال بقائد بجاية لمساعدتهم غير أن الرسالة وقعت في يــد خير الدين [2] ولاقى المتآمرون جزاءهم.

وبعد أن استقرت الأمور أبحر خير الدين إلىدار الخلافة مصطحبا معه الرشــيد [3] اخــو السلطان الحفصي،واستخلف على الجزائر حسن أغا، وفي طريقه حاول اعتراض أسطول اندريا دوريا لكنه فشل وعند وصوله إلى نفارين التقى مع القبطان احمد باشا علــى رأس الأســطول العثماني، واتجها معا إلى قورون وأعاد فتحها ،وواصلا إبحارهما إلى مضيق الدردنيل أين أرســى الأسطول المشكل من حوالي 40سفينة مجهزة بعتاد حربي وبالجنود بميناء غلطــة (Galata) في

---

[1] أشاع اندريا دوريا أن سفينة ستأتي وعلى متنها الأسرى المسلمين الذين اسروا في قلعة قورون ،وتحمل أيضا أمتعة بقيمة ستة ألاف ليرة ذهبية وسبعين شخصا من بينهم ملك فرنسا، وأرسل بعض السفن إلى المياه الجزائرية فهاجمهــا الأســطول الجزائري وأسرها ولكن خير الدين لم يجد ما كان قد أشيع.

[2] أرسل الأسرى المسيحيين رسالة إلى القائد الاسباني ببجاية يخبرونه باستعداد 7000اسير على احتلال المدينــة ويطلبــون مساعدته بإرسال سفينة تمكنهم في حالة فشل المخطط من الفرار من الأسر ، لكن الرسالة وقعت في يد خير الدين وبعــد اطلاعه على محتواها تركها تصل إلى قائد حامية بجاية ، الذي أرسل السفينة المطلوبة ،وحالما وصلت الى الميناء القي القبض عليها كما تم إلقاء القبض على العناصر المتآمرة من بينهم الاميرال فورمنترا Formenteraوالاميرال بورتوندو Portondo فتمت مبادلتهم بالريس درغوث والريس صالح الأسير لدى المسيحيين أما الباقي فقد اجتمع الديوان للبــت في مــصيرهم وسط رفض أية فدية قرر الديوان إعدامهم وأرسلت قائمة بأسمائهم إلى جنوه.

[3] بعد وفاة السلطان محمد تونس سقطت في يد احد أصغر أبناءه الأربعة حسن والذي عملت والدته بواسطة المؤامرات و تمكنت من القضاء علي 40 أخا، بينما استطاع رشيدالفرار إلى الجزائر بعد أن ناضل بمساعدة قبائل الــداخل ،ووضــع نفسه تحت حماية خير الدين الذي نصحه بالتوجه إلى دار الخلافة باسمه للحصول على الدعم للعودة إلى حكم تونس.

21 نوفمبر 1534م، وسط طلقات المدافع تحية من الخليفة له و تشريفا كرئيس دولة ، وكتب خير الدين رسالة للخليفة يحييه و يستأذنه فيها بالدخول إلى استانبول فأذن له.[1]

واسكنه قصرا وعامله كرئيس دولة وكان استدعاء خير الدين في فترة حرجة بالنسبة للخلافة في الدفاع عن وجودها ،والحرب ضد مخاطر البر الأوربي والبحر الاسباني ،ولاحظ خير الدين من خلال هذه الزيارة أن السلطان تردد في إسناد أسطوله البحري لقيادته خوفا من الشكوك التي أثارها ملك فرنسا ،وما أثارته بعض وجوه الحاشية من مخاوف من احتمال هروبه بالأسطول وانضمامه للعدو، غير أن الوزير إبراهيم الصدر الأعظم كتب للسلطان يطمئنه بأنه رأى فيه رجلا قادرا على مواجهة أعداء الخلافة.[2] فقلده قيادة الأسطول ووضع على عمامته ريشة[3] مذهبة [4]

2- نشاط خير الدين كقائد للأسطول العثماني:

أ- فتح تونس :

وبعد هذا التعيين وضع خير الدين مخطط عمل ،فاشتغل بالنظر في أمور دار الصناعة فيما يتعلق بصناعة السفن والأسطول، كما انشأ مدرسة عسكرية و كلية حربية للبحرية، وتمكن من صناعة مراكب بحرية وصل عددها إلى 612 سفينة من نوع كارغو (Cargo)،مستعينا بيد عاملة من الجزائر والشام ،ولما فرغ من تجهيز الأسطول أمره الخليفة بالإبحار في 11 جوان 1534فابحر بأسطول مشكل من 100 سفينة تحمل 8 ثمانية ألاف بحار وألف جندي بري كما منحه 400 ألف ليرة ذهبية علاوة على سفن الأسطول الجزائري ، وانطلق بأسطوله المعدل والمنظم لمشاركة في الحرب القائمة بين دار الخلافة والبندقية،و قصد محاربة اندريا، استطاع ضرب الثغور المسيحية إلى غاية السواحل الاسبانية وبعد حروب عديدة استولى فيها على كاستيا بإقليم أو ترانت ، ثم حاول في نفس السنة ضرب أسطول اندريا دوريا قرب بريفيزة لكنه فشل نتيجة تجنب الاميرال الاسباني المواجهة وفر منسحبا إلى بجاية كما تمكن خير الدين سنة 1539 من بسط نفوذه على كاستا نوفو (Casta nova)بدلماسيا (Dalmacia)ثم

---

[1] ابن أبي زيان بن اشنهوا: المرجع السابق ،ص-ص 156-158.

[2] قال في محل رده "إننا وضعنا اليد على رجل البحر الحقيقي فلتعينه جلالتكم بدون تردد باشا، وعضو الديوان ورئيس قبطان أسطوله".

[3] سرهوجا أسوة بالسنة النبوية الشريفة" حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقلد الأبطال المنتصرين وسام الريشة.

[4] ابن أبي زيان بن اشنهو: المرجع السابق ،ص-ص 161-164.

كلاري(Callari) ،وموفازيا(Movazia) فاضطرت البندقية إلى قبول الصلح ،وهذه الانتصارات مكنت خير الدين من تحديد حركة الأسبان في البحر المتوسط ،كما استولى على أهم جزر البحر المتوسط الشرقية لحرمان اندريا دوريا من أي ملجأ أومركز تموين و قرر فتح تونس[1] لضمان امن المتوسط والقضاء على السلطان المتآمر مع الأسبان في بجاية و اكتشافه لنية الملك الاسباني للسيطرة عليها فبدأ في إعداد مشروع لحماية جناح الدولة الجزائرية مستغلا تدهور النظام في تونس بسبب سوء إدارة الحفصيين .

كان الملك قد انتهى في تونس إلى السلطان محمد الذي خلف أباه محمد بن الحسن على العرش الحفصي، وكان الملك الجديد مهملا لأمور الملك، فقام بإعدام شنقا لإخوته الخمسة وأربعين ذكرا، ونجا منهم إلا الرشيد وعبد المؤمن لوجودهما خارج القصر الملكي ،فمال عنه الشعب نتيجة أعماله إلى أخيه الرشيدالذي لجأ إلى خير الدين بالجزائر، للاستعانة به على أخيه.وما كاد الخليفة يطلع على حقيقة الحالة بتونس ويدرك أن هذه المدينة التي انحصر فيها ملك بني حفص،هي نقطة الضعف في التنظيم الإسلامي الجديد،والملك الاسباني يوشك أن ينقض عليها ليستخدمها مع طرابلس ،لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه ، فأمر خير الدين بالسير نحو تونس،بإبعاد هذه المخاطر والتهديدات.

وصل الأسطول العثماني المكون من 80سفينة و 8 ألاف جندي إلى عنابة في اوت1533 من اجل التنسيق مع القوات القادمة من الجزائر تحت قيادة حسن آغا وتقدم إلى غاية قسنطينة [2]وأخذ منها دعما جاء به نائبه حسن آغا ثم قسم قواته جزءا سير نحو بترت برا، و الآخر نحو حلق الوادي بحرا،فتمكن منها بدون عناء،ووقف على أسوار مدينة تونس ففتحت له أبوابها ،واستقبله أهلها استقبالا رائعا عبر فيه الأهالي عن تطلعاتهم وآمالهم[3]. وبعد تونس انتقل إلى الجزائر حيث استقبل بحفاوة ، ومنها أبحر إلى الغرب إلى جزيرة ميوركه

---

[1] اكتشف خير الدين الأهمية البالغة للسيطرة على تونس بالنسبة للخلافة إذ كان يرى فيها موقعا يضمن الحركة في الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، فقبل السلطان ذلك وقام بتسليح أسطول والتي كانت مخصصة أصلا للتعاون مع فرنسا بالبحر المتوسط ضد شارل الخامس وفي طريق العودة قام خير الدين بالغزو ثغور ايطاليا وجعل روما تعيش حالة من الرعب وتمكن من الوصول إلى الموانئ تونس 14 أوت 1534 ،وأصبحت كل المملكة خاضعة له، وكسب قبائل الجريد والنمامشة ووضع حامية بالقيروان.

[2] Feraut: Annales Tripolitaines , Edt/ Bousslama,Tunis, 1927, pp. 21-36.

[3] Primaudaie :"Docum…. Relation du frère Juan de Iribes –sur les Evénements de Tunis,4Janvier 1535" ,R.A ,N° 19 ,1875 ,pp 344-346.

واستولى على مرسى ماهون ودمر أسطول أمير البحر الاسباني بورتوندو (Portondo)[1] سنة 1535،ثم عاد إلى تونس،وبدأ في تنظيم البلد على غرار ما فعل في الجزائر فجمع خير الدين حوله الأعراب الذين انساقوا في تيار الفوضى وإثارة الفتن ووحدهم في تيار مقاومة الاحتلال الاسباني،كما كتب إلى الأعراب وحذرهم سوء عاقبة الفتنة في الإسلام،وأجابوه إلى ذلك،غير أنهم اشترطوا عليه الإبقاء ما في أيديهم من الإقطاعيات ،فالتزم لهم بذلك،واشترط عليهم،أن يكون مشتاهم بالصحراء ،وأن يكفوا اليد عن إثارة الفتن ثم بعث إلى نائبه بالجزائر وطلب منه إرسال أربعمائة فارس ،كلفهم بالإشراف على تسيير شؤون الشعب في مختلف الأقاليم التونسية.

ب- المساهمة في فتوحات الخلافة:

سعى خير الدين بعد عملية الاسترجاع هذه إلى الإعداد لمشروع ظل حلمه الأكبر، وهو إعادة فتح الأندلس الذي طرحه الخليفة أيضا [2] ،فبدأ العمل نحو تجسيد المشروع بتحطيم المراكز القوية للبحرية الاسبانية بالسيطرة على 25 جزيرة في البحر ألايوني و اخضع 12 جزيرة أخرى لضريبة سنوية ، واتجه إلى إشعال الثورة بالأندلس فوضع مخطط الإنزال في الجزيرة الخضراء إلا أن هذا المشروع أجهض بعد أن قامت اسبانيا بنقل ثقل العمليات العسكرية إلى شرق المتوسط.

كما ساهم في الفتوحات في شرق أوروبا بقيادة أسطول من 70 سفينة وتمكن من الإبحار في نهر الدانوب وسيطر على العديد من القلاع، ومكن الخليفة من السيطرة على اهم مدينة وهي بودون (Boudoun) عاصمة المجر المحصنة [3] ،ثم بدأ في وضع سياسة بحرية سريعة بالتركيز على السواحل التي ركز عليها البرتغاليون والأسبان هجماتهم واتخذها كقاعدة لتوجيه ضربات قوية متلاحقة ضد شارل الخامس ،والسعي إلى تحقيق الاستقرار والأمن في المناطق التي يشرف عليها و أدرك خير الدين خلال هذه الفترة أن مسؤولية طرد الإسبان من شمال أفريقيا تقع على عاتقه في ظل استمرار تحريض الأسبان للقبائل للثورة ضد حكومة الجزائر مستغلة مراكزها المتقدمة في بجاية ووهران لدفع رؤساء القبائل على التمرد ولذا استغل خير الدين الاتفاق المبرم بين فرنسوا الأول وسليمان القانوني والذي خفف الضغط عليه ، واتجه نحو تأمين الحدود الغربية للخلافة بفتح تونس وتثبيت الاستقرار في مصر وقد حاول خلالها شارل الخامس

---

[1] وكان هذا الأميرال أسيرا لدى الجزائر وأطلق سراحه في إطار المبادلة مع الأسبان لإطلاق لفك أسر درغوث.

[2] Sander et Denis :Tome I, Op-Cit , p 286.

[3] Sander et Denis :Tome II, Op-Cit, p 47.

استغلال غياب الأسطول عن البحر المتوسط [1] للقيام بعمل بحري ضد الجزائر بدأ بالموانئ الشرقية للبحر المتوسط و لمساندة ملك ألمانيا في عملية تمويه بأسطول يتكون من 70 سفينة وجيش يقدر 12 ألف جندي، وسير برا جيشا نحو ألمانيا لمساعدة المجر إلا أن مخططه فشل ، و لم يتمكن الجيش البري من الوصول للدفاع عن عاصمة المجر .كما أن الأسطول المتبقي في موانئ الخلافة تمكن من صد هذه الحملة ، فاتجه إلى استكمال مشروع الحملة الكبرى على الجزائر فعمل على احتلال جزر إستراتجية فتمكن من احتلال قلعة كورون (Koron)[2] وقام بإصدار مرسوم فرض الضرائب المرهقة على المسلمين الأندلسيين .

في هذه الأثناء بلغت خير الدين أنباء عن قيام شارل الخامس بالانتقام من المسلمين في الأندلس ثأرا من هزيمة المجر ،وإرسال هؤلاء رسالة استغاثة ،فكلف خير الدين خيرة الرياس مع 36 سفينة لمساعدتهم وقام الرياس بسبع رحلات نقلوا خلالها سبعين ألف مسلم ،حيث استفاد خير الدين بالمقابل من خبرة البحارة الأندلسيين فطوروا سفنه [3]،وبعد عودة الخليفة سليمان من حربه مع النمسا وانتصاره عليها قرر محاربة شارل الخامس سياسيا ، فعقد صلحا مع فرديناند ملك البلغار فجعل هذا التحالف شارل الخامس في موقف ضعف ،برا وبحرا فاندفع في محاولات يائسة لاستمالة خير الدين إلا انه فشل.

ج-بداية المواجهة بين خير الدين وشارل الخامس واحتلال تونس:

أمام هذه المخاطر الجديدة أصبحت المملكة الإسبانية وإمبراطورها شارل الخامس أكثر تصميما على تجهيز حملة قوية يتم بواسطتها التعويض عن الهزائم السابقة .والتي نالت من هيبة الإمبراطورية التي فرضت ذاتها على زعامة الغرب لقيادة الحرب ضد المسلمين. خاصة حينما اتخذ خير الدين وقادته من جزر هيار [4]الأندلسية قاعدة لعملياتهم في غرب المتوسط والمحيط الأطلسي ضد السفن الإسبانية والبرتغالية التي تحمل من أمريكا الجنوبية ثروات العالم الجديد، مركزين

---

[1] ألتر: المرجع السابق، ص 108-109.

[2] قلعة من القلاع الواقعة في بحر ايجة

[3] ألتر : المرجع السابق ،ص. ص 98-99.

[4] جزائر هيار:(Iles d'Hyeres) مجموعة جزر تشكل أرخبيلا في البحر =الأبيض المتوسط ،وهي حاليا تابعة لفرنسا وتشمل جزيرة (بوركورول:Porauerolle) و(بورت كروس :Port-cros) وجزيرة الشرق (Ile de Levant Ile) وجزيرتين صغيرتين. دائرة المعارف الإسلامية ص 32.

جهودهم لحرمان إسبانيا من هذه الثروة ووضعها في خدمة المسلمين ،وتغلبت عليه فكرة عــزل الجزائر[1] عن مقر الخلافة باحتلال تونس [2] ،وقد تبين أن مخططه يعتمد على انتقاص حــدود الجزائر بصورة تدريجية قبل الانقضاض على عاصمتها.

في الوقت نفسه كان نشاط البحرية الإسلامية في سواحل تونس يهــدد مباشــرة البابــا والأمراء الايطاليين ،و قويت فيها روح القرصنة الصليبية بأوروبا بجانب الضفة الأخــرى مــن المتوسط .كان هذا الصعود الذي أحست به الدول المسيحية و كنائسها ينذر بــالخطر، الخطر الأول ضياع تونس التي تقع أمام ايطاليا وحراستها على مضيق ميسين الذي يعتبر مفتاح شرق المتوسط ،وسيطرة خير الدين عليه يعتبر ضربة لنشاط البحرية المسيحية عامة والاسبانية بوجــه خاص والخطر الثاني شعور فرسان مالطة بالخوف وكذلك نائب ملك ســردينيا مــن مجــاورة المسلمين، فأصدرت التعليمات للمسيحيين للاستعداد لحملة كبيرة ضد خير الدين وتو نس،[3] كما وعد فرنسوا الأول ملك فرنسا بالتزام الحياد ، فيما إذا هاجم شــارل الخــامس ســواحل إفريقيا، فكانت هذه عوامل مشجعة للقيام بعمل واسع يستعيد به بعض الهيبة المفقودة.

ونتيجة لشعور شارل الخامس بالخطر العثماني على أملاكه المتعددة ،و لإحــساسه بأنــه حامي أوروبا و المسيحية الكاثوليكية والمدافع عنها، معتبرا أن صراعه ضد الجزائر بمثابــة فــتح جبهة جديدة ضد العثمانيين وإضعافا لقوتهم المتجهة شرق أوروبا، بعد أن فشلت كل الحملات التي سيرها ضدهـا ،واستعان بالعديد من القادة المشهورين أمثال اندريا دوريا الجنــوي وأبنــاؤه ،دون جوان النمساوي ،خوان فاسكون الاسباني ، بيدرو نفارو القاسكوني ،دون ديقو دو فيرا وايكسموث دنيال الانجليزي ،روبير الهولندي وغيرهم، فعمل على خنق الجزائر شرقا.

وفي تلك الأثناء تمكن السلطان الحفصي من النجاة من قبضة خير الدين، واتجه إلى الجنوب متنقلا أولا إلى قبائل ا لجريد والحنانشة لإثارتهم وقيادهم للثورة على النظام الجديد غير أن خــير الدين سارع باستخدام المدافع الشراعية [4] وتمكن من هزيمته في الصحراء التونــسية . ففــر إلى

---

[1] سالم (عصام سالم) :جزر الأندلس المنسية -التاريخ الإســلامي لجــزر البليــار - 1208-1687 ، ط2 ،دار العلــم للملايين،بيروت،1984 ص 307.

[2] جوليان : المرجع السابق ،ص.ص330-331.

[3] ابن أبي زيان بن اشنهو: المرجع السابق ،ص-ص 164-167.

[4] عربات مدافع بأشرعة تدفعها الرياح

بجاية و انتهى به المطاف في إسبانيا، وقابل الإمبراطور شارل الخامس واستثاره للحرب مستنجدا به في رسالة تحمل معنى الخيانة والتآمر،[1]ولم تكن هناك حاجة لمثل هذه الاستثارة،إذ كان ملك اسبانيا قد أعد عدته لقيادة حملة قوية ضد المغرب الإسلامي ،غير أنه وجد في شخص الحسن بن محمد الأداة الجيدة ، يمكن استخدامها لتنفيذ مخططه . فقرر استشارة ملك فرنسا فأرسل له رسالة يدعوه فيها إلى التحالف ضد الجزائر وان مصيره معلق بمصيره [2]،غير أن هذا الأخير رفض ملتزما الحياد ، فقاد شارل الخامس الحملة الأوربية وأراد لها أن تكون شبيهة بحملة شارل قلب الأسد الانجليزي إبان الحروب الصليبية الأولى،وأبحر من مدينة برشلونة يوم 31 ماي 1535م. بحملة تضم 30 ألفا من الجنود 500 سفينة شراعية 90 سفينة ضخمة وشكلت ثلاث فرق – الاسبانية - الايطالية – البرتغالية [3]، وصل هذا الأسطول إلى قرطاجة وسواحل مدينة تونس يوم 16 جوان.

ورغم علم خير الدين بتحركات القوة فان استعداداته كانت ضعيفة ، إذ كان لايملك القوة الكافية لإيقاف هذه الحملة الضخمة فلم يكن جيشه يضم أكثر من سبعة آلاف من العثمانيين وخمسة آلاف من التونسيين ،وتخلفت القبائل والسكان عن النداء الذي وجهه خير الدين للجهاد عبر أئمة المساجد ،فقام بتحصين مدخل حلق ألواد بالحجارة وأكياس الرمل وسلحها بالمدافعفي محاولة لعرقلة القوات الغازية ،ثم قام بسحب بعض السفن إلى الداخل[4] غير أن النتيجة كانت محسومة مسبقا لصالح الملك الاسباني ، إذ استولى على معقل حلق الوادي وهو

---

[1]" خير الدين.. ما علمه بما بيني وبينك من الصداقة والموالاة، فالواجب عليك أيها الملك أنك تعيني بهذا العسكر الذي معك على رد مملكتي، وإخراج هذا الرجل منها. معي من الجيش ما قدره ستون ألفا لأحاصرهم أنا برا وتحاصرهم أنت بحرا، فإذا استولينا عليها-تونس- تكون البلاد لك وأنا أكون كالنائب عنك"

[2] يقول شارل الخامس في رسالته :".. أن كل الآلآم سببها الأتراك في الجزائر ...لا تفرح كثيرا فإنهم بمجرد القضاء على اسبانيا سيكون مصيرك مثلي تماما . يجب أن نوحد قوانا للقضاء على هذا الخطر.."

[3] كانت هذه الفرق مشكلة على الشكل التالي : الفرقة الاسبانية وجنوه وفلا ندر 124 سفينة و 21 سفينة صغيرة بقيادة أندري دوريا والبرتغالية 27 سفينة يقودها سالدانهاA.De Saldanha والايطالية 64 سفينة كبيرة الحجم يقودها الفارو بازان Alvar de Bazan القوات الايطالية والاسبانية كانت تحت قيادة المركيز دوغواس De Guast والاسبانية تحت قيادة الدوق الألب مكسيميليان دو بياترا =بوانMaximilien de Pietra Buenaالذي كان يقود فرقة من 7000رجل والأمير ساليران Salerne الفرقة الايطالية 4000رجل والأمير لويس Louis يقود الفرقة البرتغالية 2000 رجلRosseuw(.S.H) : Op-Cit ,tome VII Pages 150-200

[4]Bennassar :Op-Cit ,pp225-250.

المرسى الهام ومفتاح مدينة تونس .واستعد الجيش الاسباني لمهاجمة العاصمة الحفـــصية، يتقـــدم صفوفه بصفة رمزية الحسن بمحمد الذي كان قد أبرم مع صاحبه شارل الخامس اتفاق ا يقضي بالسماح للجيش الاسباني باستباحة المدينة ثلاثة أيام كشرط لمرافقته الحملة[1] ومع تقدم الجيش الإسباني نحو مدينة تونس،شعر خير الدين قبل أن يغادر مدينة تونس لمواجهة الحملة بـــالخطر الماثل أمامه، والمتمثل في العدد الكبير من الأسرى المستعدين للانتفاضة فاتخذ قراره بتكثيـــف الحراسة عليهم وتوزيعهم على العديد من المعتقلات [2]،غير أن سرعة تقدم الجـــيش المـــسيحي أعاق تنفيذ ما قرره،فأتجه أولا لمواجهة الحملة الصليبية .بمنطقة برج العيون في محاولة منه لعرقلة تقدمها ،وهو يدرك تماما المخاطر المحيطة به لكنه فشل في وقف زحف الجيش المسيحي ، فعاد بمن معه إلى المدينة ،فاضطرب عليه أهلها،بعضهم تمسك بطاعته،و البعض الأخر انحـــرف عنـــه ، وانضم إلى السلطان أبي حفص فجمع أعيان الناس،وتحدث إليهم [3]، فاختلفوا ،فتركهم وخرج بمن معه للمواجهة النهائية مع شارل الخامس ،فلم يتمكن مـــن الـــصمود طويلا،واضـــطر إلى الانسحاب إلى القصبة فمنع من دخولها [4]فاضطر إلى الاتجاه نحو الجنوب وساعده الشيخ احمد بن مرابو شيخ منطقة جيل الرصاص في الاتجاه نحو الشمال قاصدا عنابة بعد أن كلف حـــسن آغا بالانسحاب غربا نحو قسنطينة مع 1200جندي وفي عنابة وجد ما بقي من أسطوله ليبحر به باتجاه الجزائر ،وقام بصناعة ثمانية سفن ضمها إلى سفنه الناجية التسعة وشكل أسطولا غزا به جزر البليار انتقاما من هزيمته أمام شارل الخامس.[5]

أما تونس فقد دخل السلطان الحفصي في مقدمة الجيش الإســـباني العاصـــمة ،و حـــل بالقصبة واعدا أهلها بالأمان المفقود ، بعد أن تعهد بالموافقة على شروط ملك اســـبانيا ومنـــها

---

[1] ابن أبي الضياف:المرجع السابق ، ص 14.

[2]رفض خير الدين الاقتراح الذي تقدم به سنان باشا بضرورة إعدام الأسرى لما يشكلونه من خطر.

[3]''..إخوتي لقد أجبرنا على الانسحاب أمام قوات ضخمة ن في الوقت الذي لم يقف إلى جانبنا إخواننا المسلمين...،،

[4]وقع بتونس الحدث الذي عجل بالانهيار، ،ذلك هو انتفاضة عشرة آلاف أسير نصر اني كـــانوا محبوســـين في العاصـــمة الحفصية،فعندما خلت المدينة من الجيش الذي تقدم لقتال العدو ، ونتيجة لعدم التزام المكلفين بالحراسة على السجون وجد هؤلاء الأسرى فرصتهم السانحة ،فخرجوا من معتقلهم ،ونظموا صفوفهم ،ثم هاجموا معقل القصبة الذي لم يكن بـــه مـــن الحرس إلا القليل فتمكنوا منه، ووجهوا مدافعه في اتجاه جيش المسلمين، الذي وقع بين نارين، وأوصدوا أبـــواب المدينـــة وأقاموا عليه الحراسة، ليمنعوا خير الدين وجيشه من الرجوع إليها لمقاومة شارل الخامس ريثما تصل قوات الدعم.

[5]Sander et Denis : Tome II ,Op-cit , p 2-6.

استباحة المدينة.وما إن لمن الناس، وخرجو ا من معاقلهم،وتخلوا عن أسلحتهم وانصرفوا إلى أعمالهم ومتاجرهم ،حتى بدأت المذبحة الرهيبة التي انتهت بإبادة ثلث أهل تونس ونجاة الثلث ووقوع الثلث المتبقي في قبضة الأسر والمأسور يفتدي نفسه وبلغت الفدية ألف دينار، وتغيرت أحوال البلاد وطمست أعلامها ومعالمها ،وكانت هذه النكبة التي تعرضت لها تونس في سنة 1535م هي أقسى ما عرفته من نكبات وكوارث في تاريخها ،إذ بلغ عدد القتلى من سكان تونس خلال الأيام الثلاثة ، السبعين ألفا [1]ونهبت خلال ذلك ثروات المدينة وكنوزها ونفائسها وأموالها لتضيف إلى قائمة الكوارث التي تعرضت لها المدن الإسلامية على يد الأسبان. وقد حاول ملك اسبانيا لتبرير التخفيف من وقع المذبحة ، وإلقاء تبعاتها على أهل تونس الذين تحالفوا مع خير الدين ،فكتب إلى حاكم مدينة بجاية رسالة يوم 23 جويلية1535م يشرح فيها دواعي الجريمة وأسبابها مبررا ذلك بموقف سكان تونس من ملكهم[2].

استقر السلطان الحسن بن محمد على عرش أشلاء أمته الممزقة من رجال قومه ونسائهم وأطفالهم [3]،وعقد مع الإسبانيين معاهدة نصت على شروط مجحفة أفقدت تونس استقلالها ووجودها كمافرض على الملك المستسلم تسليم المهدية وعنابة كمراكز تجارية مهمة[4]و بعد التوقيع على المعاهدة واستكماله احتلال المهدية ومنستير وفرض حصارعلى جربه وطرابلس.[5] انسحب ملك اسبانيا بأسطوله ومعظم جيشه إلى قاعدته في صقلية، استعداد للذهاب إلى روما ، وترك حامية من 200جندي لمساعدة ملك الدولة الحفصية بالقصبة استقرت بالحصن المنشأ، بحلق الوادي تحت قيادة برنادين مندوزا(Bernadine de Mendoza) الذي استعان بمواد بناء خاصة استقدمها من صقلية لبناء معقل دفاعي هجومي [6]،ومن صقلية اتجه إلى روما للحصول على التاج الموعود الذي وعد به من قبل البابا في حالة انتصارعلى خير الدين ،

---

[1] ابن ابي الضياف:المرجع السابق، ص 14.

[2] "...ولكن،وبما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولا حسنا،كما يستحق ،وكما هو واجبهم ،فقد رأينا أن نأمر بنهب المدينة ،انتقاما منهم على سوء سلوكهم .."

[3] التميمي(عبد الجليل): ، "الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن16"، المجلة التاريخية المغربية ، العدد10، تونس، 1978، ص ص 5-44.

[4] التميمي (عبد الجليل) :الولايات العربية ومصادر ... ، المرجع السابق ، ص 75.

[5] المهدي بن علي بن شغيب: المرجع السابق ،ص.ص 107-108.

[6]Documents, "Archives de Simancas" : R.A N° 113 P 849-855 et N° 122 pp. 83- 90.

وقضائه النهائي على الخطر الإسلامي ،وفرض السيطرة المسيحية على البحر المتوسط ، غـــير أن وصول أخبار نزول خير الدين في ماهون عاصمة البليار، واحتلاله لعاصمة الجـــزر شـــكك في نجاح مخطط شارل الخامس ليصبح إمبراطورا على المسيحية فقرر الإعداد لحملة صليبية أوربية ضد الجزائرتكون بمثابة عمل يتوج به المسيحية ،وحربه ضد الإســـلام بتـــاج النـــصر، فانطلق بالإعداد لمشروع كبير كشف حيثياته للبابا طالبا لدعمه ومساندته هذا الأخير الذي بدأ يشعر بخطورة مشاريع ملك اسبانيا على العرش البابوي فعمل على إبعاده بطريقة تقضي عليه ، بـــان حرضه على العمل أولا بحل مشاكله مع فرنسا ، ثم لانطلاق في محاصرة الجزائر كخطوة ثانية ، فالانقضاض عليها كمرحلة أخيرة ،بحملة يساهم فيها كل الأوربيين ، وانطلق ملك فرنـــسا في تنفيذ مخططه ،فاعد حملة لاحتلال هينين ومدينتها[1]

د- تصعيد شارل الخامس الصراع واحتلال مدينة هنين1541م[2]:

كان شارل الخامس قد قرر احتلال هينين كمرسى في وقت سابق من هذا التاريخ بنـــاء على نصيحة أسقف طليطلة،تمهيدا للإجهازعلى مملكة تلمسان الحليفـــة الـــسابقة ،وبالتـــالي الالتفاف على الجزائر من الناحية الغربية ،وقد أكد بيرني (Berni) ممثله في وهران في رســـالته أهمية ذلك [3]،غير أن الحصار الذي فرضه السكان على الميناء اضطرهم إلى الانسحاب منها عام 1534م بعد أن دمروا كل شيء[4] وبعد احتلاله لتونس .قرر من جديد إحياء مخطط الإجهاز على تلمسان، وفرض سلطة شبيهة بالسلطة الحفصية العميلة فوجه شارل الخامس أمرا إلى قائده

---

[1] وقد صرح شارل الخامس للبابا :"..إن الهدف ليس القيام بحرب ضد المسيحيين بل ضد المارقين ،أتمنى أن تصبح ايطاليا دولة مسالمة وكل واحد يحتفظ بحقوقه.." Braudel : le livre de poche, p12

[2]كانت مدينة هنين هي المرسى الطبيعي لعاصمة تلمسان ،نظرا لقرب المسافة بينهما ،إذ تقع داخـــل جـــون حـــسن ،في منتصف الطريق بين بني صاف وجامع الغزوات وبينهما وبين تلمسان على خط مستقيم -مسافة 45كيلومترا .وكان ملك تلمسان قد أرسل مددا لمرسى هنين عندما قام الاسبانيين باحتلال مدينة و هران في سنة 1509 .وقام بتحـــصينها وتنظـــيم الدفاع عنها نظرا لما لها من أهمية اقتصادية باعتبارها مركز المبادلات التجارية مع أوروبا بصورة عامة ومع البندقية بـــصورة خاصة .

[3]"... اعتقد أن احتلالنا لمرسى هنين إنما هو حادث عظيم جدا ، ذلك أننا باستقرارنا وبتمكننا من هذه البلدة ،نستطيع أن نعاقب ملك تلمسان، ونجبره على القيام بتعهداته ذلك أن الطريق من هنين إلى تلمسان ، اقرب واضمن من طريق وهران والمرسى الكبير وتستطيع من هذه البلدة ن دون عناء كبير أن ندخل مملكة تلمسان... "

[4] المدني :حرب الثلاثمائة سنة ... ، المرجع السابق ،ص- ص 237-239.

دون الفارودوبازان (Don Alvaro de Bazan) في شهر أوت 1541م،بـاحتلال مدينـة هينين ،و لم يتأخر القائد الاسباني عن تنفيذ الأمر ،فقاد جيشه المتكون من 11 سـفينة حربيـة بالإضافة إلى سفينتين ناقلتين للجنود،وأخذ معه العتاد ومواد تموينية تكفيه لمدة شهرين ،وأبحر من مالقه ليصل إلى مدينة هينين يوم 8 سبتمبر 1541م .واقتحم الأسطول الإسباني المرسى واحتل المدينة والقصبة،لم تكن المدينة تتوقع هذا الهجوم المباغت، كما أن الحامية القليلة العدد لم تكن متمركزة في مواقعها عندما وقع العدوان ،وعلى الرغم من ذلك فقد قاوم المواطنون عملية الغزو وقتلوا 40إسبانيا بالإضافة إلى مائة جريح [1] ،وكتب راهب –أسقف طليطلة إلى الإمبراطـور مبشرا بالفتح ،وكان في رسالته تحوي معاني الحقد والانتصار ويقول "هكذا تحقق الوعد لأبنـاء المسيح في احتلال إفريقيا... " .كان لهذا الاحتلال وقعا على إمارة تلمسان المنهارة إذ رأت فيه بداية للقضاء عليها، فعمل ملوكها على الخضوع أكثر للأسبان للإبقاء على بعض النفوذ.

هـ- خير الدين في ليبيا:

لم يكن باستطاعة خير الدين وهو يتابع شراسة الهجمة الصليبية اثر هزيمة تونس ،الوقوف في حالة من الجمود،فقرر توجيه ضربة للإسبانيين في قواعدهم،ووقع اختياره على مدينة ماهون عاصمة جزر البليار،والمدينة الأولى في جزيرة مينوركا.فقاد خير الدين أسطوله، إلى أن وصل إلى ماهون قام باحتلالها، وعاد إلى الجزائر،كان من أثر هذه الإغارة الانتقامية أن تناقصت أهمية انتصارات الإسبانيين في المغرب الإسلامي، وأخذت الشكوك في التعاظم حول أهمية ما تبذله القوات الصليبية طالما أن التهديد الذي تمثله الجزائر مازال قائما،وطالما أن الخطر الذي يمثله خير الدين ما زال مستمرا.

ترددت أصداء انتصار خير الدين-كالعادة-وبصورة متضادة في العاصمتين المتصارعتين (اسطنبول –و-مدريد)حيث كان الصراع قد وصل ذروته على كافة الجبهات خاصة بعد محاولة خير الدين فتح ليبيا إذ شعر بعد ضياع تونس وهنين أن عليه إيجاد قاعدة دعم جديدة لنضاله ضد الأسبان فقام بمحاولة تحرير طرابلس التي أصبحت من ابرز اهتمامات دار الخلافة منذ شعورها بضرورة نصرة المسلمين في الغرب، ونتيجة تحولها إلى قوة بحرية فاتجهت إلى تعزيز قوتها البحرية كهدف رئيسي لتنفيذ مشروعاتها البحرية وبسط سلطان الخلافة،وسطر هدفا هو

[1]Mantran :Op-Cit ,p301

تحرير طرابلس، وقد شجعت انتصارات خير الدين أهالي طرابلس على الاستنجاد بالخليفة سليمان لإنقاذ بلادهم من الفرسان المالطيين والأسبان. فأمر الخليفة خير الدين بنجدهم فبدأ بفرض حصار بحري على الموانئ الليبية و السفن المسيحية وقدم دعما للمقاومة الليبية إلا انه فشل في افتكاكها ،وظلت تحت سيطرة المسيحيين إلى غاية تحريرها من قبل أسطول الشمال الإفريقي –الأسطول الجزائري- العثماني، إذ قامت قطع منه بمهاجمة فرسان مالطا وطردهم من المدينة وصارت طرابلس ولاية تابعة للخلافة العثمانية يسيرها حاكم الجزائر وبدأت أعمال الترميم والصيانة للحصون والقلاع وبناء مساجد فنشطت الحياة التجارية في المدينة. وتحولت بذلك إلى قاعدة من القواعد البحرية الهامة في الساحل الشمالي الأفريقي للأسطول الإسلامي العثماني.

3- خير الدين في فرنسا:

بعد هذه الحروب العنيفة والشاقة قرر خير الدين استكمال تقوية أسطوله وفي سنة 1543م أمره الخليفة سليمانبالإبحا ر إلى فرنسا لمساعدة فرانسوا الأول ملك فرنسا ضد شارل الخامس، فوضع تحت تصرفه أسطولا مكونا 110 سفينة أبحر بها من قاعدتهم ارا بمضيق ميسين في 25 أفريل 1543م ليصل إلى ميناء طولون في 12جويلية ثم توجه إلى مرسيليا . فدمر في طريقه شواطئ كالا برا وأخذ قاييط في إقليم نابل وأرسى أسطوله بفيلا فرانكا التي احتلها وضرب الحصار على نيس بسواحل فرنسا الجنوبية التي كانت تحت سلطة شارل الخامس غير انه اضطر إلى رفع الحصار نظرا لتردد قائد الأسطول الفرنسي، ورفضه لخطة القصف والإنزال وقد أراد خير الدين تنفيذ نفس المخطط الذي اتبعه في استرجاع قلعة البنيون ،غير أن ظهور الأسطول الاسباني الذي كان يمول المدينة تحت رأسه الأميرال ماركي دي قاست (Morki De Guast)، وتمكنه من إلحاق هزيمة بالأسطول الفرنسي، دفعه إلى مراجعة خطته، فأعاد خير الدين المحاولة وحررها من أيدي الحاكم الاسباني دون سافوا (Don Safoua) ثم انتقل إلى طولون المرسى الحربي الفرنسي ،و بسط سيطرته عليه، وأمر فيها ونهى، وأقام الحكم والحدود والعقوبات وحول مدينة طولون إلى مدينة إسلامية[1]، ومكث بها حتى أبرم الصلح بين فرانسوا الأول وشارل الخامس سنة 1544

---

(1) ابن ابي زيان ابن اشنهو: المرجع السابق ،ص- ص 172-181

المبحث الرابع:مدى نجاح المشروع التوسعي الأسباني؟

نتيجة لفشل سياسة القوة والمشروع في آن واحد ، أن بدأ الأسبان في محاولة امتصاص الفشل بسياسة متعددة الأهداف سواء سياسة الإغراء التقليدية أو محاولة تفكيك الوحدة الطبيعية للمقاومة الإسلامية لمشاريعه:

1- سياسة شارل الاغرائية لخير الدين:

كان نتيجة الا نتصارات في تونس وهنين أن قرر شارل الخامس متابعة توسعاته في الجزائر وبقية المناطق، خاصة وهو المنتصر على خير الدين في تونس، لكن التعب والإنهاك الذي لحق بجيشه وأسطوله ومعرفته من عدم قدرته على متابع الهجوم ، أرغمته على الانسحاب عائدا إلى اسبانيا، وبعد أن تأكد من استحالة إضعاف الجزائر، و القضاء على خير الدين، لجأ إلى سياسة جديدة وهي محاولة إغراءه بالسلطة والجاه فكر في فتح المفاوضات مع خير الدين بإيعاز من مستشاريه ومجلس الكورتيس، فوجه في أواخر 1539م سفيره خوان قاليقو (Juan Gallego) إلى الجزائر حاملا مشروع الصلح ، غير أن خير الدين اشترط على سفير شارل الخامس الانسحاب من المرسى الكبير، وهران، بجاية وعنابة وحلق ألواد، وطرابلس مقابل كفه عن محاربة الأسبان، وأن يطلق سراح المسلمين مقابل إطلاقه لسراح الأسرى المسيحيين، ضمن عملية تبادل الآسرى وأن يكف عن اضطهاد رعاياه المسلمين بالأندلس ،وأن يزيل القرصنة من البحر ، ليصبح بحر سفن السلم والأسفار التجارية للمسلمين والمسيحيين.وبعد اتصالات دامت تسعة أشهر، كاد الصلح أن يعقد بين خير الدين المتمركز في ميناء قورفو (Gorfou) باليونان بالحوض الشرقي للبحر المتوسط وملك اسبانيا ، لولا تدخل الخليفة العثماني الذي رفض عقد الصلح بناء على إلحاح ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي يرى فيه خطرا كبيرا عليه، فانقطعت المفوضات في أوت 1540م.

فلجأ شارل الخامس عام 1541م إلى مخطط آخر، وهو إغراء خير الدين بحكم شمال أفريقيا كحاكم عام بالنيابة عنه مقابل إعلان التبعية له، ولن يكلفه إلا بدفع ضريبة جزئية ، وكان هدف شارل الخامس من ذلك انتزاع شمال أفريقيا من أيدي العثمانيين وجعلها منطقة نفوذ له ولقواته، معتقدا بسيطرته على هذه المنطقة سيجعل حوض المتوسط بحرا هادئا ومستقرا . وقد كلف لهذه المهمة وبداية المحادثات السرية سفيره جوان قاليقو مرة أخرى حاملا مشروعا آخر

فتلقى نفس الشروط [1] التي رفضها شارل الخامس فواصل محاولته بإرسال وزيره الونودي ارجون (Allandi Argone)والقبطان فرغاره(Ferguao) والدكتور روميرو(Romero) وبإشرافلندريا دوريا ، واظهر خير الدين هذه المرة استعدادا لتباحث واستقبال السفراء وتسلم الهدايا منهم ، وبنفس الوقت اعلم الخليفة العثماني بالأمر والخطة التي رسمها وبهذه الوسيلة تمكن خير الدين من معرفة الخطط التي يعمل وفقها الملك الاسباني وواصل محاورتهم لمدة سنتين[2] ، لكن الخليفة العثماني قرر وضع حد لهذه العملية ، فأمر بإلقاء القبض على الدكتور روميروبتهمة التحريض لموظف بالدولة على الخيانة ، وسجن في سجن الأبراج السبعة وهذه المحاولات الفاشلة كانت أسلوبا اسبانيا معمولا به ، فقد حاول حاكم وهران الكونت دالكوت (Comte d'Alkodette) هو أيضا، إغراء حسن باشا وخداعه وكانت النتيجة انهزام الحملة الاسبانية أمام الجزائر، بعد أن اطمأن حاكم وهران لخيانة حسن باشا آغا الذي انتهج نفس أسلوب خير الدين في التعامل مع هذه المواقف.[3]

2- حملة شارل الخامس الفاشلة على الجزائر:

وبمابأن الصلح أغلق نهائيا فقد قرر شارل الخامس محو الجزائر ع لى غرار ما فعل بتونس وهنين فجمع أسطو لا يوم 19 أكتوبر 1541 سماه"الأسطول الذي لا يقهر "، مستغلا رحيل خير الدين إلى مقر الخلافة بصفة نهائية ،ومستندا إلى فكرة أن تخليد اسمه ،لا يمكن أن يكون إلا بإخضاع الأقطار الإسلامية ،خاصة الجزائر لراية المسيح، وما شجعه على ذلك الأمر الصادر من بول الثالث عام 1541" إن بابا بول الثالث أشهر الحرب على الجزائريين وأن شارل الخامس قرر أن يكون هو بطل المسيحية.."[4] لتكون سنة 1541 سنة الحسم بالنسبة للجزائر.

لكن الحملة فشلت وفشل معها حلم الأسبان وملكهم، أما بالنسبة للمشروع الاسباني فقد شكلت سنة 1541 قمة التوسع الاسباني في شمال أفريقيا إذ أصبح الوجود الاسباني في حلق ألواد –عنابة – بجاية – هينين –فرسان مالطة في طرابلس وجربه ،وفي البحر المتوسط أسطول اندريا دوريا، وملوك تونس وتلمسان تحت وصاية ملك اسبانيا ، غير أن هذه السيطرة لم تحقق

---

[1] بن علي بن شغيب: المرجع السابق ، ص 113.

[2].Watbled(Ernest) et Monnerau :"Négociation entre Charles Quint et Khair-eddine (1535-1540)" R.A N° 15 ,1871, p 139.

[3] المدني :حرب الثلاثمائة سنة.... ، المرجع السابق ، ص 281.

[4] ابن أبي زيان بن اشنهو: المرجع السابق ،ص-ص189-190.

أهدافها إظل الوجود الاسباني محصورا في الحصون ، وانتصار تونس لم يكن كاملا ،وأصبحت الجيوش الاسبانية في حصونها ينقصها السلاح والمئونة أمام الأهالي النـــاقمين، علـــيهم إذ ظـــل الداخل بعيدا عن السيطرة .

فكل قوى اسبانيا كانت موزعة على الكشف الجغـــرافي ومقاومـــة ثـــورات الأســـبان والمسلمين، وقوات البروتستانت في ألمانيا ووقف التوسعات العثمانية ومحاولة تحطيم التحـــالف الفرنسي العثماني.والعامل الأساسي في فشل مشروع اسبانيا هو اكتفاء الأســـبان بـــالاحتلال المحدود ومسك المواقع الإستراتجية ، فكانت الحصون في حالة الحصار الدائم ودفعت العديد من الجنود إلىالفرار واعتناق الإسلام [1]،كما تركت الحاميات في عزلة تامة ينقصها الغذاء ، وكل المؤنالتي يتم شرا ؤها أو مصادرتها كانت لا تكفي،وحتى الرسائل لاتصل إلى اسبانيا، وقد كتب حاكم وهران عام 1536لقد" حان الوقت للرحيل فلا غذاء ولا مال والجنود يعانون كثيرا ..،،.أما المفتش العام الذي أرسله الأسبان إلى عنابة اقتنع هو أيضا أن معاناة الجنود الأسبان قد بلغت مستوى قد تدفع الكل إلى الفرار خاصة وان اغلب الجنود يعيشون مع عائلاتهم.

كان قرار شارلغزلو الجزائر بداية انهيار المشروع الاسباني ،[2] إذ بعد سيطرته على تونس قرر احتلال الجزائر ، فحاول عقد صلح مع ملك فرنسا ،وتكليف هذا الأخير بإغراء خير الدين بترك خدمة الأسطول العثماني مقابل الاعتراف له بالسيادة والسلطة على شمال أفريقيا[3]،كمـــا حاول الكوديت فتح أبوالاتصال مع حسن آغا بهدف تسليم الجزائر للملك الاسباني مقابل تعينه حاكما عليه[4] لكن كل هذه المحاولات فشلت وأجهض المشروع الاسباني.

3- محاولة خير الدين التصدي لحملة شارل الخامس1541:

حينما قرر شارل الخامس احتلال الجزائر أمر الخليفة، بعد أن علم بالاستعدادات مـــن الـــسفير الفرنسي خير الدينالذي اخذ هو الآخر علما بالحملة من رسول حسن اغـــا، بتجهيـــز 80 سفينة للتصدي للأسطول الاسباني ومساعدة الجزائريين فانطلق يوم 14جويلية 1541 من فليبه

[1] جوليان: المرجع السابق ، ص 325.

[2] Rosseuw:op-cit , Tome VII, pp 186-190
[3] Watbled et Monnerau: op-cit p 138
[4]Berbrugger :″ Négociation entre Hassan Aga et le Comte d’Alcaudete1541-1542″,R.A N°9,pp379

بأسطول مشكل من 100سفينة ، وقسم أسطوله إلى قسمين قسم يتجه إلى السواحل الاسبانية لضرب الأسطول في الميناء أو لمحاولة قطع الطريق أمامالحملة وكلفه بتد مير الأسطول الاســـباني أثناء تسليحه وتجهيزه وقسم يتجه إلى الجزائر لتدعيم القوة الجزائرية في حالة إذا تمكن الأسطول الاسباني من تجنب الكمين الذي نصبه خير الدين إلا أن الأسطول الإسلامي اجبر على الرسوا في إحدى الجزر القريبة من السواحل الايطالية تجنبا للعاصفة التي ضربت المنطقة [1]وحالما بلغ السواحل الإفريقية علم بان الأسبان قد هزموا وان أسطولهم المتبقي قد عاد منسحبا إلى بـــلاده فعاد خير الدين إلى اسطنبول في منتصف جانفي 1542.

كان شارل الخامس قد نجا بأعجوبة من خطر كبير ، إذ انه لولا العاصفة لما تـــأخر خـــير الدين ولتمكن من القضاء على أسطول العدو المنسحب .وكانت نتيجة الهزيمة أن شوهد شارل الخامس لأول مرة في حياته منهارا باكيا على الكارثة التي حلت به خاصة بعد أن اتفـــق كـــل قادته بتأجيل الهجوم في الاجتماع الذي عقد في رأس ماتيفو والذي خصص لبحـــث مـــسألة تنظيم هجوم جديد أو الانسحاب رغم المعارضة التي قادها حاكم وهران والقائد فرناند كورتيز اللذان طلبا منه أن يعهد لهما بجيش لقيادة هجوم مضاد جديد.

و تلقى حسن آغا والي الجزائر و نائب خير الدين لقب الباشا مكافأة له على ما قدمه من جهد، و ما بذله من تضحية، و ما أظهره من كفاءة في إدارته للبلاد و إحباطه للهجمة الصليبية التي قادها شارل الخامس [2] و التي كان له فضل لا ينكر في إدارة حربها، و مضى حسن باشا[3] لحشد الإمكانات و القوى بمجرد الانتهاء من معركته و عمل على استثمار الظفر فتقدم على رأس جماعة قليلة من الجيش إلى بسكرة و غيرها من بلاد الزيبان و ما يحيط بهـــا حـــتى تخـــوم الصحراء، و أسفرت رحلته هذه عن ضم هذه الجهات إلى النظام الجديد الذي ثبت جذوره في العاصمة الجزائرية.[4]

---

[1] وهي ذات العاصفة التي قضت على الأسطول الدولي المسيحي بقيادة شارل الخامس أمام سواحل الجزائر

[2]Offman(D) :Britons in the Ottoman Empire1542-1660,Seatel and Landers publication ,1989,pp85-86.

[3]حسن آغا كان أخذه بحارة الجزائر وهو ولد صغير يرعى الغنم في شواطئ جزيرة سردينيا وتولاه خير الدين ورباه تربية أولاده وكان أكملهم إنسانية وأخلاقا سامية وأعظم القادة وكان محل ثقة خير الدين واستخلفه في غيابه سنة 1530-1533-1535 واستطاع أن يهزم أعظم قوة معادية بقيادة شارل الخامس وتوفي في شهر سبتمبر 1534 ودفن بمقبرة باب عزون بالجزائر العاصمة

[4]Pamuk Amonetary(S) :History of the Ottoman Empire ,Camberley ,2000,p144.

استنتاج جزئي

لم تكن حروب خير الدين في البر والبحر إلا نوعا من حروب الإيمان التي عرفها المسلمون . ولقد كشفت عن الملامح العامة لسيرة خير الدين أن هذا القائد العظيم قـد جابـه في حياتـه صعوبات لانهاية لها بل إن هذه السيرة لم تكن أكثر من سلسلة من العقبات والصعوبات لم يكن أقلها مجابهة كانت متفوقة على قوته بما لا يمكن قياسه أو مقارنته في موازين القوى التقليدية، و لم يكن أقلها أيضا ال تعرض لنكسات مريرة وصلت به إلى حد التجرد من كل القوى، إلا قوة الثقة بالنفس والإيمان الذي لا حدو د له والتي لم يكن أقلها كذلك فقد الأعزاء – إخوته في الدم وفي الجهاد في سبيل الله حيث سقط اثنان فوق ثرى المغرب العربي الإسلامي- والأمر مماثـل فيمـا تلقاه خير الدين م ن الغدر على أيدي أعداء الداخل من الخونة والذين خذلوه مرة بعد أخرى ، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمه أو ينال من عزيمته ثم جاءت أخطار البحر والجوع والعطش والحرمان كلها لتحتل مكانتها في جملة ما جابهه خير الدين من العقبات والـصعوبات .فلـولا الإيمان المطلق ولولا ما يفرضه هذا الإيمان من فضائل كثيرة : كالوفاء والإخلاص وإنكار الذات و الاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها لما فكر الإخوة أبناء يعقـوب في نجدة المسلمين سواء في الأندلس أو الشمال الإفريقي.ولما ساهموا في إحباط اخطر مشروع بعـد الحروب الصليبية الأولى والهادفة إلى تمسيح البلاد الإسلامية.فبعد تكوين إيالة الجزائر اسـتطاع خير الدين أن يؤثر في مجرى الأمور بشمال إفريقيا ، و يوحد هذه البلدان ،وأن يطهـر البحـر المتوسط من قراصنة أوروبا بحيث تمكنت القوات الجزائرية و العثمانية من إخراج الاسبانيين من تونس و طرابلس في القرن 16م فكان إنقاذ شمال إفريقيا من الاستعمار الإسباني هدفا وضـعه الإخوة أبناء يعقوب واليهم يرجع الفضل في بقاء شمال إفريقيا مسلما .

مقدمة

لقد تجسدت النزعة الثابتة في المغرب الأوسط بإقامة سلطة سياسية لها حدودها القارة تحت إدارة جزائرية، واعترفت الد ولة بالخلافة باستانبول [(1)]،وتكفل خير الدين بتحقيق ذلـــك مـــن خلال إقامة دولة قوية ما فتئت بعد وفاته أن استقلت عن الخلافة وأصبح حاكمها ينتخـــب في الجزائر[(2)] وقد ساهم الخطر الاسباني في تجسيد وحدة الجزائر الترابيـــة بالإضـــافة إلى التهديـــد المزدوج للشركات الاحتكارية الأ جنبية والقرصنة المسيحية لمدينة الجزائر ذات الطابع التجـــاري البحري والتي غذاها استقرار الأندلسيين التي لم تقنع بسلطتها الإقطاعية وقامت بالانقلاب عل يها مفضلة دولة عصرية لا نظام لشيوخ قبيلة الثعالبة فيهافي ظل سعي الـ قوى المسيحية في حـــوض البحر المتوسط السيطرة عليها.[(3)]فقد كانت الجزائر دولة مستقلة وكان لها علم وعملة وجـــيش وعلاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى ولكنهافي الوقت نفسه تعترف بالخلافـــة الإســـلامية احتراما للرابطة الإسلامية إذ كانت ترسل إلىالخليفة في كل ثلاث ســـنوات هديـــة كرمـــز للخضوع والاعتراف [(4)].

وبفضل التنظيم الإداري تمكنت الجزائر من التمتع بكيان معترف به دوليا وتمارس استقلالا حقيقيا في نطاق الرابطة العثمانية التي أساسها المصلحة المتبادلة والروابط الروحية فـــان بعـــض الممارسات التي قامت بها الطائفة العثمانية في الجزائر قد أخلت بهذه الرابطـــة، كمـــا عملـــت التنظيمات الإدارية الإبقاء على التقاليد المحلية المتأصلة مثل وظائف شيخ البلد، والسلطة المدنيـــة والتي تفسر وجود حكم وطني، رغم ما شاب عملية الإسناد للمناصب لغير أصحابها في بعـــض الأحيان لكن بقي الحكم بنظامه الإداري مرنا وذو فاعلية وبسيط.[(5)]

---

(1) نوشي وآخرون :المرجع السابق ، ص 123.

(2) بوشعير (سعيد) : النظام السياسي في الجزائر، ط2، دار الهدى، الجزائر، 1993، ص 6.

(3) ارشيبالد: المرجع السابق، ص 399-415.

(4) سعد الله : أبحاث وأراء في تاريخ .... ،المرجع السابق ، ص 248

(5) سعيدوني(ناصر الدين) وبوعبدلي(المهدي) : في التاريخ الجزء 4 العهد العثماني م.و.ك، الجزائر 1984 ، ص 22.

المبحث الأول: مؤسسات الدولة الجزائرية:

يعود الفضل في انتقال الجزائر من العصر الوسيط إلى العصر الحديث لأخوة عروج وخير الدين[1]، كما أن قبول الجزائر بالانضواء تحت الخلافة، كان بمثابة إنقاذ لهذه البلاد من الخطر الاسبلي.تمتعت الجزائر في ظل هذه الحماية بمكانة مرموقة وهيبة دولية وتو طدت ركائز الحكم وانتشر الأمن بربوعها فبين سنة 1522 -1567 تميزت الناحية الشرقية، على الخصوص بإقامةالثكنات العسكرية وبسط سيادة الدولة .[2] لم يقع ميل الدولة الجزائرية إلى منح الاستقلالية الكاملة للأقاليم كما لم يقع الميل نحو المركزية الشديدة التي أدت إلى تشتيت دول شمال إفريقيا الأخرى على الأخص المغرب الأقصى. [3]

كانت سلطة حاكم الجزائر الأعلى في بداية العهود الأولى تشمل ولايتي تونس وطرابلس ولكل منهما حاكم تحت نظر حاكم الجزائر ثم اقتصرت السلطة على الجزائر وكان حكام الجزائر يدينون بالطاعة للخليفة يقتبسونالنظم من الخ لافة العثمانية في تحديد الوظائف بالإضافة إلى الإبقاء على الطابع المحلي للبعض الأخر كما استندت على مقومات القانون الإسلامي شريعة قانونية كاملة بالإضافة إلى العادات والعرف[4] لكن فيما بعد اتجهت إلى اكتساب شخصية كاملة.

ا - التنظيم الإداري:

كانت الدولة الجزائية الجزائرية عبارة عن جمهورية [5] تربطها بالخلافة علاقات دينية واتفاقات شكلية وقد اعتبر رؤساء الدولة الجزائرية أنفسهمحلفاء للخليفة العثماني ، كما كانت السلطة المركزية بالجزائر هي التي توجه السياسة العامة للبلاد وأن أي تغيير يحدث في النظام الجزائري يتحكم فيه رأي الديوان الذي يعود له اختيار نوع الحكم باعتبارها كيانا مستقلا عن دار الخلافة .يعتبر عصر الباي البايات - أمير الأمراء- 1514-1587م أزهى العصور بتداخله مع

---

(1)Fisher :Op-cit,p 17.

(2) فركوس (صالح) : الحاج احمد باي قسنطينة (1826-1850) ، د.م.ج ، الجزائر ، 1993 ، ص.ص 11-12.

(3) سبنسر : المرجع السابق ، ص46.

(4) سعدالله : شعوب وقوميات ، م.و.ك ،الجزائر ،1988 ، ص 74.

(5)هناك من يرى الجزائر جمهورية عسكرية، ويذكر آخرون أنها كانت مملكة والواقع أنها لم تكن هذه أو تلك وإنما كانت تحكم بنظام خاص لم يعرف في أي بلد أخر , أهم ميزاته انه كان يجمع بين الصيغة المدنية والعسكرية .

عصر الفتح 1512بقيادة بابا عروج وخير الدين [1] إذ ازدهرت البلاد في النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية والذي يقسم بدوره إلى دورين الدور الأول ويمتد من 1514م إلى 1544م وهو عصر الفتح والتمهيد ودام 30سنة ،يبدأ بقيام الدولة الجزائرية الأولى وانتهاء بولاية حسن آغا والدور الثاني يبدأ من 1544 إلى 1587 وتبدأ من ولاية حسن بن خير الدين الأولى ويمتد إلىغاية بداية عصر الباشاوات وبلغ عدد رؤساء هاذين الدورين تسعة عشرة رئيسا.

كان أول تنظيم إداري للجزائر،هو القرار الذي اتخذه عروج ثم خير الدين بتقسيم البلاد إلى إقليمين : الناحية الشرقية ونصب عليها ابن القاضي وعاصمته كوكو ببلاد القبائل ومحمد بن علي على الإقليم الغربي واحتفظ هو بالجزائر وكان يهدف من وراء هذا التقسيم أن يحكم معتمدا على ولاة من أهل البلد[2] وأوجد مجلسا مشكل من الشيوخ و العلماء ورجال الدين . وبعد قيام الدولة الجزائرية بصفة رسمية، وقصد تحقيق الانسجام أكثر في الوظائف والقيام ببعض الخدمات العامة ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي قسمت الجزائر إلى أقسام استحدثها لأول مرة حسن بن خير الدين في حكمه للمرة الثالثة [3] بتنظيمه للإدارة التي كانت تسير من قبل رئيس الدولة يعاونه خمسة أعضاء يكونون مجلسا استشاريا وتم تقسيم الجزائر إداريا إلى:

دار السلطان: وهي عبارة عن مقاطعة إدارية توجد بالجزائر العاصمة ونواحيها وكانت منطقة حرة، ويوجد بها مقر رئيس الدولة [4] ،وتمتد هذه المقاطعة من مدينة دلس شرقا إلى مدينة شرشال غربا ،ويحدها من الجنوب بايلك التيطري

---

[1] المدني:محمد عثمان باشا ، م.و.ك، الجزائر،1986،ص 34.

[2] المدني : محمد عثمان.... ،المرجع السابق ،ص 25

[3] بن علي بن شغيب :المرجع السابق، ص 72

[4]مقر رئيس الدولة هو قصر الجنينة الذي كان في الواجهة المقابلة لمدخل المدينة الرئيسي وهو عبارة عن قصر واسع محيطه حوالي 200قدم طولا و 40قدما عرضا وهذا حتى أيام الداي علي الذي نقل مقر الحكومة إلى القصبة في سنة 1817 وكان مدخل القصر يتخلله رواقان بالأقواس تدعمها الأعمدة الرخامية التي تمتد على طول عرض البناية بكاملها وفي الخلفية قاعتان واسعتان حيث يجتمع الديوان ليتداول في قضايا الدولة.

بايلك الشرق: ويعتبر اكبر المقاطعاالموجودة في الجزائر، حيث انه يمتد من الحدود التو نسية شرقا حتى بلاد القبائل غربا، ويحده من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب الصحراء، وكانت مدينة قسنطينة عاصمة هذه الولاية.

بايلك الغرب:الذي كانت عاصمته مازونة حتى سنة 1710 ثم نقلت إلى معسكر وعندما استرجعت مدينة وهران من الأسبان عام 1792 صارت هي عاصمة الولاية التي تمتد من الحدود المغربية غربا إلى ولاية التيطري شرقا ومن البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، وتأتي في الدرجة الثانية من حيث المساحة بعد ولاية الشرق.

بايلك التيطري: كانت عاصمته مدينة لمدية وهو اصغر مقاطعات القطر من حيث المساحة والامتداديحده من الشمال سهل متيجة و من الجنوب الصحراء ، وقد تقلصت سلطته واقتصرت على ولاية التيطري[1] دون مدينة لمدية التي كلف بإدارتها حاكم يخضع مباشرة لأغا العرب المتصرف في دار السلطان ، وذلك للحد من نفوذ الباي والتقليل من قوته نظرا لقربه من العاصمة.[2]

II-التنظيم السياسي:

يعود انتقال الجزائر من العصر الوسيطإلى العصر الحديث الفضل فيها لإخوة أبناء يعقوب، كما يعود الفضل في وحدة التراب الجزائري ، وبروز قيادة سياسية موحدة دعمت بشكل إلى خير الدين الذي أقام دولة المدينة وخلق انسجاما وفرض الطاعة والولاء للدولة واحترام القانون العام، فقد كان يخضع الكل إلى الشريعة الإسلامية وكانت روح التسيير تتسم بالديمقراطية مطلقة كان للكفاءة كان العمل أكثر قابليةلتولي المناصب من الولاء والعلاقات العائلية [3] كما قامت القيادة بتحرير جميع المناطق المحتلة ووضعتها تحت إشراف مسؤولين وسنت للدولة دستورا خاصا[4] واستطاعت القضاء على الفتن والنظام القبلي في شكله التقليدي ووضعت نظاما

---

[1] بوحوش(عمار): التاريخ السياسي للجزائر من البداية والنهاية 1962 ،ط1 ،دار المغرب الإسلامي ،بيروت،ص،ص62-63.

[2] سعيدوني وبوعبدلي : المرجع السابق ص 20.

[3] سبنسر: المرجع السابق ، ص ص52-56.

[4] وقد حاول الداي خليل عام 1659 إدخال بعض التعديلات بان قدم مشروع التعديل إلى المجلس غير انه رفض بسبب طبيعة الحكم الذي أدرج في التعديل والذي يمنح الصلاحيات الواسعة للداي وفي عام 1671 قام الداي علي آغا بتنظيم النظام الدستوري بتقليد النظام التونسي في ما يخص سلطة الداي وتم حل الديوان ونصب ديوان آخر وانتخب الداي

دستوريا مؤسساتيا وهذا التنظيم كان يحمل في طياته تكوين دولة وطنية [1] و استكمل تنظيماته واستقرت أجهزته مع نهاية القرن الثامن عشر، بحيث أصبحت السلطة التنفيذية [2]بيد الـــداي يساعده ديوان خاص بينما يقوم بتنفيذها موظفون يشكلون الديوان الكبير تمثلت السلطة أساسا في:

1- السلطة السياسية والمدنية المركزية:

أ - الداي أو رئيس الدولة:

وهو رئيس الدولة والقائد العام للقوات المسلحة ،وبصفته المسؤول الأول عــــن سياســـة الجزائر الداخلية والخارجية فقد كا ن يمارس كل صلاحيات السلطة السياسية المتمثلة في : تطبيق القوانين المدنية والعسكرية وتوقيع المعاهدات واستقبال السفراء المعتمدين لدى الدولة وكـــذلك اختيار الوزراء وحكام المقاطعات والإشراف بنفسه على مراقبة إيرادات الدولة وخزينتـــها .[3] كما تتصل بمهامه إقرار الأمن والمحافظة على النظام وتوفير المداخيل الضرورية للإنفـــاق علـــى موظفي الدولة والسهر على رعاية مصالح الدولة وقد جمع الداي فيما بعد بين المنصب التنفيذي واللقب الشرفي (التعيين من الخليفة) للإبقاء على الرابطة الإسلامية. ليس للداي سلطة غير الأمر بتطبيق القوانين المد نية والعسكرية والإشراف على حصون المدينة وتنظيم الجيـــوش ومراســـلة القبائل المختلفة قصد التهدئة والمحافظة على الأمنكما تدخل في اختصاصاته ، الماليـــة العامـــة وتنظيم إدارتها وكذلك تعيين الوزراء وغيرهم من أعضاء حاشيته، ومن خـــلال هـــذا النظـــام السياسي فقد تمكن الجزائري ونهن الترابط وتشجيع النشاط الاقتصادي [4].ويعتبر الداي أيـــضا

=والديوان وأصبح الداي رئيس الديوان ومهمته تتمثل في تنفيذ القرارات الصادرة عن الديوان والإدارة الداخلية للدولة والمالية العامة وقام بإرسال أعضاء الديوان إلى عاصمة الخلافة لإعلام الخليفة بهذه التغييرات وتحصلت على الاعتماد وتم إقرار أن الاعتمادات المالية المخصصة بالجيش ستكون من خزينة الدولة الجزائرية وتوقفت الخلافة عن تخصيص ميزانية للجزائر

[1] محمد كامل (ليلى):النظم السياسية –الدولة والحكومة – دار النهضة العربية ،بيروت ،1969 ، ص 17-19.

[2]Raymonde (André) : North Africa in the Pre-colonial Period,Combridge History of Islam,Combridge University Press ,1970,p282.

[3] الهندي (محمود إحسان) : الحوليات الجزائرية . العربي لإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، دمشق سورية، 1977 ،ص 49.

[4] الجرف (طعيمة):نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم –دراسة مقارنة- ،دار النهضة العربية ، القاهرة ،1978 ،ص.ص75-76.

مصدر السلطة السياسية والعسكرية فالقضايا المدنية (بيع ، الشراء ، الإيجار ، الزواج ، الطلاق) كان الداي يفوض القضاة للنظر في هذه القضايا والمنازعات.

طرق تعيين رئيس الدولة:

بعد وفاة الرئيس يجتمع الديوان كما تنص القوانين وتوفر شروط الانعقاد يتم انتخاب الرئيس الجديد ثم يجلس على كرسي الحكم وقد ارتدى قفطان الداي الراحل ،بعد ذلك يؤدي اليمين القانونية ويحتفل بتعيينه وعندما تنتهي عملية التنصيب يكلف احد الأشراف بالذهاب إلى مقر الخلافة للحصول على التزكية وتكتب الرسالة تحمل إمضاء وخاتم كل واحد من أعضاء الديوان وخاصة القاضي والمفتي ونقيب الأشراف ويوافق أعيان المدينة على ذلك كما تتضمن الرسالة الإعلان عن وفاة الرئيس وتولي الرئيس الجديد وإعلان الولاء و التبعية للخليفة.

ب - الديوان:

- **الديوان الكبير:**

وهو الديوان الذي كان امتدادا لمجلس أعيان مدينة الجزائر وكان يتألف من 700 عضوا إضافة إلى ضباط الجيش ويجتمع أربع مرات في الأسبوع. ولمتولي المسؤولية في هذا الديوان أن يقضوا عدة سنوات في دراسة الشؤون الإدارية والحكوميةالضرورية لعضوية الديوان حيث يجتمعون عند شيخ البلدة ، أو نقيب الأشراف ذلك لان الديوان هو المجلس الأعلى للحكومة الجزائرية المكلف بمراقبة جميع أعمال الحكومة [1] ،لا يمكن أن يصبح الإنسان عظوا في الديوان إلا إذا توفرت فيه الشروط التي ينص عليها القانون:

- يجب أن يبرهن عن خبرة ومقدرة المكتسبة من شيخ البلدة ونقيب الأشراف.
- أن يكون قد عمل في الجيوش البرية والبحرية.
- أن يكون متزوجا.

- **الديوان الصغير:**

كان الساعد الأيمن لرئيس الدولة إذ يظم الشخصيات المقربة إليه والتي يعتمد عليها في تنفيذ سياسة الحكومة التي يقودها ،والديوان هو بمثابة مجلس الوزراء ويعقد اجتماعاته في قاعة

---

(1) خوجة(حمدان بن عثمان):المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق الزبيري(محمد العربي) ،ط2 الشركة الوطنية للنشر والإشهار ،الجزائر ،1982 ص -127-131.

مرصعة بالمرايا[1] يوميا لدراسة المسائل العادية المسجلة في جدول أعماله أما اجتماع يوم السبت فكان يخصص لدراسة المسائل ذات الأهمية وكانت دوراته تتسم بالمساواة الكاملة لأعضائه في المناقشة والتصويت إذ يتم العمل بانتظام سريع وكل القرارات تسجل.[2]

يتكون الديوان المصغر من 35 شخصية مدنية وعسكرية تشرف على تسيير شؤون الدولة في المسائل المالية والعدالة والأمن، بالإضافة إلى القاضي والمفتي وغيرهما من الشخصيات المرموقة الوطنية والمختارة بعناية من العائلات الشريفة التي تساعد الرئيس في أداء مهامه والسهر على نظام الدولة وديمومته، وهؤلاء الموظفون يتفرعون بدورهم بحكم مهامهم وصلاحياتهم إلى جماعات أخرى من الموظفين الصغار والمصالح فبالنسبة للموظفين نجد:

1. الخز ناجي: وهو بمثابة وزير المالية حيث يعتبر مسئولا عن خزينة الدولة ولا يمكن أن تفتح الخزينة إلا بحضوره لأنه الوحيد الذي يحتفظ بمفاتيح الخزينة العامة كما يقوم بتسليم المداخيل ويشرف على الإنفاق ويراقب السكة ويساعده في مهامه أمين السكة وبعض الموظفين.[3]
2. الآغا: وهو قائد الجيش البري أو آغا عسكراو قائد فرق الوجاق والفرق المتطوعة والصبايحية[4] ويتلقى أوامره المباشرة من الداي، كما يتولى مراقبة قيادات متيجة والساحل والأوطان ودار السلطان.
3. خوجة خيل: وهو المشرف على أملاك الدولة حيث يعتبر المسئول الأول عن جمع الضرائب وصيانة أملاك الدولة وإعادة استثمارها والاتصال بالقبائل عند تعاملها مع الحكومة خاصة في تمويل الجيوش أثناء الحرب كما كان المراقب للعلاقات بين العاصمة والولايات.[5]
4. بيت مالجي : وهو المسؤول عن جميع المسائل المتعلقة بالوراثة وتحديد نصيب خزينة الدولة من الميراث أو من الأملاك التي تصادر سواء بسبب عزل الموظفين أو وفاتهم أو

---

(1) سبنسر :المرجع السابق ،ص 64-66.

(2) قنان(جمال) : نصوص ووثائق في التاريخ الجزائر الحديث 1500-1830 المؤسسة الوطنية للطباعة الجزائر 1987 ص ص 106-107.

(3) سعيدوني و بوعبدلي: المرجع السابق ، ص 17.

(4) الفرق الجزائرية

(5) Laroui :op-cit ,p246.

لغيابهم الدائم عن الجزائر ويتولى هذا المسؤول في حالة الغيابتسيير العقارات والأموال الموروثة وعند وفاة بيت مالجي فان جميع أمواله والثروات المتوفرة لديه تذهب إلى خزينة الدولة كما يشرف على الأعمال الخيرية كتوزيع الصدقات والتكفل بدفن الفقراء المعدمين يساعده في هذا قاض وموثقان وكاتب ضبط ومسجلون وهي هيئة تشرف على مراقبة تركات جميع الأشخاص الذين يتوفون ، والأولياء هم الذين يقدمون إليها المعلومات ولا يمكن أن يقبر الميت إلا بأمر من رئيس هذه الهيأة التي تعين حقوق الورثة وإذا كانوا متغيبين فان القاضي الخاص يقوم صحبة احد المسؤولين السامين بتعيين وكيل لهم ، وأوصياء بالنسبة للقاصرين، وإذا كانت هناك وصية ينفذ محتواها بعد تسجيلها والتأكد من صحتها و عندئذ يؤذن بحمل الميت ،ويذهب الموثقان إلى محل سكناه يقيدان جميع الأشياء الموجودة وتحفظ إلى حين توزيعها على الورثة وان كان الميت أجنبيا مجهولا أو كان أهله متغيبين فان هذه الهيأة تمثلهم،فتبيع التركة بالمزاد العلني وتحتفظ بالقيمة كوديعة مقدسة بعد خصم المصاريف المقدرة بـ 10%، ويودع المبلغ في صندوق عمومي بعد أن يسجل مقداره في ثلاثة سجلات ولا يستطيع احد أن يتصرف فيه إلا بإذن شرعي وتعتمد قوانين بيت المال على مبادئ الشريعة الإسلامية . ولا يستطيع أي من الأشخاص التصرف في الأموال المودعة استنادا إلى ذلك.[1]

5. وكيل الخرج: وهو المكلف بالشؤون الخارجية مع الدول الأجنبيةوعن كل ما له علاقة بالبواخر والتسليح والذخيرة و التحصيناتومواجهة الخصوم في عرض البحر ، كما يراقب النشاط البحري.

6. الباشا كاتب : وهو الأمين العام للحكومة إذ تم استحداث جهاز للدولة في شكل أربع رسميين سمي بمجلس كتاب الدولة [2] حيث يتولى تسجيل وصياغة جميع القرارات التي يتخذها الديوان في اجتماعاته اليومية تحت إشراف الداي ، وفي جمع القرارات في سجل عام وكان الباشا كاتب يبدأ الكتابة بعبارة تقليدية " نحن باشا ديوان جند الجزائر المنيع".[3]

---

(1) خوجة: المرجع السابق ، ص 137.

(2) سبنسر :المرجع السابق ص66.

(3) الهندي:المرجع السابق، ص 53.

إضافة إلى هؤلاء كبار المسؤولين في الدولة الذين يعتمد عليهم الداي في تنفيــذ القــرارات وسياسة البلاد ، كان هناك موظفون سامون يقومون بأعمال محددة تدل على حسن التنظيم السياسي الموجود في الدولة الجزائرية ، ومن جملة هؤلاء:

أ- الكاتب الأول : المسؤول عن المراسلات الخارجية والداخلية والمــشرف علــى ثــلاث سجلات خاصة بأموال الدولة –رواتب الجنود – رواتب رجال الجمارك وكل ســجل يمسكه كاتب خاص.

ب- الكاتب الثاني : ويتابع ويراقب السجل الخاص بالجنود استنادا إلى السجل الموجود لدى الكاتب الأول.

ت- الكاتب الثالث: ودوره يكمن في متابعة ومراقبة المعلومات الموجودة بسجل أموال الدولة وذلك انطلاقا من النسخة الثانية التي يستلمها من الكاتب الأول.

ث- الكاتب الرابع: ويكمن دوره في ضبط السجل الثاني من إيرادات الدولة من الجمــارك الذي يسلمه له الكاتب الأول. تسند وظيفة الكتاب إلى الفئة ا لمتعلمة والمثقفة ويتولــون مسؤولية العديد من المصالح مثل مصلحة الضرائب المستحقة على الأشجار لتغذية دودة القز الحريرية – مصلحة المياه إلى جانب المصالح الديوانية. [1]

ج- رئيس التشريفات : أو البروتوكول وهو بمثابة مدير البلاط ، وينحصر دوره في تــسهيل عمليات الاتصال بين الداي والشخصيات التي يستقبلها ويتميز بمعرفته للغات الأجنبيــة بالإضافة إلى العربية والتركية.[2]

ح- الحكيم باشي : وهو رئيس أطباء القصر.

خ- الشاوش : وهو الحاجب أو البواب الذي يتولى مراقبة الــدخول والخــروج إلى قــصر الحكومة.

ج-السلطة المدنية :

وهي الإدارة المدنية ، يتولاها شيخ البلد ، ونقيب الأشراف ،فشيخ البلد ، يمارس مهاما محدودة كالإشراف على أمناء الحرف وجمع الضرائب المفروضة على الأنــشطة التجاريــة والمحــلات

---

[1] آجقوا : النظام السياسي والمؤسسات.... ، المرجع السابق ،ص 37.

[2] بوحوش: المرجع السابق، ص.ص 65-67.

والحفاظ على الأمن العام عن طريق الشرطة ،والمؤسسات العمومية والجمعيات الخيرية و المستشفيات ،نظافة المدينة إلى جانب مراقبة الأسواق منعا للغش وتطبيقا لقانون الأسعار والمكاييل والحراسة الليلية . أما نقيب الأشراف فهو بمثابة حاكم يختار من الأسر الشريفة للإشراف على المجلس البلدي المكون من شيخ البلد وأمناء النقابات الحرفية لدراسة أوضاع المدينة والإشراف على امن المدينة وتجنيدالمتطوعين في حالة الحرب و إعلان التعبئة العامة، الى جانب القيام بدور الوساطة لحل الخلافات والتراعات التي قد تقع بين السلطة والشعب والإشراف على تدريب الجنود [1]وهذا النظام يماثله النظام الإداري المعمول به في المقاطعات أو الولايات.

2-نظام الولايات

أ - بـاي المقاطعة:

وهي المرتبة الثانية من حيث تدرج السلطة بعد رتبة الآغا, وعلى كل واحد من هؤلاء البايات أن يؤم مدينة الجزائر ويقدم تقارير عن إدارتهما يقدم بنفسه فائض المداخيل إلى الخزينة العمومية كل ثلاث سنوات ويكون المبلغ مساويا لثمن مداخيل في السنة ويشرف على تسيير مقاطعة مضبوطة الحدود، و يعتبر كل باي مسؤول عن إدارته[2]، و يدافع حدود مقاطعته ويستعين بقبائل الدوائر وأهل المخزن لحمايتها، كما كان يعتمد على قائد شؤون الأوطان الذي يشرف على التقسيمات التقليدية القبلية كممثل للسلطة.[3]

إن الأجزاء التي توجد بها أملاك وطنية تخضع في إدارتها وتسييرها لخوجة الخيل، أما الأراضي الكائنة في ضواحي مدينة الجزائر والتي لا تدخل في ممتلكات الدولة ولا في مقاطعات البايات الثلاثة فإنها تكون تحت تصرف الآغائيس القوات المسلحة ،وعندما يموت الباي فان الواجب يقتضي بان يكون خليفته صهرا لشيوخ العرب ومطلعا بكل أوضاع منطقته بما فيها العادات والتقاليد, أما تركة الباي المتوفى فتعود لورثته باستثناء ما يتعلق بأملاك الدولة.

وكان البايات لا يعزلون إلا نادرا، وهذا أثناء التقصير في تأدية واجباتهم و الباي مطلق الصلاحية في مقاطعته إذ يجب عليه تحقيق الأمن في الطرقات وتسخير قوى القبائل المخزن

---

[1] آجقوا : النظام السياسي والمؤسسات... ، المرجع السابق ، ص 39-41.

[2] Laroui :op-cit ,pp.240- 241.

[3] نوشي وآخرون : المرجع السابق ، ص 140.

المساندة لهذا الإجراء والبحث عن المجرمين [1] ويعين من قبل رئيس الدولة مباشرة وهو بمثابة النائب ويقوم بأعماله في الإقليم الذي يشرف عليه نيابة عن رئيس الدولة ورمز السيادة الوطنية، إذ يعين من كبار موظفي الدولة ويختاره من الشخصيات المرموقة في المجتمع الجزائري ويستعين الباي في أداء مهامه بـ:

1. الخليفة: ويعد نائبا للباي يكلف بحمل الضرائب إلى رئيس الدولة ويمثل الباي في بعض المناسبات[2].
2. الباشا خزناجي: ويشرف على مصادر دخل الولاية ويساعده كاتبان يعرفان بالدفتر دار.
3. قائد الدار: وهو المسؤول عن حراسة المدينة والإشراف على شؤونها والعناية بها ودفع رواتب الجنود ويحافظ على أملاك الدولة إلى جانب توفير الخدمات للجيش ويشرف على شؤون البلد ويرعى مصالح الطوائف السكانية والحرفية بالمدينة.
4. آغا الدائرة: وهو قائد الفرسان من العرب التابعين للدولة ويعرف في بعض المقاطعات بآغا العرب ويشرف أيضا على مراقبة البايات ويتلقى أوامره من رئيس الدولة مباشرة.
5. الباشا كاتب: وهو المسئول عن كتابة رسائل الباي ويمسك دفاتر المالية.
6. الباشا سيار: الذي يقوم بمهمة نقل الرسائل من الباي إلى رئيس الدولة.
7. الباشا سايس: الذي يتولى العناية بخيول الباي وترتيبها .[3]

ب - الأوطان:

وهي الوحدات الإدارية الموجودة في كل بايلك أو المقاطعة، ويرأس كل وطن مسؤول يحمل اسم القايد وهو مسؤول مدني وعسكري في الوحدة الإدارية وممثل رسمي في منطقته يتكفل بجمع الضرائب والمحافظة على الأمن العام والاتصال بالسلطات العليا عند الضرورة ويتفرع عن كل وطن مجموعة من الدواوير يرأس كل واحد منها شخص يحمل اسم شيخ، الذي يكون في اغلب الأحيان من أبناء القرية أو الدوار. أما علاقة الحكومة المركزية بقية الولايات فكانت علاقة إشراف وتبعية وحماية إذ ترسل حامية لحماية سكانها ضد كل

---

[1] خوجة: المرجع السابق ، ص ص 138-140.

[2] مايعرف في بعض الكتابات بالددوش

[3] الهندي: المرجع السابق ،ص 57.

هجوم،يقود حاميتها ضابط يساعده مساعدان ،وهؤلاء يمثلون الديوان ،ويعتبرون قادة عسكريين وإداريين في نفس الوقت ، وعليهم أن يتفاهموا مع رؤساء المقاطعة لحماية المصالح المحلية والقيام بمهام الشرطة وتنفيذ القوانين والمحافظة على الفلاحة والتجارة، وبالنسبة لموضوع تطبيق العدالة وحل الخلافات بين الولايات فان الكيفية في تطبيق الأحكام هي دائما موضوع المناقشة بين الديوان والداي كلما دعي المجلس للانعقاد[1].

ج-العلاقة مع القبائل:

لعبت قبائل المخزن دورا في تدعيم سلطة الدولة في الريف، وكانت حلقة الوصل بين الأهالي والحكام ، كما أبقت على تماسك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية إذ قدرت نسبة سكان الريف بـ 90% ، فكانت سندا داخليا وقوة احتياط للجيش ، وامتصاص بعض المحاولات التي تقوم بها القبائل المناوئة والتي فقدت امتيازاتها بعد قيام سلطة إدارية وحكومية ، وحول توزيع هذه القبا ئل فقد كانت شاملة على كامل القطر ،وباعتبار القبيلة وحدة إدارية خاضعة للسلطة فان هذا الخضوع كان يخضع لاعتبارات سياسية وجغرافية[2] فهناك قبائل بعيدة النفوذ للسلطة عليها وظلت محافظة على استقلالها و تحتكم لاعتباراتها العشائرية والقبلية، وقبائل تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي لكنها تدين بالولاء للسلطة من خلال دفع الضرائب ، وقبائل المتحالفة مع السلطة.[3]

II-النظام القضائي للدولة:

1- المبادئ الأساسية:

يرتكز النظام القضائي الجزائري على مجموعة من المبادئ تكفل للمواطنين الحق والمساواة إلى جانب تحمل هؤلاء للمسؤولية الجماعية في الأخطار المرتكبة منها:

أ)- إذ منح الحق للجميع في التقاضي وفقا لمبدأ حق اللجوء إلى العدالة كثابت من ثوابت العدالة

ب)- المساواة أمام العدالة بين الخصوم وفقا لمعايير الشرعية القانونية المطبقة.

---

(1) خوجة :المرجع السابق، ص131.

(2) سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر – العهد العثماني – المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص-ص97-126.

(3) آجقوا : النظام والمؤسسات...، المرجع السابق ، ص 42-43.

ت)- يستند التشريع على الشريعة الإسلامية والإحكام المستمدة منه القانون المدني الجزائري إلى جانب العادات المتبعة والسوابق العدلية وأصبح أيضا العرف له قوة القانون.[1]

ث)- الحق في اللجوء للقضاء متاحا للجميع دون أي تمييز ، تنفرد الدولة الجزائرية ، مقارنة بالأنظمة العدلية المعاصرة لها بمبدأ حرية اختيار القاضي خاصة للأشخاص المتقاضين من أهل الذمة من يهود ونصارى .[2]

ج)- حرية التقاضي أمام أي من المحكمتين الملكية أو الحنفية .

ح)- القضاء المجاني وهذه المجانية كفلها القانون.

خ)- استقلالية وحياد القضاء في الأحكام الصادرة في القضايا المعروضة أمامه خاصة إذا نظرنا إلى أن الاستقلالية تعني بمفهومها الواسع استقلال السلطة القضائية عن بقية الدوائر الحكومية فالفصل في القضايا والمنازعات يبقى من اختصاص السلطة القضائية وحدها ، ولا يخضع لأية وصاية مثل بقية المؤسسات الإدارية ولضمان العمل الجدي استحدثت السلطة القضائية أجهزة لتنظيمها والاستجابة للمتطلبات المرحلة الجديدة بعد الانتقال من نظام القبيلة إلى مجتمع الدولة المقسم إداريا إلى إدارات لامركزية .

د) - تعدد فروع القضاء إذ أصبحالقضاء مشكلا من قضا ء تقليدي يقوم أساسا على نظام العشيرة تلعب فيه الوساطة دورا أساسيا يشرف عليها شيوخ الزوايا والأعيان إضافة إلى الأئمة الذين يشرفون على الجماعة التي تشكل هيئة قضائية متخصصة في الاستماع والتداول وإصدار الأحكام الهادفة إلى إصلاح ذات البين بين الخصوم .[3]إلى جانب هذه المؤسسة القضائية العرفية نجد مؤسسات القضاء الرسمي وفروعه والمتمثلة في القضاء العادي المنظم، الذي ينقسم إلى قضاء مدني المتصف بالسرعة وقلة التكلفة ويعين القاضي الذي توكل له مهمة الفصل في القضايا المدنية من قبل رئيس الدولة.أما في الفرع الجزائي فان كل القضايا يتم الفصل فيها من قبل

---

[1] شالر (وليام) : مذكرات وليام شالر –قنصل أمريكا في الجزائر 1816--1824، تعريب وتعليق، العربي(إسماعيل) ش،و،ن،ش ، الجزائر، 1986، ص 51.

[2]يتمتع اليهود بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية و الأحوال الشخصية ، كما يتولى إدارة شؤونهم رئيس من أبناء الطائفة يعينه الداي وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقل والإقامة حيث يرغبون وممارسة المهنة في حدود القانون في جميع أنحاء الدولة واليهود غير قابلين للاسترقاق .ا نظر شالر : نفس المرجع سابق،ص 89

[3] خوجة : المرجع السابق ، ص.ص109-110.

الرئيس كقاضي أول بمساعدة أعضاء ديوانه، كما يمكن أن يتم الفصل في القضايا [1]من قبل نواب رئيس الدولة في الولايات (الباي – شيخ القبيلة – القائد) حسب الترتيب الإداري (دار السلطان – البايلك – الوطن – الاعراش) .أما الفرع الثالث فهو القضاء العسكري والذي خول النظر في القضايا ذات الطابع العسكري أو يكون احد طرفيها عسكريا (جندي).

وما يميز القضاء الجزائري عن غيره من النظم في تلك الفترة هو سلطة القاضي في التصديق على الوثائق في جميع المحررات المختومة مما يكسبها حجية خاصة تلك المحررة من قبل قضاة الدرجة الأولى (الباي- الشيخ – الآغا) فتأخذ صفة الضابط القضائي، بالإضافة الوصاية على القصر وعديمي الأهلية استنادا إلى نصوص الشريعة الإسلامية التي حددها بست حالات وهي : العبودية – صغر السن – الخبل – السفه – الإفلاس –الخطر العمومي ، ويصبح القاضي وصيا ووليا لمن لا ولي له ، كما أنيط بالقاضي مسؤولية مراقبة الوقف والعطايا التي تقدم للمؤسسات الخيرية التي تقوم بوظائف اجتماعية لتحسين أوضاع الفقراء ورعاية المنكوبين .كما يعطي القضاء الجزائري الحق في الشهادة ، إذ يقوم القاضي باختيار الشهود تبعا لأخلاقهم ونزاهتهم ويكون كل قاض محاطا بـ 12 عدلا[2] ،وكل وثيقة يجب أن تكون ممضاة ومختومة من طرف عدليين رسميين .أما لغة التقاضي فيتم التقاضي بلغتين العربية والتركية ويشترط وجود ترجمان وقد تدوم الجلسة أكثر من نصف يوم كما يتم التأجيل العديد من القضايا لمدة سنة كاملة أما آلية التقاضي فإنها تتم على ثلاث درجات:

يتم التقاضي عبر المحكمة أو المجلس وهذا الأخير يوجد على مستوى كل بايلك لإعادة النظر في الأحكام التي أصدرها قضاة المحاكم الابتدائية ويترأسه الباي أو قائد الدار. ويعقد هذا المجلس جلساته كل يوم الجمعة للنظر في طلب الطرف المتضرر من الحكم، والحكم الصادر من المجلس غير ملزم للقاضي الابتدائي مما يدفع المتضرر اللجوء إلى قضاء الدرجة الثالثة أي مجلس المناظرة أو مجلس الشريف أو المجلس الأعلى الذي يوجه له التماس إعادة النظر وهذا المجلس يتشكل من قاضيين ، مفتيين ، عدول ، ناظر ، علماء ،ويعقد جلساته يوم الخميس ويتم فيها مراجعة الأحكام والاستماع إلى تظلمات إطارات الدولة، وتعد قرارات مجلس المناظرة قرارات تكتسب الحجية وهي غير قابلة للنقض وملزمة للهيئات القضائية الابتدائية والمجالس.

---

[1]Lutsky :op-cit,p172.

[2] العدل هو الشاهد الذي يدلي بشهادته أثناء الجلسات وتحرير جميع المعاملات الخاصة

هذه المؤسسات القضائية تقع كلها تحت إشراف مجلس الإفتاء الذي يعد أعلى هيئة قضائية رغم ازدواجيتها (قضاء مالكي –قضاء حنفي) والذي يصدر فتاوى شفوية وكتابية إلى جانب حضور جلسات الديوان ، كما يشرف على التنصيب الشرعي والدستوري لحاكم الدولة. [1]

2- مميزات النظام القضائي الجزائري:

يتميز النظام القضائي الجزائري بـــ:

أ- تميز النظام القضا ئي بثبات المصدر وأحاديته من حيث انه يستمد تشريعاته من نصوص الشريعة الإسلامية ،كما تبرزالثنائية الا قضائية من حيث الهياكـــل في كـــون الجهـــاز الفضائي المنظم يكاد يقتصر على المدن و بعض المناطق المتصلة مباشرة بها بينما المناطق الداخلية الجبلية و النائية يعود أمر القضاء فيها إلى شيوخها .

ب- كما تبرز أيضا استقلال كل فئة سكانية و مهنية بمحاكمها الخاصة . فاليهود يتولى أمر القضاء بينهم، أحبارهم و النصارى لهم محاكمهم الخاصة بهـــم. و لا يعـــودون في أحكامهم إلى القوانين المعمول بها في البلاد إلا إذا تعلق الأمر بالمخالفات الـــتي تحـــدث بينهم و بين المسلمين.

ت- سمح للكل بتولي المناصب, القضائية [2] و لم تكن مقتصر ة على فئة معينة شرط أن يكون القاضي بالغا مسلما ذو علم بالأحكام.

ث- السلطة القضائية تشمل على محكمتين ومكونـــ تين من قاضيين ومفتيين احدهما مالكي و الآخر حنفي هذا الأخير تسند له الرئاسة لأن دار الخلافة هـــي الـــتي تعـ ين رئـــيس الدولة، والمفتي الحنفي و قصره يعتبر محكمة عليا. وتنظر هـــذه الـــ سلطة في القـــضايا الإجرامية والتأديبية و الجنائية, والمدنية بإضافة إلى الخلافات التي قد تقع بين رئيس الدولة و شخص آخر. هذه المحاكم مستقلة عن السلطات و حكمها لا رجعة فيه .وكل مسلم له الحق في عرض قضيته على القاضي الحنفي أو المالكي اللذان يساعدهما أعوان وكاتبين يقومون بتسجيل الأحكام وتوثيق العقود.

---

[1] آجقوا: محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة 1514-1830 – العدالة – ، الباتنيت للمعلوماتية والخدمات المكتبية ، الجزائر ، 2001 ، ص-ص 17-20.

[2] الوظيفة كانت مفتوحة للكل شريطة توفر شروط التراهة والكفاءة.

ج- سلطة السيادة القضائية ، وفقا للمبادئ الأساسية التي يقوم عليها القانون و المؤسسات فان السلطة القضائية غير خاضعة لأي سلطة وهذه الميزة تكاد تكون مجهولة بالنسبة لأوربا في تلك الفترة.

ح- يعتبر النظام القضائي انعكاسا للوضع الاقتصادي والاجتماعي، ويتصف بالثنائية في الهياكل والتقاضي و الأحكام القضائية.

خ- لعل أهم ميزة هو تأثير تطور النظام القضائي الجزائري في الحياة الاقتصادية، تلك التي تتمثل في التنظيمات التي خضعت لها مؤسسة الأوقاف بعد أن تزايدت الأملاك الموقوفة التابعة لها، إذ قدرت بثلثي الأملاك الحضرية و الريفية ففي الجزائر العاصمة و نواحيها قدرت بـ543 وقفا.و هذا التزايد يعود أساسا إلى تزايد نفوذ الزوايا و الطرق الدينية.وعمل القائمين على جهاز القضاء على تنظيم هذا القطاع و حفظ موارده و تسجيل عائداته، إذ أقيمت دور للأوقاف-دار الأوقاف بقسنطينة عام 1776م في عهد صالح باي - و أصبحت شؤون الأوقاف تخضع لإحكام المجلس العلمي . الذي ينعقد أسبوعيا بحضور شخصيات دينية ووكيل الأوقاف و بعض الإداريين، ونظمت مهام وكيل الأوقاف الذي أصبح مسؤولا على مصلحة الوقف من حيث الإنفاق و مراقبة دفاتر الحسابات و تقديم العروض ، وكانت هذه المؤسسات تتوزع بإطارها المعترف به مثل مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين لحوالي 1558م وقفا ومؤسسة سبل الخيرات للإنفاق على المساجد، ومؤسسة أوقاف الأولياء والأشراف و أهل الأندلس. [1]

د- الطعن في الأحكام القضائية مكفولا قانونا، إذ جرت العادة أن ترفع الطعون إلى المجلس الشريف الذي يضم القاضي المالكي والقاضي الحنفي والمفتي المالكي والمفتي الحنفي في كل يوم خميس يجتمع أعضاء المجلس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة وينظرون في الطعون المقدمة، أما إذا كان احد المتخاصمين من غير المسلمين فـ أن القضاة يخرجون إلى صحن الجامع لكي يستمعوا إلى المشتكين ويقررون قبول الطعن أو رفضه و تثبيت الحكم.

[1] سعيدوني : دراسات وأبحاث... ، المرجع السابق ، ص-ص 20-23.

ذ- من حيث الاختصاص، يختص رئيس الدولة و الباي محليا ونوعيا في النظر في القـــضايا و المسائل الجنائية كالسرقة والقتل والخيانة والتأمر على سلامة الدولة .وفي المسائل ا لبسيطة فإن الداي يفوض النظر في هذه القضايا وشيوخ البلد أو الباي للنظر والمحاكمة لمعاقبـــة المخالفين أما القضايا الخطيرة فان الداي أو الباي هو الذي يصدر الحكم. [1]

III-التنظيم المالي والاقتصادي

1-النشاط الاقتصادي:

ظلمستوى المعيشي مقبولا، فقد كان سكان الجز ائر يتمتعون بإمكانات المادية أفضل من نظرائهم بفرنساولغلب الجزائريين كانوا على مستوى علمي معرفي مقبول مقارنة بنظرائهم من الفرنسيين،وهو ما انعكس على الحياة الاقتصادية والاجتماعية. [2]

كانت أهم النشاطات الاقتصادية ، تتمثل في الضرائب بمختلف أنواعها والحرف الـــصناعية والمبادلات التجارية للدولة . إضافة إلى النشاط البحري و الودائع ومؤسسة الأوقاف وأجـــور ورواتب ونفقات الدولة [3] وقد تركز نشاط الريف حول نشاط سكان المدن بوجود تكامـــل بينهما وكان الريف ينتج للمدينة قوتها ويحرك أسواقها كما حرك التجارة الخارجيـــة إذ ســـاد التطور التجاري رغم خضوعه لعوامل داخلية وخارجية منها وفرة المـــال وحريـــة الاســـتيراد والتصدير والاستقرار وتدعيم النشاط للقوة البحرية[4] و كانت الجزائر تقود المنطقة تجاريا [5] فقد كانت الموانئ مثل ميناء عنابة يمارس نشاطا تجاريا كثيفا باعتباره الشريان الرئيسي للمنطقة الشرقية وهو الأمر الذي دفع شارل الخامس للسيطرة عليـــه عـــام 1535م لخنـــق الجزائـــر اقتصاديا[6]. إلى جانب ذلك سعت الدولة لتوفير المياه والقضاء على المشكل الماثـــل ،و قـــصد تحقيق الاستقرار فقامت السلطة إلى جانب تبرعات الأهالي وأموال الأوقاف[7] ببنـــاء قنـــوات وإنشاء عيون كقناة تليملي عام 1550 وطولها 3600متر وبئر طرارية عـــام 1573 بطـــول

---

[1] الهندي:المرجع السابق ،ص- ص 65-67.

[2] Fisher :op-cit,pp.36-37.

[3] سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830 ،الجزائر، 1979، ص 341.

[4] العقاد(صلاح) : المغرب العربي ، دار النشر ، القاهرة ،1976 ص 18.

[5] الزبيرى : المرجع السابق، ص- ص121-135.

[6] سعيدوني :النظام المالي للجزائر في...، نفس المرجع سابق ، ص-ص، 204-206.

[7] سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر... ، المرجع السابق، ص 193.

1700متر وقناة الحامة سنة 1611 بطول 4300 متر، وعين الزبوجة في القـــرن 18 بطـــول 5000متر كما تم إنشاء عيون للشرب والسقي بلـــغ عـــددها 125 في مـــساحة لا تتعـــدى 50هكتارا[1] وكان القطاع المائي باعتباره من الأوقاف يسير من قبل الدولة والمجـــالس المعينـــة قصد توفير الماء لسكان مدينة الجزائر الذين بلغ عـــددهم 12200 دار بتعـــداد 80الـــف نسمة[2].

2-النظام المالي:

كان النظام المالي يقوم على تنظيم محكم لمصادر الدخل و طرق الإنفاق. خاضعا لإجراءات فعالة لضبط حساب الخزينة العامة -بيت المال-،كما تم إصدار العملة بأمر الـــداي وتحـــت إشراف من الخرناجي و قد امتازت العملة الجزائرية بتنوع مادها واختلاف قيمتـــها , فهنـــاك العملة الذهبية كالسلطاني أوسكة الجزائر - وهنـــاك العملـــة الفـــضية -دورو الجزائـــر - أو ريال،بالإضافة إلى النقود البرونزية و النحاسية.

وقد تعرضت العملة الجزائرية إلى منافسة حادة من قبل العملات الأجنبية خاصة بعد شيوع العملة المزورة التي كانت تجلب من الموانئ الأوربية، أو تصنع محليا الأمر الذي دفع إلى العـــودة للعمل بنظام المقايضة،وحتى الإصلاحات المالية التي قامت بها الجزائر خلال أعـــوام 1811—1823لم تمكن الجزائر من إيجاد توازن في ماليتها بل ازداد تناقص قيمة العملة الجزائرية، أمـــا الودائع في الخزينة فقد كانت تتصف بالضخامة والثروة ،وقد قدر شالر قيمتها عام 1822م بـــ 200مليون فرنك.[3]

3- النظام الضريبي:

قام النظام الضريبي في الدولة الجزائرية عـ لى مبدأ التفاهم إذ سمحت القوانين لرئيس الدولة أو نوابه في المقاطعات التفاهم مع الشعب حول العشر في النوع واستبدالها بمبالغ معينة، وعندما شعرت الدولة بتجاوز اتجباة الضرائب و تفشي ظاهرة اختلاس الأموال لجأت إلى نظام جديد يمنع التجاوزات بإحصاء الفلاحين عن طر يق قائد القبيلة،والمالكين للمحاريث الـــذي يقـــوم

---

(1) بلحميسي (مولاي) :"مشاكل المياه بالجزائر العاصمة في العهد العثماني"، مجلة البحوث، العدد 2 ،جامعة الجزائر، 1994،ص 46-50.

(2) المدني: كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ،الجزائر ، 1932،ص122.

(3) السليماني (احمد) :النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني ، مطبعة دحلب ،الجزائر ،1993 ،ص.ص58-61.

بتسليم نسخة من الإحصاء للقاضي المكلف بجمع الضرائب حسب الإحصاء وتعطى الإيصالات لكل فرد وتقيد الكميات المقبوضة من الحبوب بسجل لمحاسبة القابض الرئيسي في الدولة.[1]

أصبحت الضرائب منذ حلول القرن الثامن عشر أهم مصدر لدخل الدولة بعد تناقص غنائم الجهاد البحري وتقلصت ثروات سكان المدن إذ كانت تفرض الضرائب بشقيها : الأول على الملكيات الخاصة كضرائب العشور والزكاة و على أراضي الدولة كضريبة كراء، أما أراضي العرش، فكانت تفرض عليهم ضريبة اللازمة، أو المعونة أو الخطية أما الثاني فكانت ضرائب ورسوم المتمثلة في عوائد بيت المال من مردود الأوقاف والتركات والودائع والأملاك الشاغرة وبعض الأملاك العقارية التي تعود ملكيتها مباشرة إلى الدولة. أما رسوم النقابات المهنية والدكاكين التجارية، فيتكفل بها شيخ البلد الذي يجمعها من أمناء الحرف المهنية المختلفة الموجودة بالمدن الكبرى كما كان كل دكان يدفع رسما شهريا مقابل نشاطه التجاري .[2] إلى جانب رسوم المرسى وحقوق قباضة الجمارك – الديوانة – إذ حددت رسوم دخول المرسى بالنسبة للسفن الجزائرية والعثمانية بعشرين قرشا أما بالنسبة للدول التي تربطها معاهدة مع الدولة الجزائرية فكانت تدفع أربعين قرشا يضاف إلى ذلك حق الاسترشاد بالفنار ومنحة المترجمين والرياس والمصاحبين للسفن أما حقوق الجمركة على البضائع المصدرة والمستوردة، فقد تراوحت بين 2% على الصادرات و 12.5% على الواردات [3]،بالإضافة إلى رسوم الطوائف العرقية والأقليات الدينية – الجزية – ويتكفل بها كل مقدم الطائفة بتسليم الجزية إلى الخز ناجي ،وكذلك مساعدات الأندلسيين الذين كانوا يمدون الدولة بمبالغ مالية ضخمة وفوائد الاحتكار لحقوق إسناد المناصب وهي مبالغ تدفع من قبل المتحصل على المنصب للخزينة إلى جانب هذه المداخيل المنظمة تنظيما قانونيا نجد المداخيل الاستثنائية وهي المبالغ المالية المتأتية من المصادرة والتغريم على بعض الأنشطة التي يجرمها المشرع ومصادرة أموال الولاة وتغريم البعض منهم ومصادرة أملاك بعض الطوائف التي لا تحترم حقوق الدولة – مثل مصادرة أملاك الطائفة اليهودية عام 1805م بعد تدخل اليهود في شئون الدولة.[4]

---

[1] خوجة :المرجع السابق ، ص.ص 144-145.

[2] شالر :المرجع سابق ،ص 176-192.

[3] نوشي وآخرون : المرجع السابق ، ص140.

[4] سعيدوني و بوعبدلي : المرجع السابق ،ص-ص31-35.

VI-نظام الجيش والبحرية:

قرر خير الدين إنشاء جيش جزائري حديث على شاكلة الجيش الانكشاري العثماني، لذا أصبح الجيش الجزائري قائما أيضا على نفس النظام وكانت للجنود امتيازات: هي الإعفاء من الضرائب والخدمات العمومية، ولا يعاقبون أمام العموم [1]، وتألف الجيش الجزائري النظامي البري والبحري من حيث عناصره من فئتين : فئة المجندين وفئة المتطوعين القادمين من البلاد الإسلامية و فئة المسيحيين المعتنقين للإسلام، وقد قسم في بداية الأمر إلى جيش عامل وحرس الحدود وهم المكلفون بحراسة الحدود ومراقبتها ويمتازون بالسرعة والرشاقة وحرس الأرض من الخيالة المحلية.

أما بالنسبة للمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام فان التنظيم فرض عليهم التجنيد في البحرية فقط كأطقم في السفن وكان مستقلا عن الجيش البري فكل سفينة يختار طاقمه من هؤلاء الأشخاص حسب رغبته فكانت فرصة لهؤلاء للانضمام إلى العمل العسكري [2]،وقد بلغ عدد أفراد الانكشارية 1000- 2000نسمة خلال الفترة 1516 -1830م ،استطاعت هذه القوة القليلة العدد البقاء طيلة ثلاثة قرون وذلك بفضل عملها وقدرتها على حماية الجزائريين الذين تقبلوا وجودها في الحكم على اعتبار انه نابع منهم من خلال الوسطاء والأعوان و لم يلجأ الحكم إلى بسط سيطرته على الداخل أو محاربته بل كان موجها نحو الخارج ، مما يعني تقبل الداخل لفكرة عدم الثورة ضدهم بالاعتماد على التضامن الإسلامي أو وجود رغبة روحية لدى الشعب الجزائري في العيش فوق تراب واحد.[3]

1-تنظيم القوة العسكرية:

بدأ التنظيم الفعلي للجيش مع نهاية عام 1620م حيث أدخلت التغيرات على تنظيم خير الدين وقسم إلى:

أ -القوات البرية :بلغ عدد القوات البرية حوالي 15 ألف جندي وضابط وهو عدد كبير مقارنة مع أفراد الانكشارية وينقسم العمل والخدمة حسب السنوات:

---

(1) السليماني : المرجع السابق ،ص65.

(2)Kaddache(Mahfoud): l' Algérie des Algériens ,de la Préhistoire à1954 , Ed/Méditerranée , Paris ,2003,p.349.

(3) قداش :المرجع السابق ،ص-ص 11-14.

- السنة الأولى في الخدمة وتكون في الحاميات والتي تضم حوالي 2000عنصر والمنتـــشرة على كل مدن البلاد
- السنة الثانية وتكون الخدمة في المخيم أو المحلة Colonne
- السنة الثالثة وتكون في الحواضر حيث تكون الخدمة بالجزائر العاصمةوهي سنة تعتـــبر راحة.

أما العمل في الحاميات فقد تم تحديدها جغرافيا وبشريا فالحاميات بالجزائر العاصمة ســـخر لهـــا حوالي 300جندي خارج الجيش المتواجد بالثكنة في مرسى الذبان -تيزي وزو- حصن الحراش –بوغني عند سفح جبال جرجرة –حمرة على طريق الجزائر قسنطينة، أما بقية الحاميات فتراوح عدد أفرادها مابين 100-600 عنصر ،وهي قسنطينة –عند أبواب الحديد بسور الغـــزلان .. القل –زمورة شمال مجنة - قسنطينة – معسكر – مستغانم – تلمسان،وفي كل فصل ربيع يـــتم استبدال هذه الحاميات . وكان أول من وضع نظام الحاميات هو خير الدين1523م ثم طورهـــا حسن قورصوا بين أعوام 1540-1542م. [1]

ب- القوات البحرية:

تمكنت الدولة الجزائرية من تحصين المدينة وتمتين قوتها الداخلية بصفة عامة إلا أن أصبحت قلعة منيعة ثم توسعت نحو المرتفعات والقصبة العليا حيث بدأ عروج بتشييدها بأموال جمعها من تلمسان [2] ،واعتمد على محجر باب ألواد وهذاالتوغل نحو الداخل يهدف إلى حماية المدينة من الحملات البحرية المتكررة كما تم إنشاء العديد من الأبراج لحمايتها[3]وقد أدخلت العديد من التعديلات على القوات البحرية التي ظلت مستقلة خاصة في طاقم سفنهاوقياداتها، تـــسليحـها، ويشكل لهم ديوان خاص.

يعتبر عروج أول من وضع أسس الأسطول الجزائري الذي كان يخضعه لأمرته لكن بعـــد إعلان خير الدين قيام الدولة الجزائرية وارتباطها مع الخلافة أصبحهناك جيشا بحريـــا نظاميـــا ، وأضاف إليه خير الدين أول مفرزة من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ،مشكلة من 600 رجل

---

[1] العنتري :المرجع السابق ،ص 28.

[2] Haedo :Op-Cit ,p30.

[3] حليمي(علي عبد القادر) : مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص 218-219.

كلفوا بمهمة الحراسة ، وعرفوا باسم –الأعلاج- وتمكنوا بمهارتهم البحرية إدخال التقنيات الجديدة في بناء السفن وأحدث تجديدات خاصة في مجال التجديف [1]،وبفضل التشجيع تجاوز عددهم6الاف وقد اسند إليهم خير الدين مهمة تدريب والإشراف على هذه القوة تحت إشرافه تدريبا وتجهيزا.

وباعتبار أن التنظيم الخاص بالقوة البحرية و طاقم السفن كان مستقلا عن الجيش البري فكل قائد سفينة يختار طاقمه من الأشخاص حسب رغبته فكانت فرصة لهؤلاء للانضمام إلى العمل العسكري[2] فقد أنشا حسن آغا أول أسطول جزائري فعلي مستندا على مخطط لخير الدين وأحرزت به الجزائر السيادة البحرية [3]،و انشأ لها مصانع للسفن في شرشال وبجاية وغيرها، كما كانت بالعاصمة مصنعين أساسين مصنع بباب ألواد للسفن الكبيرة و مصنع بباب عزون للسفن الصغيرة [4]ومصنع آخر بباب البحر .[5] وأصبحت البحرية الجزائرية بفضل جهود التصنيع ووجود ميناء تتوفر على عشرات السفن و طاقم مدرب تدريبا جيدا قادرة على الصمود ومقاومة الحملات الصليبية وفرض سيادة الدولة على البحر، و بعد أن أصبح خير الدين قائدا للبحرية الجزائرية العثمانية ، و مثلما توج البابا تحت سلطته الدينية المعنوية شارل الخامس وإمبراطورا للنصرانية كلها ،توج الخليفة العثماني خير الدين قائدا للجهاد الإسلامي في البحر المتوسط اذ نمت البحرية الإسلامية [6]وشكلت قوة ضاربةو خطرا دائما على الدول المسيحية بسياستها الجهادية البحرية، و التي مكنتها من فرض سيطرتها على الحوض الغربي للبحر المتوسط.[7]وبقيت كذلك حتى الاحتلال الفرنسي ، ومن بين العوامل التي ساهمت في بناء قوة البحرية الجزائرية، رفعها لراية الجهاد البحري ضد المسيحيين و حماية المسلمين الأندلسيين

---

[1]Belhamissi:la Marine et les Marins…. Tome II.,Op-Cit, p9.

[2]Kaddache : l’Algérie durant la période Ottomane , Ed/,OPU,Alger2000,p349.

[3] بن علي بن شغيب:المرجع السابق، ص 65.

[4] نايت بلقاسم :المرجع السابق، ص 71.

[5]Panzac(D)Les Corsaires Barbaresque ,la fin d’une épopée-1800-1820,CNRS, Edition Paris 1992 ,p77

[6] نايت بلقاسم: المرجع السابق ،ص 70.

[7]7Belhamissi :Histoire de la ...,Op-Cit,p6.

وحملهم على سفنهم و حماية سواحل الشمال الإفريقي من الغارات الإسبانية الصليبية بصفة خاصة و الغارات الأوربية بصفة عامة.[1]

فالاستقرار الذي شاهدته الجزائر والبحرية ،بفضله تحولت البحرية الجزائرية إلى مؤسسة قائمة شديدة الانتظام من حيث التوظيف والتنظيم والتمويل والعمليات الحربية وأصبح النموذج المؤسساتي للبحرية الجزائرية نموذجا يحتذيه في طرابلس وتونس ، إذ من النادر أن يحوز النصارى نصرا كبيرعلى البحارة الجزائريين [2]وبحكم موقع الجزائر و مهامها أصبح محكوم عليها أن تكون دولة بحرية لحماية مصالح الدولة الجزائرية التي كانت تتمثل في التصدي للتشكيل الصليبي الذي تقوده إسبانيا في عموم السواحل المتوسطية تحديا مباشرا من جهة ،ودعم الجبهة المناوئة في أوربا خاصة فرنسا في إطار الجهد الرامي إلى عزل اسبانيا للوقوف ضد الهيمنة الإسبانية والتصدي للتكتلات الصليبية الأخرى المتمثلة في فرسان القدسيين يوحنا وفرسان مالطا من جهة أخرى.لهذا كونت الدولة الجزائرية أسطولا يجوب البحار ويسيطر على الحوض العربي للبحر المتوسط وله جولاته في المحيط الأطلسي أيضا.[3] **(انظر ملحق رقم8)**

أصبح الجهاد البحري ا لجزائري أو كما يسميه الأوربيون "قرصنة "عملا شرعيا و حق مشروع في الدفاع عن النفس .[4]فقد أتخذ هذا الصراع البحري بعد قيام الدولة الجزائرية شكل التحدي إذ تمكن البحارة الجزائريون في الفترة الممتدة من 1528م إلى 1584م من شن ثلاثة وثلاثين غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية أنقذوا أثناءها كثيرا من الأندلسيين ومن أشهر هذه الغارات ، الغارة التي شنها الريس أيدين وصالح ريس سنة 1529م بأمر من خير الدين وتمكنا أثنائها من حمل 600مسلم وتعرضت في نفس الفترة سواحل اسبانيا إلى هجمات مباغتة من الرياس الجزائريين [5] ،كما ساهمت في تمويل خزينة الدولة إذ أصبح مصدر مهم من موارد الدولة وغني الخزينة وتمكنت الجزائر من فرض نفسها على البحر المتوسط وبسط سيادتها أيضا حتى على المحيط .

---

[1] السليماني :المرجع السابق ،ص.ص51-52.

[2] نايت بلقاسم : المرجع السابق نص 72.

[3] Kaddache: l’Algérie durant la période... Op-Cit,p43.

[4]Belhamissi :la Marine et les Marins….,Tome II, Op- Cit ,pp28-39.

[5]Belhamissi :Histoire de la Marine Algérienne...,op-cit,p131.

أصبحت عدد وحدات الأسطول العام لة عند منتصف القرن السادس عشر ،40 سفينة كبيرة ولقد شاركت الجزائر في عمليات بحرية عديدة إلى جانب الدولة العثمانية وحليفتها فرنسا مثل عمليات حصار مالطة عام 1565م بـ: 28سفينة وحضرت م عركة لبانت سنة 1571م بعمارة بحرية قوامها 60 سفينة بقيادة علج علي كما ساهمت بق وات بحرية معتبرة إلى جانب قوات برية في تحرير تونس والقضاء على الوجود الإسباني بها سنة 1573م.

غير أن البحرية الجزائرية ،ومع حلول القرن الثامن عشر بدأت تشهد تراجعا جراء الغارات المفاجئة للأساطيل الأوروبية على مدينة الجزائر إذ تعرضت في الفترة الممتدة بين 1634م - 1789م إلى عشر هجمات ألحقت أضرارا بالغة بالبحرية وتسببت في خسائر بشرية وعمرانية كبيرة و تناقص عدد البحارة الجزائريين فلم يعد يتجاوز عددهم 5300 بحار عام 1769 وانخفض عدد سفن الأسطول الحربية إلى ست بواخر مسلحة.[1]

ج-الأسطول الجزائري:

كانت للبحرية الجزائرية أنواع عديدة من السفن منها المركب والسفينة والغليوطة والكرافيلة والقليرة ويطلق على كل واحدة منها لفظ خاص ومجموعها هي العمارة وكانت تلك المراكب خليط من كل نوع منها ما يصنعه الجزائريون في ورشهم ومنها ما يؤخذ في البحر من المراكب البحرية والتجارية، يدخلون عليه الإصلاحات والتعديلات ويجعلونها صالحة للعمل البحري، فيعطونها الأسماء الخضراء ، مفتاح الجهاد، أو يحتفظون بأسماء المراكب التي يأخذونها في البحر مثل لاروزمايا،أو و الميريكانية إذ كانت تحمل اسم صاحبها مثل مصطفى ورريس حميد و **(انظر ملحق رقم9)**

VII-تطور الدولة الجزائرية بعد وفاة خير الدين:

I-ولاية حسن باشا 1544-1551 م:

في عام 1544م عين حسن باشا ابن خير الدين على رأس الدولة الجزائرية خلفا لحسن آغا ثم رقي إلى منصب باي لربايا بعد وفاة أبيه ،وخلال فترة حكمه كرس جهوده للقضاء على مطامع الأسبان ومطامع السعديين في الغرب الجزائري ، فقد احتل الشريف محمد المهدي مدينة تلمسان سنة 1551 م كما احتل ابنه مدينة مستغانم وانطلق صاعدا عبر واد الشلف إلا أن

---

[1] Belhamissi:la Marine et les Marins...,Op-Cit ,pp110-130.

حسن باشا بادر بالرد على المغاربة السعديين إذ أرسل جيشا بقيادة حسن قورصوا فاسترد – بمساعدة قبائل الغرب الثائر على السيطرة المغربية - مدينة مستغانم وسحق جيش السعديين وطارد فلوله حتى نهر الملوية ثم دخل تلمسان حاكما ووضع فيها حامية تركية.

وفي عام 1551م استدعى حسن باشا ابن خير الدين إلى القسطنطينية ، فغادر الجزائر في 22 سبتمبر من نفس العام وبعد ثمانية أشهر تقريبا عين صالح ريس باي للرباي على إفريقيا فوصل إلى الجزائر في أفريل 1552 وكان صالح ريس من ألمع الشخصيات،قضى حياته في الحروب واتصف بالصلابة والإقدام فقام بجهد كبير في توحيد البلاد وتحريرها من الجيوب الاسبانية،قام بحملة إلى الصحراء لفرض تبعية إمارة توقرت وإمارة ورقلة للسلطة المركزية بالعاصمة وإجبارها على دفع إتاوة سوية، كما أخضع منطقة سوف ثم عاد إلى الجزائر، واسترد من الأسبان بعض الثغور في الغرب الجزائري سنة 1554م وبجاية سنة 1555م وقضى نهائيا على الأسرة الزيانية لكنهفشل في استرداد وهران وهي القاعدة الوحيدة التي بقيت في يد الأسبان بعد أن اضطر إلى فك الحصار عليها اثر استدعاء الخليفة للأسطول الجزائري لمواجهة تهديدات الأسبان مرة أخرى،وحاول حسن قورصوا قبل وفاته عام 1556م استرجاعها إلا انه فشل أيضا بعد حصار بحري شديد ، كما حاول الباي لرباي العلج علي الذي تولى منصبه سنة 1568م استرداد قاعدة وهران الاسبانية ومداهمة اسبانيا بأسطوله لمساعدة الأندلسيين الذين أعدوا للثورة لكي يتحرروا من الأسبان واضطهادهم بالاتفاق مع الجزائريين.

اعد العلج علي بمجرد استلامه لمنصبه جيشا ضخما قوامه أربعة عشر ألف جندي وستين ألفا من أبناء البلاد المتطوعين، وفي 1568م ظهرت أمام ميناء الميريا أربعون سفينة جزائرية يقودها رياس الطائفة ،وذلك لمساندة الثورة في الريف و غرناطة نفسها ،لكن محاولة الإنزال فشلت لاكتشاف الأسبان لخطط الثورة ،[1]وفي جانفي 1569م عاود العلج علي المحاولة فأرسل أسطوله إلى الميريا ولكن قوات الأسطول أعاقتها العواصف هذه المرة ، فتشتت 32 سفينة محملة بالأسلحة والبارود والمتطوعين، فحرمت بذلك الثورة من المساعدة القيمة، ومع ذلك لم تنقطع الجزائر عن مساعدة الثوار الأندلسيين إلى أن أخرجوا عن آخرهم سنة 1611م .وقد حققت الجزائر مكانة دولية كبيرة ومهابة بين الدول المسيحية الكبرى خلال هذا العهد بفعل حركية

---

(1) السليماني : المرجع السابق،ص 63-64.

الجهاد البحري و بفضل أسطولها الذي تألق نجمه في البحر المتوسط وخاصة في عهد خير الدين وعهد العلج علي.[1]

عهد الباشاوات(1587-1659م):وبعد موت العلج علي 1587م سيطرت المخاوف على رجال الخلافة العثمانية، فقد رأوا أن جمع السلطة في الولايات الثلاث : الجزائر، تونس، وطرابلس، في يد واحدة يشكل خطرا على وحدة الخلافة العثمانية، ولذلك تقرر الفصل بين الولايات وإسناد إدارة كل ولاية إلى باشا لمدة ثلاث سنوات أسوة ببقية ولايات الدولة.

عهد الأغوات(1659-1671م):بعد أنهزقت ولايات الخلافة في غرب البحر المتوسط وتصدع الحكم فيها نتيجة إلغاء نظام البيلربايات العظام،تمكنت الانكشارية من ان تتبوأ الحكم ولكن عصرهم لم يتجاوز اثني عشر عاما، إذا أن نظام الأغواتكان يحمل في طياته بذور فشله . ذلك أن مبدأ المساواة المطلقة الذي ينص على أن يحكم الآغا مدة شهرين وأن يكون اختياره بالأقدمية من بين ضباط الانكشارية كان مبدأ سخيفا، إذ لم يكن في الإمكان تطبيقه، فقد وضع هذا النظام الاغتيال كقاعدة أساسية لكي يحل آغا جديد محل آغا قديم انتهت مدته، ذلك لأنهم كانوا يمهدون أنفسهم في التشبث بالحكم، فالأغوات الأربعة الذين حكموا من عام 1659م إلى 1711م انتهت حياتهم بالقتل على أيدي رفاقهم من الانكشارية.

المبحث الثاني: علاقات الدولة الجزائرية بمحيطها الإسلامي:

تندرج العلاقات الجزائرية الدولية ضمن ثلاث محاور تلك التي كانت مع البلدان الإسلامية وخاصة الخلافة العثمانية و الدول المغاربية المجاورة والعلاقات الجزائرية الأوربية ففي الحالة الأولى كانت علاقات الجوار والعقيدة هي الضوابط المتحكمة في هذه العلاقات ،رغم أن التخوف الجزائري من قيام محور تونس- المغرب كان ماثلا في الذهن الجزائري خاصة وان الأسرة الحفصية في تونس ظلت تناصب العداء للجزائر منذ صدام خير الدين معها إلى غاية إنهاء وجودها عام 1574 أما في الحالة الثانية فان هدف الدولة الجزائرية كان منع قيام أي تجمع أو تحالف قوى قد يؤدي إلى القضاء على الدولة الجزائرية أو تهديد أمنه ففي الحالتين الأولى والثانية كانت الدبلوماسية الجزائرية نشطة في منع التقارب بين الأوربيين والدول المجاورة من خلال

---

[1]Mezali(Houcine) :Alger Trente deux siècle d'histoire ,Ed/, synergie,2003 ,p147.

إدخال عامل الدين والعقيدة الواحدة أما الحالة الثالثة فأفرزت علاقات غلب عليها طابع الولاء المزدوج ورغبة الجزائر في إقامة كيان سياسي مستقل.

I- مع الخلافة الإسلامية العثمانية:

عملت الجزائر على تأكيد ذاتيتها كوحدة سياسية وجغرافية ووضعها الخاص، في ظل طبيعة السكان ووجود المغرب كمنافس إسلامي على الحدود ثم الخطر الاسباني والبرتغالي في غرب البحر المتوسط فمن جهة تحاول أن تكون دولة مستقلة ومن جهة أخرى تحاول أن تبقى على الحد الأدنى من الصلات الإسلامية ولو رمزية مع الخلافة العثمانية خاصة في ظل التأثير الذي أحدثته في الحياة الاجتماعية الجزائرية والعلاقة التي جمعت المرابطين الجزائريين المدفوعين برغبة الجهاد والحماس الديني بالعثمانيين الذين أدركوا بان اقرب الناس إليهم هم رجال الدين والتصوف[1] فقد استطاع العثمانيون توحيد البلاد الجزائرية التي كانت تسودها الفوضى والانشقاق، وأزيلت الممالك والطوائف وأعطوا المغرب العربي الاستقرار اللازم.

وقد مرت العلاقات الجزائرية العثمانية بمرحلتين أساسيتين:

- **المرحلة بالمد والجزر :**

انتهجت الجزائر خلال الدور الأول من علاقتها بالخلافة سياسة واضحة لمقاومة الاحتلال المسيحي والارتباط بعلاقات يطبعها الدين الواحد والاهتمام المشترك بقضية مشتركة و هي قضية الجهاد ضد الصليبين يقابلها الاعتراف الرسمي بالخلافة العثمانية والتبعية لها حفاظا على مظهر الوحدة الخارجي للبلاد الإسلامية،إذ لعب العثمانيون موقفا مشرفا تجاه إجهاض في المشروع الاسباني البرتغالي في الانتشار في إفريقيا وأرغموهم على المكوث على السواحل، وحتى إقامتهم في الثغور الساحلية كانت تقلقها الغارات المتتالية للمسلمين.

أما الدور الثاني وهي مرحلة الاستقلالية فقد تمكنت الدولة الجزائرية من تحرير الثغور من الأسبان وفتحت صفحة جديدة من العلاقات الجزائرية العثمانية بتلقي الدعم[2] ،وإذا كانت الخلافة تهدف من خلال هذا الدعم إلى تجديد القوة الإسلامية ونفوذها وبالتالي القضاء على أحلام الدول الصليبية بتقديم المساعدة للجزائر التي كانت تشكل آنذاك قاعدة لهذا الجهاد[3]

[1] سعد الله : شعوب وقوميات.... المرجع السابق ،ص-ص 140-150.

[2] كوبرلي : المرجع السابق ، ص 191.

[3] بوحوش : المرجع السابق ص50-52.

فقد شعر الجزائريون بدورهم بدرجة عالية من الأمان والاطمئنان في ظل الخلافة الإسلامية العثمانية [1] كما تمكنت هذه القوة المتحالفة من تحرير شمال إفريقيافي القرن السادس عشر ساعد خير الدين والخلافة، فرنسا على تحرير نيس من الاحتلال الاسباني عام 1543م[2] **(انظر ملحق رقم 10)**،وكان لسيطرة العثمانيين على ميناءين هامين ميناء الجزائر ثم تونس تهديدا للمالك الاسبانية وجزر البحر المتوسط قد فتح المجال لحرب واسعة متعددة الأطراف استترفت قوة اسبانيا وأجهضت مشروعها. [3]

ظلت الجزائر خلال عهدها الأول (عصر البرلبايات و الباشاوات) في طاعة الخليفة العثماني إلى أن حدث انقلاب في القرن السابع عشر، وأصبح حاكم الجزائرينتخب محليا [4] وكان ذلك نتيجة حتمية لعدم رضي الجزائر على المعاهدة المعقودة بين دار الخلافة وفرنسا التي أثرت كثيرافي العلاقات العثمانية الجزائرية الفرنسية خاصة تلك التي رأت فيها الجزائر انتقاصا من سيادتها. **(انظر الملحق رقم11)**

- **مرحلة التحالف واستقلالية القرار:**

إذاكان ما ميز العلاقات العثمانية - الجزائرية في بداية الأمر هو طابع الاعتماد المتبادل بينهما و بصورة أكثر، الدعم الذي يعطيه كل منهما للأخر في ظروف الشدة [5] ،فقد تراوحت العلاقة بين علاقات تعاون ومساعدة متبادلة التي بدأت بالمساعدة الرمزية التي تلقاها عروج وخير الدين، وظلت تتكرر خاصة على شكل عتاد وجنود وضباطخاصة في عهد الداي شعبان عام 1778م[6]، أما من الجانب الجزائري فقد ساهمت البحرية الجزائرية إلى حد كبير في حماية الجناح الغربي للخلافة وساعدتها في حروبها كمعركة لبانت في 09اكتوبر 1571م والحرب الروسية العثمانية سنة 1787م ومعركة الخلافة ضد نابليون بعد احتلال مصر وأخيرا معركة نافرين في 20اكتوبر 1827م ضد أساطيل الحلف الثلاثي.

---

[1] منير (شفيق) : الإسلام في معركة الحضارة ، الشركة الساحلية للطباعة والنشر والتوزيع ،تونس، 1988 ص 137.

[2] جلال : المغرب الكبير....، المرجع السابق ، ص 26.

[3] باتيسك:المرجع السابق، ص 64.

[4] بن علي شغيب : المرجع السابق - ص 51-52.

[5] سبنسر :المرجع السابق، ص 156-165.

[6]Belhamissi :Alger la ville aux mille canons, Ed/,ENAL,Alger,1990,pp.59-60.

هذه العلاقة برزت في شكل قوتين متراصتين أمام أوروبا الصليبية إلى جانب الاحترام المتبادل[1] غير أن الطابع الثاني سرعان ما برز وهو الاستقلالية الجزائر استقلالا تاما وسيادتها سيادة كاملة، إذ سلكت الجمهورية الجزائرية في الظروف العادية سلوك الفارض لاحترام هذا الاستقلال التام ، بحيث كانت تجري المفاوضات وتعقد معاهدات باسمها دون الحاجة إلى رخصة ،وينطبق ذلك على المعاهدة الثلاثية التي عقدها خير الدين باسم دولة الجزائريين والخليفة العثماني والملك فرنسوا ملك فرنسا في شاتيلر سنة 1534م.[2]

ويصف دوغرامون حقيقة استقلالية الدولة الجزائرية بقوله :" لقد كان الديوان يتخذ القرارات بكل استقلالية وسيادة ،يعلن الحرب ، ويعقد الهدنة ويوقع على اتفاقيات السلم ويمضي المعاهدات ، ويتخذ القرارات دون أن ينتظر الموافقة من الباب العالي "[3]

II-علاقات الدولة الجزائرية بالدول المغاربية:

ارتبط الطابع العام للعلاقات بين الجزائر والدول المغاربية بالصراع الحاد بين حكومات هذه البلدان والدولة الجزائرية خاصة تونس منذ البداية حينما ضم خير الدين تونس إلى الخلافة وما تبع ذلك من صراع إسلامي مسيحي لعب فيه الملك الحفصي دورا أساسيا وقد تحكمت العديد من العوامل في هذه العلاقات خاصة ما تعلق منها بحركة القبائل على الحدود وتدخل الأسبان المستمر في شؤون حكومات تونس والمغرب إضافة إلى طبيعة الأنظمة السياسية المتناقضة بين الحكم الجمهوري في الجزائر والحكم الملكي المطلق في هذه الدول.

1- تونس:

ظلت العلاقة بين الجزائر وتونس علاقة عداء ، وسعى كل طرف إلى إثارة الفتن سواء في فترة حكم خير الدين أو بعده إلى غاية تمكن الأسبان منذ عام 1535م من التدخل في سياسة تونس واحتلالها وتوجيهها لخدمة مصالحهم الاستعمارية وهو ما دفع الجزائر إلى تنظيم حملات متتالية لفرض سلطتها عليها أو تنصيب حلفاء لها على العرش التونسي كما حدث أعوام 1627-1694م-و عام 1735م حينما ارتقى حسن باشا على عرش تونس بمساعدة حسن

[1] كتفضيل فرنسا في الإعفاء من الضريبة بفضل علاقاتها مع الخلافة العثمانية.

[2] نايت بلقاسم :المرجع السابق،ص-ص78-82.

[3] De Grammont :Histoire d'Alger….Op-Cit , p 126.

باي قسنطينة[1]. كما توصل الجزائريون إلى فرض إتاوة وضريبة عينية على حكومة تونس مقابل المساعدات.لكن رغبة بايات تونس في الاستقلال عن سلطة الجزائر أدت إلى استمرار حالة العداء بينهما سيما حين قام الباي مراد عام 1701م بالهجوم على قسنطينة ومحاصرتها لشهور بتأييد من الباي خليل حاكم طرابلس ،ولم تتراجع عنها إلا بعد انهزامها ووقوع اغلب عناصر جيشها في الأسر تجدد الصراع من جديد بعد خلاف حول جزيرة زنيرة [2] وبعد هدوء نسبي طيلة القرن الثامن عشر بفعل تسارع وتيرة التصادم المسيحي الإسلامي و اتجاه الجزائر نحو الخارج ، تجدد التوتر بعد إيواء تونس لبعض المتمردين عام 1806م و لم ينجح الريس حميدو أيضا في القضاء على التوتر إلى غاية 1817م أين تمكن الخليفة العثماني من إنهاء النزاع بوساطته.[3]

2-المغرب الأقصى:

تقبلت الولايات والدول النطاق العثماني كإطار توحيدي للخلافة الإسلامية ،غير أن المغرب ظل رافضا لذلك و كرس اتجاهه نحو الرفض لهذا الوجود والسعي لمحو أثاره ، إذ كانت تحركات المغرب ضد الجزائر تخدم مصالح الأسبان بدرجة أولى والبرتغاليين والفرنسيين والانجليز بدرجة ثانية و تتناسب مع رغباتهم في منع قيام دولة تهدد وجودهم ومصالحهم ،فمصلحة المغرب كانت تقضي بإزالة نظام ينافسها في زعامة المغرب الإسلامي، ولهذا تحالف مع الأسبان في تحالف ثنائي ضد الجزائر [4]رغم محاولات الجزائر توحيد الجهود لتحرير الثغور الإسلامية المغربية ، مما جعل العلاقات بين الجزائر والمغرب تتميز منذ البداية بالتنافس الشديد خاصة عندما حاول الكونت دي الكود ات الموجه للسياسة الاسبانية في شمال أفريقيا ،عقد التحالف مع المغرب ضد الجزائر بوساطة احد اليهود يدعى بن يعقوب كانسينو (Jacob Cansino) وتاجر جنوي مقيم بولو جريللو(Polo Grilo) وبدرجة اقل خلال المراحل التالية فقد كانت الخلافات في

---

[1] ليست المرة الأو لى فقد تدخلت الجزائر عام 1740 أيضا في الأزمة التي حصلت بين حسن بن علي وابن عمه حول السلطة لمساندة ابن الحسين وكان هدف هذا التدخل هو منع وجود نظام مناوئ لها على الحدود.

[2] وهي جزيرة مقابلة لخليج القالة تقع ضمن الحدود الإقليمية للمياه البحرية الجزائرية.

[3] سعيدوني: دراسات وأبحاث.... ،مرجع السابق ، ص 42 -43.

[4] الاتفاق الموقع مع حسن آغا والذي يدور حول قيام القوتين المغربية والجزائرية بحملة مشتركة لتحرير وهران وضمن أن التحضيرات القائمة في المغرب من اجل هذا الهدفوإنها بالسلطان الفاسي يقوم باحتلال تلمسان تنفيذا لأوامر الأسبان إلى جانب تحريض السفير الفرنسي للفاسيين بالقيام بهذا العمل عام 1550 .

القرن السادس عشتدور حول مراقبة تلمسان والمنطقة المحيطة بها مما دفع ملوك المغرب للتقــرب من الأسبان وعقد معاهدة صداقة 1589م والانجليز عام 1585م بينما كانت علاقته مع الخلافة العثمانية والدولة الجزائرية علاقة عداء شديد[1]كما اتصف موقفه بالعدائية من طلــب الخليفــة العثماني سليمان القانوني الذي أرسل إلى السلطان المغربي سفيرا يدعوه لقراءة خطبــة الجمعــة باسم الخليفة فساءت العلاقات بينهما لمدة طويلة غذاها الصراع بين الطريقتين الشاذلية المواليــة للسعديين والقادرية الموالية لبني الوطاس والعثمانيين ، لتصل درجة الاقتتال ومحاولة ملك المغرب احتلال تلمسان فاضطر الجيش الجزائري لاحتلال فاس عام 1554م بعد أن تأكدمـــن تــآمر المغرب مع اسبانيا ، فكانت النتيجة زوال الأسرة السعدية وظهور الأسرة الشريفية التي أصبحت معرضة لتهديد الجزائر نتيجة لموقفها من البرتغاليين وتحالفها معهم فوقعت تحــت رحمتــهم [2] ،وانظم إلى هذه العلاقة الأسبان ونتيجة لهذا التآمر مع أعداء الجزائر كلف ديوان الجزائر فرقــة من الجيش لاغتيال الملكالمغربي عبد الرحمن عام 1557م [3]وسار خلفــه مــسلك أبيــه في الاستعانة بالأسبان وبلغ به الأمر التخلي لهم عن ميناء باديس (Vélez) عــام 1564م إلا أن مشاكل اسبانيا في مستغانم واندلاع ثورة الأندلسيين عام 1558-1668م حالت دون أي عمل يساعد السلطان المغرب على تحقيق أطماعه .

ظلت هذه السياسة المتبعة من قبل الأسرة لغاية سقوطها وظهور أسرة العلــويين الــذين سلكوا نفس النهج مع الجزائر خاصة في عهد السلطان إسماعيل الذي وضع خطة لغزو الجزائــر فاستأثرت سياسته بحرب ضد المسلمين وحاول الاتفاق مع باي تونس للقيام بحملة مشتركة على الجزائر غير أنهما هزما عام 1692مالواحد تلوى الآخر .[4]ومع استمرار تدخل الأســبان مــن خلال وجودهم في وهران،وسعيهم المتواصل لبذر الفتنة ، بدأتالعلاقات تأخذ منعرجا حاسما مع قيام الجزائر اثر تولي السلطان إسماعيل وإعلانه الحرب المقدسة ضد مــا سمــي بالعــدوان الجزائري على المغرب بإعلان التعبئة العامة والبدء في تنفيذ مخطط العزل ، وتمكن الداي شعبان من القضاء على القوة المغربية الغازية وآمال السلطان في ضم تلمسان والجهات الغربية ، وكرد

---

[1] السيد: المرجع السابق ، ص -ص 237-242.

[2] كوران :المرجع السابق ، ص 13.

[3] جلال : المغرب العربي الكبير.... ، المرجع السابق ، ص 39.

[4] جوليان: المرجع السابق ، ص -ص 287-298.

مباشر على استمرار حالة التهديد ساندت الجزائر ثورة زعيم قبائل الريف غيلان ضد شرفاء عام 1693م، وكرر السلطان إسماعيل محاولة ثانية للتوسع على حساب الجزائر بالتحالف مع بـــاي تونس مراد لكنه هزم مرة أخرى عند وادي جديرة بنواحي ارزيو عام 1703م وأحبط الحلف المغربي التونسي وقضي على أمال المغرب في التوسع[1].

ظلت العلاقات المغربية الجزائرية تتراوح بين الجذب والليونة وبين التوتر و حالة الترقـــب القائمة على أهداف منها إبعاد النفوذ الجزائري والتوسع على حسابها في تلمسان ، لكن هزيمة السلطان إسماعيل على يد الداي شعبان عام 1694م و1703م ،وضعت حدا لحرب المغـــرب المقدسة و أنهت طموحات العاهل المغربي واضطرته لتوقيع معاهدة وجدة التي قضت بالاعتراف المتبادل ورسم الحدود وتم الاتفاق على جعل وادي التافنا حدا فاصلا بينهما[2] واضطر المغـــرب للانطواء والدخول في فترة عزلة في حين اتجهت الجزائر إلى تحرير المدن المحتلة من قبل الأســـبان. [3]

المبحث الثالث:علاقات الدولة الجزائرية بالعالم المسيحي:

1-الإطار العام للعلاقات الجزائرية الأوربية:

ظلت العلاقات بين شمال أفريقياوالدول المسيحية سيئة تتحكم فيها العمليـــات البحريـــة لمواجهة المخطط الاسباني ، الذي كان يهدف للسيطرة على العالم القديم وإقامـــة إمبراطوريـــة اسبانية، هذه الدولة التي بدأت تظهر عليها علامات الضعف منذ عـــام 1754م بعـــد فـــشل مشروعها في تحويل شمال إفريقيلستعمرة الاسبانية والبحر المتوسط بحيرة اسبانية ،و في المقابـــل تحولت الجزائر إلى دولة تتمتع بأهمية في ظل تنامي أهمية البحر المتوسط كمعبر تجاري .إذ شكلت الجزائر بالنسبة للخلافة العثمانية امتدا دا لصراعها مع العالم المسيحي الذي أظهرت الوقائع عجزه في مختلف الحملات وبالتالي عجز السياسة الأوربية .بمعنىالعمل الجماعي في تـــشكيل حلـــف، لمجابهة الأمة القوية بالداخل والمصممة المتحدة نظرا لتمتعها بالحصانة الغيبية الشهيرة [4].

---

(1) سعيدوني :دراسات وأبحاث في تاريخ.... ،المرجع السابق، ص-ص 42-43.

(2) بونار(رابح) :المغرب العربي ،تاريخه وثقافته ،ط3 ،دار الهدى ،الجزائر ،2000 ،ص 364.

(3) سبنسر :مرجع السابق، ص 136-138.

(4) سبنسر:المرجع السابق ، ص. 141.

فقد ظلت الجزائر تتمتع بشخصية قانونية في إطار العلاقات مع الأوربيين و طابع الشخصية الدولية الفذة والوجود الدولي البارز والدور العالمي وممارسة المسؤولية الدولية كدولة بادرت بالدفاع عن الكيان الإسلامي لتغير مجرى التاريخ الإفريقي بعيدا عن الاستعمار والمسيحية[1] إذ بفضل خير الدين ظهرت الدولة الجزائرية التي غيرت مجرى هذا التاريخ الأوربي وعلاقاته الخارجية.[2]إذ ظلت العلاقات الجزائرية الأوربية يدفعها الحقد الصليبي وظل القناصل والسفراء الأوربيين يعملون على عرقلة البلاد وتحطيم الازدهار العمراني، فقد كانت الدول الأوربية تضمر الشر لمدينة الجزائر ومن هنا كان مجهود الجزائر في عسكرة اقتصادها ،عملا أملته الظروف التاريخية وعلاقاتها بالدول الأوربية وهو دليل ثروتها فقد كانت الجزائر أقوى دول المغرب ، نظرا لامتدادها البحري والبري وقوتها الاقتصادية فكانت علاقاتها واسعة المدى والأكثر تأثيرا في الحرب والسلم [3]، فاكسبها سمعة لدى الدول الأوربية التي كانت تدفع الضرائب المختلفة ترضية لها وكسبا لصداقتها [4].

كان مصدر قوة الجزائر وقدرتها على التأثير في العلاقات الدولية إدراكها بالمخاطر المحيطة بها واهتمامها بإعداد نفسها وأجبرت على مواجهتها سياسيا وعسكريا واقتصاديا بفعالية بالإضافة إلى الموقع الجغرافي والاستراتيجي الذي فرض عليها بناء قوة برية وبحرية قادرة على التأثير في الأحداث العالمية، وزيادة على هذا فإن الإمكانيات الاقتصادية المتنوعة جعلت أوروبا تابعة لها بالرغم من العلاقات المضطربة في الكثير من الأحيان،إذ شهدت العلاقات نموا وتطورا بأن عقدت مع بريطانيا 27 معاهدة وتولى رعاية المصالح الفرنسية 60 قنصلا ونائب قنصل وتردد على الجزائر 96 محافظا ومبعوثا.[5]

---

[1] نايت بلقاسم : المرجع السابق ،ص، ص 50-51.

[2] جوليان:المرجع السابق ، ص 515.

[3] حليمي:المرجع السابق ، ص-ص 247-249.

[4]الولايات المتحدة وهولندا ونابلي والسويد الدنمارك تدفع الضرائب كل عامين الدنمارك والنرويج والسويد تدفع ضرائب أخرى في شكل أسلحة وحبال وصواري،ذخيرة ، بارود ، حديد .أما اسبانيا فرنسا انجلترا وهانوفر سردينيا ، توسكان والبندقية تدفع هدايا دورية لأعضاء الحكومة عند إبرام المعاهدات وتعيين القناصل أما هامبورغ وبريم فقد كانت تدفعان أدوات الحرب و التموين البحري .

[5] بوعزيز :المرجع السابق ،ص- ص 53-55.

2 -مكانة الجزائر و علاقاتها الأوربية والدولية :

تحكم مفهوم المسألة الغربية [1]والضريبة المفروضة على الأوربيين[2] في العلاقات الجزائرية الدولية والأوربية بالتحديد في حوض البحر المتوسط ،والتي لم تكن مقصورة على الجزائر فحسب بل كانت تعني بقية الأقطار المغاربية لكن بدرجات متفاوتة فقد كانت السياسة الخارجية مرنة وتصورية وذكية وسريعة و اتسمت بالقدرة على الإقناع المطلق بالتفوق البحري الذي كان يعني بقاء الدولة كسياسة حيوية لحماية الأمة الإسلامية ، وكان هذا التفوق نابع من الثقة بالنفس والاعتقاد الراسخ باستحالة احتلال أي جزء من الأراضي الجزائرية اثر فشل الكم العددي الهائل من الحملات التي أرسلت ضدها [3].

ففرضت السلطة البحرية الجزائرية على الدول الأوربية في ذلك الولايات المتحدة غطاءا واحدا من العلاقات وهو ضرورة الاعتراف بقوتها ومكانتها ،وكانت هذه الدول تدفع الجزية وهدايا سنويا وتحاول في الكثير من الأحيان قهر هذه السلطة وظلت هذه المدفوعات الأوربية رغم تأثيرها على التوازنات المالية عاملا أساسيا في الحفاظ على التوازن التجاري في البحر المتوسط أمام عجز السياسة الخارجية الأوربية في مجابهة هذه الأمة القوية،[4] رغم محاولات الأسبان وحتى البنادقة ، و الأمريكيين فيما بعد تشكيل حلف للقضاء على هذا الخطر ، فقد تمكنت الجزائر من إحداث نوعا من التوازن في العلاقات الخارجية بين المصالح الاسبانية والبريطانية، وبظهور الولايات المتحدة دخل عنصر جديد في العلاقات ، فاتجه الجزائريون إلى استغلال هذا الظهور ضمن السياسة القديمة - فرق وازدهر - وان كان هذا الظهور يعني زيادة في مصادر الجزية ، و دافعا لتوسيع دائرة نشاطها إلى المحيط الأطلسي وتهديدها للبواخر

---

(1) المسألة الغربية أسوة بالمسألة الشرقية في القرن 19 ،ويراد منها القضاء على النفوذ الجزائرية في البحر المتوسط وتصفية الجزائر كدولة، وقد ظهر كمصطلح خلال مؤتمر فينا 1815م حينما طالب الوفد الفرنسي بضرورة تشكيل تحالف دولي للقضاء على ما اصطلح عليه بالقرصنة الجزائرية.

(2)كانت الضريبة بمثابة حماية فردية وكذلك امتياز للقوى الأوربية الصغيرة المعتمدة على التجارة السلمية وفي المحافظة على التوازن في مصالحها الاقتصادية إذ تضمن مثلا تجارة جنوه مع الجزائر فائدة قدرت بـ 30 % وكانت تفرض تصاعديا على الدول الأوربية وكانت هذه الترتيبات نفسها تنطبق على الموانئ الأوربية التي تجهز السفن الجزائرية بالخدمات أو الإصلاح كميناء ليفورن بايطاليا ومرسيليا بفرنسا الذي كان ملجأ للأسرى الفارين من السفن الاسبانية .

(3) سبنسر :المرجع السابق ، ص 135.

(4) سعد الله : أبحاث وأراء... ،المرجع السابق ص،ص 248-249.

الأمريكية فتمكنت من إبعاد التجارة الأمريكية عن البحر المتوسط، غير أن ظهـــور البرتغـــال كعامل بديل لاسبانيا وتمركزه بقوته البحرية في مضيق جبل طارق سمـــح بـــالعودة التدريجيـــة للأمريكيين.[1]

إن الوضعية القانونية العالمية للدولة الجزائرية من خلال ولائها للخلافة العثمانية جعلها دولة أكثر تعقيدا للعلاقات الأوربية الإسلامية إذ كانت تمثل نفسها في جانب وتمثل الخلافة في جانب آخر ونظرا للمسؤولية الدولية الملقاة على عاتقها بحكم موقعها وكونها عرضة وهدفا للهجمات المتتالية فقد أصبحت ذات سلطة بل هي الحكم في البحار مما تطلب منها تكـــاليف وبالتـــالي يستلزم فرض ضريبة على الدول التي تسعى لضمان آمن سفنها وضمان أمنها في حد ذاتـــه ولم تكن الدولة الجزائرية تطلب المال بالضرورة ، بل كانت تفضل دوما العتاد بل تشترط العتـــاد وترفض المال[2] ،وقد جسدت قوة الدولة الجزائرية في تعليق دي غرامون حيث يقول:" ..لقد ظلت الجزائر طيلة ثلاثة قرون رعب النصرانية ومصدر خوفها وضعفها، فلم تنج دولة واحـــدة من ملاحقة البحارة الجزائريين، بل خضعت لهم ودفعت بذلك لضريبة المذلة السنوية، فـــثلاث أرباع دول أوروبا كانت تدفع الضريبة" [3].

لقد بنيت إستراتجية الجزائر تجاه الدول الأوربية على محاور تحكمت فيها العسكرية ونضالية السلام كما تراوحت العلاقات الجزائرية الأوربية بالتعاون تارة وبالتآمر وبالتكتلات والغـــارات والحروب تارة أخرى:

- **المحور الأول:** وهو منع أي تجمع للمناهضين الأوربيين الأقوياء من خلال المطالبـــة بالجزيـــة بصورة منتظمة ، ومبدأ المعاملة المتميزة لبعض الدول دون الأخرى خاصة فيما يتعلق بالتـــدابير المتعلقة بإطلاق سراح الأسرى واختيار الأهداف البحرية إلى عقد اتفاقيات سلم رسمية.
- **المحور الثاني:** الحرب المستمرة على الدول المناوئة لها وللخلافة وضرب مصالحها ضمن سياسة الجهاد البحري، فأصبحت البحرية الجزائرية بعد أن استطاعت الوصول إلى المحـــيط الأطلـــسي الذي كان حكرا على الأوربيين خاصة الأسبان والبرتغاليين[4] تمثل خطرا أكيدا على تجارتهم في

---

[1] سبنسر :المرجع السابق ،ص-ص 151-155 .

[2] نايت بلقاسم :المرجع السابق ، ص 76.

[3] De Grammont: Histoire d'Alger…Op-Cit , pp 1-2.

[4] De Grammont: Histoire d'Alger ….Op-Cit , p 129.

البحر المتوسط وحتى تهديدا لاستقرارها السياسي ،كما تمكنت من فرض علاقات متكافئة مع الدول الأوربية من جهة، ومن جهة أخرى أصبحتهناك قابلية لبداية الاحتكاك مع الخلافة حول مدى التزام الجزائر بالاتفاقيات التي تعقدها الخلافة مع أوروبا وأدخلت بذلك في أزمات عديدة .

●**المحور الثالث:** نتيجة التعادل النسبي الذي حدث بين القوى البحرية العثمانية والجزائرية من جهة ،والأوربية من جهة أخرى بعد معركة لبانت، والدخول النشط لدول شمال أوروبا في قضايا البحر المتوسط سعت الجزائر للاستفادة منه بعدة طرق فاتساع المنافسة الأوربية ،وتحولها إلى البحر المتوسط حمل معه تزايد المناسبات أمام الدولة الجزائرية لتطبق المبدأ التقليدي - قسم وسر - تجاه ا لقوى التقليدية المناهضة التي فشلت في عقد تفاهم سري في مسألة إعداد حملة بحرية مشتركة على غرار تلك التي قام بها شارل الخامس عام 1541مفكانت القاعدة هي : مصادقة الجزائر أكثر من معاداتها خاصة بعد تطوير الجزائر لطرق الإبحار في خط السفن وفرض حرب بحرية باستخدام القوة النارية الضخمة ، والسرعة وقابليتها للملاحة في حوض المتوسط والمحيط الأطلسي، وفي تلك الفترة حدث تحول على الساحة الأورويبة ، فقد تدهورت العلاقات من جديد بين ملكي إسبانيا وفرنسا وأصبحت الجزائر حليفا قويا لهذه الأخيرة وبما أن الحرب لم تتوقف بين إسبانيا والم سلمين ، فقد استمرت البحرية الجزائرية في ممارسة الأعمال القتالية ضد اسبانيا والدول الأوربية الرافضة لقانون الجزائر البحري - دفع الجزية أو عدم الإبحار-.

II-العلاقات مع الدول الأوربية:

كانت الجزائر ترتبط بمعاهدة سلام مع كل الدول الأوربية باستثناء روسيا وألمانيا التي كانت تتخذ تجاهها الجزائر موقف عدم الاكتراث والرفض لعقد الاتفاقيات أو إقامة علاقات تضامنا مع الخلافة والبعض الأخر نتيجة لاستمرار حالة حرب معها. [1]

1- العلاقة مع الفاتيكان:

تميزت العلاقات بين الكنيسة البابوية والدولة الجزائرية بالصراع الدائم فقد كانت مواقف البابوية من الجزائر سلسلة من المؤامرات والمناورات لإنشاء حلف في إطار الحروب الصليبية التي

[1] كاثكارت(جيمس.ليدر) مذكرات أسير الداي قنصل أمريكا في المغرب ،ترجمة العربي(إسماعيل) ،د.م.ج ،الجزائر 1982 ، ص 15.

تعتبر عقيدة ثابتة لرجال الكنيسة ، وهذا منذ الحملة الأولى على الجزائر وذلك تنفيــذا لوصــية الملوك الأسبان –فرديناند وإيزابيلا –فقد شجعتهم البابوية على تحطيم الدولة الجزائرية وبالغت في إبراز مخاطر استمرار هذه الدولة ،درجة محاولة إثارة الفرنسيين أيضا، وشاركت في الحملات بصورة مباشرة كحملة شارل الخامس عام 1541م و معركة لبانت 1571م[1] وبصورة غــير مباشرة بدفع تكاليف الحملات من صندوق الحرب الصليبية أو استغلال الإرساليات الإنــسانية للتجسس لصالح الأسبان ثم الانجليز رغم الخلافات الدينية القائمة بين هذه الأخيرة البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية التي ظلت في صراع منذ ظهور الانقسام الديني في الكنيسة الكاثوليكيــة والذي انعكس تلقائيا على العلاقات مع العالم الإسلامي. [2]

2- العلاقة مع المدن الايطالية :

نشأت العلاقات بين المدن الايطالية والدولة الجزائرية في ظل التنافس فيما بينــها وبــين الأسبان والفرنسيين من جهة أخرى على إقامة علاقات مع الجزائر ، وطغــى عليهــا التعامــل التجاري والتبادل العلمي والثقافي ذو الطابع السلمي إلا أن بروز التحالفات الاسبانية ودعاوي البابوية أدت إلى تحول هذه العلاقات نحو علاقات أكثر عدائية واقل سلمية خاصة مع دولــتي البندقية والصقليتين وكانت ثمرة هذه العلاقات معاهدتين، معاهدة هدنة مع البندقية سنة 1763 ومعاهدة سلم مع ملك الصقليتين عام 1816 أما الطابع العام فقد كانت الحــرب المــستمرة، أخرها انضمام المدن الايطالية إلى الحلف السياسي العسكري المشكل من هولندا – اســبانيا – بروسيا – الدنمارك – روسيا والولايات المتحدة الأمريكية عام 1814.

3- العلاقات مع البرتغال :

ورث البرتغال الحساسيات الاسبانية ضد الجزائر وبقية البلدان الإســلامية منــذ حــرب الاسترداد ولذا كان له دور في تغذية تيار المد الصليبي ضد الجزائر التي كان موقفها صارما مــن وجوده بالمغرب، إذعمل على إقناع الدول المسيحية عام 1785م لتكوين حلف صليبي ضــد الجزائر ، غير انه فشل في محاولته ، فاضطر إلى عقد معاهدة هدنة بوساطة بريطانيــة ومعاهــدة هدنة ثانية في 17 سبتمبر 1793م ومعاهدة سلم بعد عامين وتم تجديدها عام 1813م .[3]

---

[1] نايت بلقاسم : المرجع السابق ، ص -ص 85-88.

[2] Mezali :op-cit,p176.

[3] نايت بلقاسم: المرجع السابق ص- ص88- 91.

4- العلاقات مع ألمانيا :

كانت الدول الألمانية (إمارات قبل 1871م) على علاقة مع الجزائـــر إذ كـــان لإمـــارة هانوفر(Hanovre)تمثيل دائم في الجزائر في حين كانت بروسيا محرومة من هذا ا لامتياز رغـــم العروض والإغراءات [1] مما دفعها لانضمام إلى الحلف السباعي على عكس هـــامبورغ الـــتي استفادت من هذا الصراع و عقدت معاهدة مع الجزائر عام 1751م غير أنها سرعان ما ألغتها بضغط من اسبانيا التي كانت ترى فيها خرقا للحصار الدبلوماسي التي حاولت إقامتـــه علـــى الجزائر. أما بقية الإمارات فقد كانت تتناوب لعقد تحالفات ضد الجزائر آخرها محاولة برلمـــان فرانكفورت عام 1817م في دعوة الدول الأوربية إلى عقد حلف عام ضد الدول الإسلامية في شمال إفريقيا تمهيدا لتنفيذ توصيات مؤتمر فيينا.

5-العلاقات مع روسيا:

ظلت روسيا بعيدة عن اه تمام الدبلوماسية الجزائرية تضامنا مع الخلافة العثمانية التي كانت في حالة حرب مستمرة معها لاعتبارات تاريخية منها ادعـــاءات روســـيا بالوراثـــة الـــشرعية للإمبراطورية البيزنطية وإستراتجية روسيا في الخروج إلى المياه الدافئة عبر الدردنيل والبوســـفور اللذين كانا تحت السيا دة العثمانية دون دفع رسوم العبور، ورغم تدخل الخلافة في العديد مـــن المرات لإقناع الجزائر بعقد معاهدة مع روسيا إلا أنها رفضت لاعتبارات مبدئية وأخلاقية عاليـــة خاصة عندما انضمت روسيا إلى التحالف السباعي.[2]

6-العلاقات مع الدنمارك:

مع دخول الدنمارك كدولة بحرية شمالية إلىحلقة الصراع البحري وتمكن ها من عقد معاهدة سلم وتجارة مع الجزائر عام 1746م فتح المجال لاتساع نطاق العلاقات الأوربيـــة الجزائريـــة وبالرغم من ذلك حاولت القيام بعمليات غزو فاشلة ضد الجزائـــر كحملـــة 1770م، والـــتي كلفتهم الإعلان العام للحرب على سفنها من قبل الأسطول الجزائري [3] ثم قام بمحاولة فاشـــلة أخرى عام 1771م، مما اضطر الدنمارك إلى محاولة التحالف مع الـــدول الأوربيـــة في الحلـــف

[1] De Grammont : Histoire d'Alger …op-cit , p. 339.

[2] نايت بلقاسم :المرجع السابق ،ص 92.

[3] De Grammont: Histoire d'Alger …op-cit ,p 319.

السباعي، وأمام فشل هذه المحاولة اضطرت إلى التوقف عن معاداة الجزائر و عقد معاهدة للسلم والتجارة في 16ماي 1772م .

7-العلاقات مع السويد :

رغم المناورات السرية التي قام بها السويد لعقد تحالفات ضد الجزائر فان الطـــابع العـــام لعلاقاتها مع الجزائر طبعها السلم والتعاون التجاري، نظرا لتأخرها في الاتصال بالبحر المتوســـط والجزائر إذ يعود أول اتصال إلى معاهدة 1729م ثم معاهدة 1730مللسلم والصداقة والتمث يل الدبلوماسي.[1]

8-العلاقات مع هولندا:

تعرضت العلاقات الهولندية الجزائرية إلى مد وجزر فقد انضمت هولنـــدا إلى الأحـــلاف الأوربية -السباعي خاصة -عام1814م [2] إضافة إلى الغارات الكثيرة ابتدأ من عام 1622م و إلى غاية 1660م،والتي باءت كلها بالفشل آخرها الغارة الهولندية البريطانية عـــام 1816م، الأمر الذي دفع الجزائر إلى إعلان الحرب رسميا على السفن الهولندية عـــام 1686م فقابلتـــه الحكومة الهولندية بإصدار أمر ملكي يقضي بمقاطعة السفن الجزائرية في الموانئ الهولندية وإنهـــاء معاهدة1562م،كما عملت هولندا في محاولة لجر الخلافة للضغط على الحكومة الجزائرية لجعلها تلتزم ببنود الاتفاقية الموقعة مع الخليفة العثماني **(انظر ملحق رقـــم12)**،لكن أمام قـــوة البحريـــة الجزائريةوقدرتها على فرض وجودها [3] فاضطرت في الأخير إلىاسترضاء الجزائـــر وعقـــد ت معها معاهدة عام 1712م [4]وكانت هذه معاهدة حلقة منسلسلة من المعاهدات الـــتي بلـــغ عددها 11 معاهدة أولها عام 1652م للسلم والتجارة وآخرها عام 1816م.[5]

10-العلاقات مع فرنسا:

ظلت العلاقات الجزائرية الفرنسية طوال فترة حكم البايلربايات جيدة منذ التحالف الموقع بين خير الدين وفرنسوا الأولملك فرنسا ثم اتسع مجال الـ تعامل إلى التعاون البحري حيث عمل

---

[1] نايت بلقاسم : المرجع السابق ،ص-ص 102-111 .

[2]Belhamissi :la Marine et les Marins…., op-cit ,Tome3,p-p,70-109.

[3] تمكنت من تدمير أكثر من ثلاثين سفينة خلال فترة قصيرة 1686-1712

[4]Krieken(Gerard,Vun) et Belhamissi(Moulay) : Corsaires et marchands – Relations entre Alger et les Pays Bas 1604-1830,Ed/ ,Bouchéne, Paris 2002 p-p 55-81.

[5] نايت بلقاسم :المرجع السابق ص- ص 116-125.

حسن باشا والريس درغوث مع القباطنة القدماء الفرنسيين أمثال ستروز لاغـادره وسـاينت بلاتجارد في البحر كما لجأ رياس الجزائر في بعض الأحيان إلى استعمال ميناء بروفانس ومرسيليا. كما ساعد الملك هنري الثاني البحارة الجزائريين بـ المعلومات عن تحركات الأسبان ، إذ أن كره الفرنسيين للأسبان دفعهم إلى التحالف مع المسلمين رغم استهجان البابا لـذلك .إلى جانـب المصالح التجارية تحصلت عليها فرنسا في شكل امتيازات [1]،وفي المقابل قامت فرنسا بحمـلات عسكرية نيابة عن الأوربيين كلهم في محاولة القضاء على الدولـة الجزائريـة خـلال أعـوام 1661و1665و1682و1685و1688م بحملات عسكرية فشلت كلها. [2]

11-العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية:

لقد تميزت العلاقات الأمريكية الجزائرية في عمومها بعدم التوازن ففي البداية كانت لصالح الجزائريين من 1785-1815م لكن بعد مؤتمر فيينا تغيرت الموازين ورجحت الكفة لـصالح الولايات المتحدة.كان نتيجة لدخول أطراف جديدة في النشاط البحري أن بدأت العلاقات غير الرسمية بين الجزائر والولايات المتحدة عام 1786م إثر اعتراف الجزائر باسـتقلال الولايـات المتحدة الأمريكية مع دخولها كطرف في البحر المتوسط قامت بمحاولة ربط العلاقة باتفاقيـة فأقدمت على إرسال مبعوث إلى الجزائر حاملا معه صيغة معاهدة غير أن الجزائـر رفـضتها ثم جددت المحاولة عام 1795م، وتم عقد أول معاهدة بعد عشر سنوات كاملة مـن المفاوضـات نتيجة للمناورات البريطانية لمنع عقد مثل هذه المعاهدة.[3]

كما حاولت الولايات المتحدة تشكيل تحالف ضد الجزائـر ووصـل الحـد بـالرئيس الأمريكي جورج واشنطن إلى إسداء النصح لملك فرنسا بضرورة غزو الجزائر للتخلص من هذه الهيمنة والعبء الذي تشكله الضرائب المفروضة على الأمة المسيحية، ونتيجة لفشل هذا المسعى اضطر الرئيس الأمريكي إلى الموافقة على مشروع المعاهدة التي كانـت بدايـة لعقـد ثـلاث معاهدات جاءت ترضية للجزائر و تضحية من الولايات المتحدة الأمريكية .

وبالرغم من ذلك فان هذه المعاهدات لم تردع الولايات المتحدة عن تنظيم العديـد مـن حملات عسكرية ضد الجزائر وأشهرها حملـة عـام 1815م بقيـادة الكمـودور سـتيفن

---

[1]Raymond :op-cit,pp.280-281.

[2] نايت بلقاسم :المرجع السابق ، ص 73.

[3] كاثكارت : المرجع السابق ،ص 16.

ديكاتور Stiven Decator والتي استشهد فيها الريس حميدو بعد معركة بحرية [1] وكان من نتائجها عقد معاهدة جديدة بصيغة الدولة الأكثر رعاية [2]كما تحكمت في العلاقات الجزائرية الأمريكية قبل 1783م، رغبة هذه الأخيرة في منع احتكار الجزائر لحرية العمل البحري، فعندما أرادت الولايات المتحدة مد حركتها إلى البحر المتوسط أعلنت الجزائر الحرب ضدها ، ونظرا لعدم قدرة الولايات المتحدة على معالجة قضية حجز الأسطول الجزائري لسفينتين أمريكيتين عام 1785م فقد أضافت مادة في معاهدتها مع فرنسا تقوم بموجبها هذه الأخيرة بمساعدتها ،وفي سنة 1793م تفاوض الانجليز حول عقد اتفاقية سلم بين الجزائر والبرتغال فكانت فرصة للبحارة الجزائريين للتخلص عمليا من انحصار نشاطهم في البحر المتوسط فغزو بسرعة شواطئ اسبانيا ، وشمال المغرب الأقصى وكذلك خليج بيسكاي وتمكنوا من اسر 11 سفينة أمريكية وأكثر من 100 بحار فدفع هذا العمل الولايات المتحدة إلى التفاوض مع الجزائر مجددا لعقد معاهدة سلم وذلك عام 1795م ،وتوصل المفاوض الأمريكي جوزيف دونالدسون(Joseph Donaldson) إلى عقد معاهدة تدفع بموجبها الولايات المتحدة الأمريكية 642500 دولار كفدية لـ 100اسير بالإضافة إلى الهدايا، وفي المقابل قبل الداي التدخل لدى تونس وطرابلس من اجل عقد معاهدة سلم مع الحكومة الأمريكية وقد وافق مجلس الشيوخ على الاتفاقية[3] في 02مارس 1796م [4]ووقعت معاهدة سلام بينهما[5]، وحينما رفضت الولايات المتحدة الوفاء بالتزاماتها في ما يخص المعدات اندلعت الحرب بينهما عام 1815م وتم تجديد المعاهدة وأصبحت العلاقات عادية .[6]

---

[1] سبنسر:المرجع السابق، ص.ص. 144-145.

[2] نايت بلقاسم : المرجع السابق ، ص 240.

[3]تضمنت المعاهدة :تدفع الولايات المتحدة جزية سنوية قدرت بـ 12000 سكوين جزائري (21600 دولار) – تكون الجزية في شكل تجهيزات بحرية – حصول السفن الأمريكية على امتيازات 20طلقة مدفعية تحية – تمثل الولايات المتحدة بقنصل مقيم. سبنسر :المرجع السابق، ص. ص144-145

[4]Dupuy(Emile) et Blaudy(Alain) : Américains et Barbaresques 1776-1824 ,Ed/,Bouchéne , Paris 2002 pp.200-202.

[5]أثارت الاتفاقية قلق الدول الأوربية نظرا لظهور الولايات المتحدة كمنافس تجاري في البحر المتوسط وسعوا إلى تقويض هذا الاتفاق وإعادة سياسة عدم الوفاق بين الأمريكيين والجزائريين وهو فعلا ما تم

[6] سعد الله :دراسات وأبحاث.... ، المرجع السابق ،ص- ص. 249-250.

التحالف الأوربي الأمريكي ضد الجزائر:

عندما أرسل مؤتمر اكس لاشبيل وفدا إلى الجزائر عام 1818م يتألف من ممثلين عن بريطانيا و فرنسا إلى الجزائر حاملا عدة مطالب اعتبرتها الجزائر تدخلا مكشوفا في شؤونها الداخلية ورفضت الجزائر التوقيع على وثيقة – السلام المفروض – وكان نتيجة هذا الرفض قيادة الحملة البريطانية الهولندية ضدها عام 1816م وانضمت إليها سفينة فرنسية كانت راسية بالميناء جزائري، فوجدت الولايات المتحدة التدخل الأوربي فرصة ذهبية لفرض شروطها،و انظم إليهم الأسطول الأمريكي بقيادة شونسي (Chauncey)، وكان هذا العمل بوحي من البابا وانتهت بانتصار الجزائر رغم الخسائر الكبيرة التي لحقت بالمدينة وحصونها ، واستشهاد 600 جزائري.

12-العلاقات مع بريطانيا:

كانت العلاقات البريطانية الجزائرية يسودها طابع الود حينا والعداء حينا أخر، حيث بدأت سلمية ايجابية ولكن تخللها العديد من العمليات القتالية و الغارات.[1] كانت تلجأ إلى تملق الجزائر متى كانت الحرب قائمة في أوروبا ،أما في حالات السلم فإنها تبدأ في التحريض على الحملات والغارات [2]إلا أنه عموما ظلت علاقات سلمية اقتصادية في إطار التبادل التجاري فرضته مصلحة الجزائر في تعويض النقص الحاصل في الأسلحة والصناعات العسكرية الأساسية والبارود من جهة وطبيعة السياسة البريطانية المصلحية من جهة أخرى[3]إضافة إلى أن بريطانيا البروتستانتية غير معنية بالتحالفات مع الدول الكاثوليكية تنفيذا لأوامر البابا.[4]

غير أن تطور القرصنة الأوربية دفع بريطانيا إلى المساهمة فيها فأرسلت العديد من الغارات على الجزائر تجاوزت العشر غارات منذ عام 1620م ولكنها فشلت باستثناء غارة اللورد أكسموث المشهورة عام 1816م، التي أدت إلى عقد معاهدة كانت اغلب موادها في صالح بريطانيا فكانت نتيجة أساسية لتحول السياسة البريطانية تجاه الجزائر بعد عودة السلم إلى أوروبا.[5] أما بخصوص الحالة السلمية فقد عقدت بريطانيا سلسلة من المعاهدات بلغت ثمانية

---

(1) De Grammont : Histoire d'Alger…op-cit,p36.

(2) شالر : المرجع سابق ،ص.134.

(3) سبنسر : المرجع السابق ، ص 159.

(4) De Grammont : Histoire d'Alger …Op-Cit,p37.

(5) شالر :المرجع سابق ،ص-ص152-157

عشرة (18) معاهدة امتدت من عام 1655م وآخرها معاهدة 1824م التي ألغاها الداي حسن وطرد القنصل البريطاني ادونيل [1] فلجأت إلى سياسة التهدئة على الجزائر خاصة بعــد ظهــور نابليون و سياسته التوسعية، فتحصلتبريطانيا على امتيازات تجارية خاصة عا 1806م.[2] أما خلال أعوام 1812- 1815م سعت بمحاولات مع الجزائر لعزل نابليون عن أصدقائه وبالتالي اعتمدت على سياسة حفظ التوازن في البحر المتوسط .كان اعتقاد بريطانيا أنها بكسب صداقة الخلافة في الشرق والجزائر في الغرب تستطيع تامين خطوط مواصلاتها في البحر الأحمر، الدردنيل وجبل طارق، و عزل نابليون والولايات المتحدة ، لكن في المقابلشـــنت بريطانيـــا وحـــدها لمكافحة الوباء البحري "القرصنة الجزائرية"على حد قول الانجليز حملات بلغ عددا سبع حملات أولها 1622م و آخرها1816م.[3]

13-العلاقات مع اسبانيا:

رغم الغارات الاسبانية المتتالية على الجزائر خلالثلاثة قرون كاملة كان الهدف المـــصرح منها هو وضع حد للقرصنة. قاملوك اسبانيا منذ فرديناند إلى شارل الثالث بإرسال أســاطيل لتدمير العاصمة أو لإذلالها في سنوات 1516-1784ملكنها فشلت فسعى ملوك اســبانيا إلى تشكيل تحالف من جنوه ،نابلي ،مالطة وليفورن بمباركة البابا بي السادس(Pie VI) كمـــا فكرت في مشروع مقايضة وهران بجبل طارق مع الانجليز لكن انهزامها أمام الانجليز عام 1780 في معركة ترينيزار (TriniSarre)حال دون إتمام المشروع المزمع تنفيذه بعدها سعوا إلى إقامة علاقات ثنائية باللجوء إلى طريقة أخرى وهي تجاهل رئيس الجزائر والتفاوض مع الخليفة العثماني قصد عقد معاهدة سلم ، إلا أن الجزا ئر رفضت ضغوط الخليفة عليها فدفع ذلك اســبانيا إلى السعي إلى عزل الجزائر دوليا وسياسيا فعقدت اتفاقية مع سلطان المغرب في ماي 1780م ومع طرابلس الغرب عام 1784م فأدى ذلك إلى توتر شديد في العلاقات بــين الجزائــر وأوروبــا ،فرفضت الصلح مع روسيا و طرد قنصل بريطانيا فقر رت اسبانيا استغلال هذه الفرصة فنظمت

---

[1] نايت بلقاسم :المرجع السابق ،ص- ص 188-196.

[2] Playfair(R.Y) :" Episodes de l’histoire des relations de la Grande-Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française" R.A N°22 1878, pp. 390-391.

[3] سعد الله : دراسات وأبحاث ....،المرجع السابق ،ص 250-296.

حملة جديدة عام 1783م بقيادة انطونيو بارسيلو(Don Antonio Barcillo) قصد تحقيق نصر تعقبه مفاوضات إلا أن الأسبان هزموا مرة أخرى . وأعاد الاسبان الكرة عام 1784م بأسطول بلغ 130 سفينة بمباركة من البابا إلا أنها فشلت [1]رغم القوة العظيمة الكافية لتحقيق النصر.[2] هذا الفشل المتتابع أدى إلى محاولة التفاوض بوساطة فرنسية قام بها القنصل الفرنسي دي كرس(Dekrcy) وبعد مفاوضات حادة دامت سنة عقدت بين الجانبين في 14 جوان 1786م معاهدة سلم وصداقة [3]حررت الاتفاقية بين الداي محمد بن عثمان والملك شارل الثالث وقنصل اسبانيا وتتضمن المعاهدة : مقدمة و25 بندا **(انظر الملحق رقم13)** تعترف بحق الجزائر في استرجاع وهران مقابل التعاون والسلم . نتيجة للوضع السياسي العام للعلاقات الدولية في كون جميع دول أوروبا تقريبا كانت في حالة حرب مع الجزائر و تحاول أن تفرض السلم بالقوة فقد دخلت روسيا في الصراع لان الجزائر ناصرت الأسطول العثماني ،فحاولت اسبانيا الاستفادة من هذا الوضع خاصة بعد أن خلف شارل الثالث أخاه فرديناند IV .كانت كل من فرنسا وانجلترا تسعى للتحالف مع اسبانيا على منافستها واختارت اسبانيا الاتجاه نحو فرنسا على أمل أن تستفيد من وساطتها مع الجزائر [4] وتم لها عقد معاهدة ثانية عام 1790م التي مهدت لاسترجاع وهران.

المبحث الرابع: مكانة الجزائر الدولية ومظاهر السيادة:

منذ ظهور الدولة الجزائرية الحديثة وجدت نفسها بحكم الصراع القائم في البحر - باعتبارها دولة بحرية قريبة من موقع الخطر المتمثل في أوروباالصليبية بقيادة اسبانيا - مجبرة على بناء قوة بحرية تمكنها من احتلال مكانة والدفاع عن وجودها ، خاصة بعد الاضطراب الذي شهده البحر المتوسط نتيجة للحروب التوسعية الاسبانية في أوروبا وشمال إفريقيا.

كانت إحدى العناصر التي أدت إلى تصاعد مدينة الجزائر السريع هو قرار العثمانيين باستعمال قواعد الأراضي الإفريقية في الصراع ضد الدول المسيحية . لذا وجهوا اهتمامهم في المقام الأول إلى استرجاع موانئ شمال إفريقيا المحتلة من قبل الأسبان كأجزاء إسلامية ،ثم تشكيل

---

[1] بلحميسي(مولاي): "صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الاسبانية" ، المجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 11 ، ش.و.ن.ت، الجزائر ، 1974، ص 6-11.

[2] De Grammont : Histoire d'Alger …op-cit , p 333.

[3] بلحميسي: نفس المرجع السابق ، ص 12.

[4] Bertrand(Lois): Histoire d’Espagne, Coll/ Gaymard, Paris ,1936, p. 483.

قوة بحرية بمثابة إستراتيجية للسيطر ة على البحر المتوسط ثم القضاء على القوى البحرية المسيحية ووضعها كآلية للحرب المقدسة الجهادية التي اعتنقها العثمانيون بشدة.[1]

إذا كانت إستراتيجية الخلافة العثمانية تكمن في مسؤوليتها عن ظهور مدينة الجزائـــر كقوة لكسبدولة خلافة برية و بحرية .فقد ثبت أن القوة البحرية الجزائرية كانت أفضل من البحرية العثمانية قبل تولي خير الدين قيادة الأسطول وأصبح لمدينة الجزائـــر دورا حـــضاريا في البحر المتوسط و سياسيا سواء في نطاق السياسة الخارجية العثمانية ،أو في القدرة على مواجهـــة الحملات المستمرة للأوروبيين و محاولاتهم عزل ا لجزائر دوليا، خاصة بعد أن أصبحت مركـــز لأكثر الجيوش نجاحا في الخلافة وكان عامل عظمة الجزائر في موقعها ووضعيتها إذ كانت دائمة اليقظة . استطاعت أن تأتي بالاستقرار لشمال إفريقيا كما أدخلت عناصر الحضارة العثمانية إلى غرب المتوسط ،فقد تحولت الجزائر إلى دولة تتمتع بأهمية في ظل تنامي أهمية البحـــر المتوســـط كمعبر تجاري كما شكلت الجزائر بالنسبة للخلافة العثمانية نموا وفقا لـــدورة خاصـــة حيـــث تحولت من منطقة تدين بالولاء إلى الخلافة إلى دولة مستقلة حافظت عل ى العـــادات والتقاليـــد والاتفاقيات.

1-الوضعية القانونية للجزائر:

إن الوضعية القانونية للدولة الجزائرية من خلال ولاءها للخلافة العثمانية جعلها دولة أكثر استقلالية فمن ناحية السياسة الخارجيةخاصة ما تعلق منها با لتمثيل قنصلي لهقـــد حافـظـــت الجزائر على وضعها القانوني في البحر المتوسط [2]،و بفضل موقعها الجغرافي الساحلي والسياسي استطاعت أن تحول مدينة صغيرة ومجتمع قبلي إلى دولة شكلت موقعا دفاعيا قويا للإسلام ضد الهجمات البحرية [3] ولكن ما يمكن تأكيده هو انه لم يتم إدراك أهمية الموقع إلا بعـــد وصـــول عروج وخير الدين فاكتسبت مدينة الجزائر وجودها الحقيقي كنتيجة للتنافس الحاصل في شمـــال أفريقيا منذ عا م 1082بعد سقوط دولة الموحدين خضعت الجزائر لحكـــم حكـــام محلـــ يين تتقاذفها سلطة حكام تلمسان وبجاية وعنابة ،كما اعترفت تارة بحكم الحفصيين وتـــارة بحكـــم

---

[1] قنان (جمال) : قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر م.م.و.ج، 1994 ،ص-ص 33-36.

[2] اول قنصل تم اعتماده هو القنصل الفرنسي أ.م.بارتول A.M.Bartholle من مرسيليا عام 1564 ثم عوض عام 1578. انظر ، سبنسر : المرجع السابق ،ص 135.

[3] Fisher :op-cit ,p41.

المرينين ورغم هذا التطور فان الجزائر لم تأخذ بعد شخصيتها الشبهدولية إلا ابتداء ا من القـــرن الرابع عشر حيث بدأت مدينة الجزائر تتحول إلى ميناء تجاري نظمت مـــن خلالـــه العلاقـــات التجارية مع أوروبا المسيحية وبعض الموانئ الإسلامية وارتقى الميناء إلى مستوى موانئ وهـــران ،طرابلس وتونس من خلال نظام ضريبي جمركي سهل عملية التبادل مع الإمارات الايطاليـــة وأمام تزايد مخاطر الصراعات التجارية بدأت الطبقة البرجوازية الجزائرية -التجار - في الـــتفكير في استحداث نظام سياسي يكفل لهم الحماية فعقدوا اتفاقية مع عرب قبيلة الثعالبـــة المـــستقرة بمتيجة لحمايتهم ضد الغزو والاحتلال مقابل جزية وتنازلات تجارية ورغم ضـــعف بحريتـــها في مواجهة بحرية قرصان سردينيا ،صقلية وجزر البليار فإنها تمكنت من الرد التدريجي علـــى هـــذه الهجمات باستعمال الموانى الجانبية كميناء مهدية ،مستغانم ،المرسى الكبير وعنابة وظلت الإدارة ذات الطابع القبلي الطبقي أكثر من مؤسسة دولة لها القدرةعلى القيام بالتزاماتهـا الدوليـــة في إطار علاقاتها الخارجية إلى غاية القرن الخامس عشر.[1]

إذ أصبحت الجزائر دولة مكتملة السيادة لها كامل الصلاحيات في ممارسة علاقاتهـــا مـــع العالم الخارجي حيث يعود هذا الاستقلال إلى مجهودات خـــير الـــدين و الظـــروف الدوليـــة والأوضاع المحلية التي كانت تعيشها البلاد الجزائرية خاصة تلك المتعلقة بالصراع مع الأسبان.

شغل ازدهار الجزائرفكر معظم العالم المسيحي حكومات وشعوب، إذ وجدت الدولـــة الجزائرية في ظل مصالحها مجبرة على تجسيد مصالح ذات الأولوية فأولى هذه المصالح التـــصدي للخطر الاسباني الذي يتمثل في وجود فيهالعديد من المدن الساحلية وتضع تحت تهديدها عددا من المدن الأخرى وفي الدرجة الثانية التصدي للتكتل الصليبي الذي تقوده اســـبانيا في عمـــوم المتوسط والقيام بعمل مضاد من خلال مد العون لمسلمي الأندلس سواء في ثوراتهم ضد السلطة المسيحية أو تأمين خروجهم وهجرتهم إلى البلدان الإسلامية أما في المقام الأخير العمل على ملء الفراغ الذي تركته الخلافة في البحر المتوسط بالتعاون مع بحرية البلدان المغاربية الأخرى خاصة تونس وليبيا [2]لبناء علاقات دولية ثابتة المعالم تبرز من خلالها الوضعية القانونية لاستقلالها تجعل من الجزائر غير قابلة نسبيا للاختراق بنوع من التوازن في غرب المتوسط.[3]

---

[1] بوروينة وآخرون :المرجع السابق، ص- ص7-25.

[2] قنان : المرجع السابق ، ص.ص 38-39.

[3] سبنسر : المرجع السابق ، ص 25.

2- إستراتجية الدولة الجزائرية في علاقاتها الخارجية:

بنت الجزائر منذ عهد خير الدين إستراتجية دولية تقوم عليها مكانتها الدولية و أولى هـــذه الاستراتجيات ربط مصيرها بمصير الخلافة العثمانية لكن مع نهاية القرن السابع عشر، بـــدأت في استحداث شخصية دو لية انطلاقامن منطلق الاستقلالية في القرار وعدم الالتزام بأي تعاقـــد أو اتفاقية تبرمها الخلافة مع الأطراف الأوربية وكذلك عدم الاعتراف بوجود حالة سلم مع أيـــة دولة أوروبيةلمترتبط معها بمعاهدة مباشرة تؤمن مصالحها المشروعة ،ثم انطلقت في الاســـتعداد لمواجهة الأخطار المحتملة التي تهدف إلى النيل من استقلالها ومتابعة الجهد من اجل تحرير بقيـــة الأراضيالخاضعة للاحتلال الاسباني بإرسال حملات برية وبحرية و متابعة الحرب البحرية الدائرة ضد اسبانيا وضد توابعها من الإمارات الايطالية وفرسان مالطاهذه السياسة مكنت الجزائر من انتزاع الاعتراف الدولي والأوربي بسيادتها وخصوصية مصالحها في حوض المتوسط، من خـــلال نقل الحرب إلى داخل أرض الأعداء وهو ما تجسد باعتراف الدول مثل انجلترا ،هولندا وفرنـــسا بها كقوة عالمية . هذه الدول التي رأت في قوة الجزائر عامل توازن في ظل الصراع الدائر بينـــها والذي وقفت فيه الجزائر موقف حياد بما تفرضه مصلحتها والتحالف مع الدول التي تحقق لهـــا المصلحة عليا -كتحالف فرنسوا الأول مع خير الدين-.

كما عملت الجزائر على وضع آليات لقانون المعاهدات من خلال مبدأ انه من السهل إبرام الصلح لكنه من الصعب المحافظة عليه وحمايته ، فركز ت على فكرة أن الـــدول مـــن حيـــث العلاقات لا تتعامل مع بعضها البعض وفقا للمبادئ والمثل والمعايير الأخلاقية بقدر مـــا تحتـــرم بعضها البعض وتراعي مصالح الأطراف الأخرى بالقدر الذي تستطيع هذه الأطراف النيل مـــن مصالحها بنفسها كانت الجزائر تتوفر على الخبرة في ميدان العلاقا ت الأوربية الإسلامية، حيـــث كانت احد الأطراف الرئيسية التي تضعها فوضعت آليةتفتيش السفن الصديقة و العدوة وهو ما نص عليه القانون البحري الدولي الحديث [1] للتأكد من حقيقة انتماءها ونوعية حمولتها وهويـــة المسافرين ، فعلى عاتق البحرية الجزائرية وقع هذا العبء كإجراء لحماية مصالح البلاد السياسية

---

[1] بو سلطان(محمد) :القانون البحري الدولي –تطوره ومجالاته – دار النهضة العربية، بيروت ، 1969 ،ص 22.

والاقتصادية والإستراتجيةانطلاقا من المبدأ انه لا يمكن حماية التراب الوطني والمصالح التجارية وحرية قرارها السياسي إلا بوجود قوة رادعة تستطيع أن تفرض بها الاحترام على الجميع.[1]

3-مبادئ الدبلوماسية الجزائرية:

يعود ظهور الجزائر الحديثة في إطارها الإقليمي خاصة بالنسبة لحدودها الشرقية والغربية إلى النصف الأول من القرن السادس عشر بالرغم من ولائها للخلافة العثمانية فان العلاقات معها أخذت طابعا خاصا إذ أصرت على استقلالية قرارها السياسي [2].لقد أكد المسؤولون الجزائريون في العديد من مراسلاتهم مع الأطراف الأوروبية على ضرورة مراعاة مبدأ الاختيار في الممثل وضرورة التمييز بين مهام أعوان الدولة في الخارج ووظيفة التاجر ومصالحه التي لا يجوز خلطها مع مصالح الدولة وفقا لمعايير ومبادئ:

أ- مبدأ عدم جواز التنازل عن حقوق السيادية.

ب- مراعاة مبدأ الصداقة في التعامل مع القناصل وتكريس مبدأ السيادة الوطنية وحرمتها في تعاملها مع الأطراف الأوربية.

ت- مراعاة حرية التعاقد وعدم الالتزام بما توقعه الخلافة العثمانية من معاهدات و لم ترد أي إشارة لتبعية الجزائر للخلافة.[3]

ث- مبدأ نبذ استعمال القوة في العلاقات الدولية وعدم الرضوخ للقوة مهما كلف ذلك من التضحيات.

ج- كما أصرت الجزائر على وضوح صور التعاقد وعدم التفسير المتعدد للاتفاقيات والمعاهدات خاصة تلك المتعلقة بالرعايا الجزائريين.[4]

---

[1] قنان: المرجع السابق ، ص-ص40-42.

[2] رفض الجزائر للمذكرة التي أرسلها مؤتمر اكس لاشابيل والمتعلقة بإنهاء القرصنة .انظر شالر:المرجع السابق، ص 525

[3]قضية المدفعين الذين قام قرصان يعمل لدى الجزائر بسرقتهما وباعهما للدوق حاكم بروفانس الفرنسية واعتبرت الجزائر استرداد المدفعين قضية سيادية ورفضت إقرار الصلح مع فرنسا رغم وساطة الخلافة العثمانية وظلت الحرب قائمة طيلة إلى حين قبلت فرنسا بإرجاعهما

[4]قضية الأسرى المسلمين : وهي قضية أرادت فرنسا غش الجزائر من خلال إطلاق سراح كل المسلمين الأسرى المتواجدين لديها من بلدان إسلامية أخرى المسنين والمعطوبين وأبقت على القادرين على التجديف فخرقت بذلك مبدأ الاتفاقية التي تنص على إطلاق سراح الجزائريين ،واستقبلت الجزائر هؤلاء المسلمين وأصرت على احترام البند المتفق عليه

ح- أظهرت الدبلوماسية الجزائرية نبذها للتكتلات والتمسك بمبدأ الحيـــاد في الـــصراعات الأوربيةوقد حاولت فرنسا في العديد من المرات جر الجزائر إلى التحالف معها لكنـــها فشلت ، خاصة تلك الم تعلقة بالحروب الأسرية كحرب الوراثة الاسبانية بـــين فرنـــسا واسبانيا رغم العداء التقليدي بينهما.

خ- اعتماد مبدأ وحدة منطقة المغرب كمنطقة متكاملة سياسيا وامنيـــا ولا يحـــق لطـــرف أوروبي التدخل في شؤونها وقد عبرت عن ذلك أثناء اندلا ع الحرب الأهلية في تـــونس بعد تصريح القنصل، التي اقتضت توجيه رسالة شديدة اللهجة لملك فرنسا لويس الرابع عشر معتبرا أن تدخل القنصل الفرنسي في الشأن التونسي هو إعلانا للحرب ، مما اضطر فرنسا إلىشجب سلوك القنصل واعتبرته تصر فا شخصيا ولـــيس موقفـــا للحكومـــة الفرنسية.

د- احترام مبادئالعهد و الوفاء به والتقيد بالالتزامات التي تعهدت بها الأطـــراف الموقعـــة على المعاهداتمهما تغيرت الظروف [1] ،إلى جانب ضرورة احترام صيغة التعاقـــدات وهو ما يتضح في التعامل مع الموانئ إذ لا يحق لأي دولة تعاقدت في الرسو بميناء مدينـــة الجزائر. التحجج بالاتفاقية للرسو في ميناء عنابه أو دفع رسوم لان القانون الجزائري يمنع ذلك، كما خفضت الرسوم بالنصف علىلسفن التي لا تمارس أي نشاط بميناء الجزائر وأبقته في بقية الموانئ.[2]

ذ- اعتبار كل الدول الإسلاميةبوجه عام ودول المغرب بو جه خاص دولا في حالة سلم في المنطقة هي الحالة التي يجب أنتسود وان تكون دائمة .وان التعايش هي الوضعية العادية وحالة الحرب هي حالة استثناء لذا كانت المعاهدات المعقودة ليست محددة بأجل بـــل تكرس سلما دائما وأبديا.

ر- مبدأ المساواة في معاملة الدول الأوربية فليس هناك في منظور الدبلوماســـية الجزائريـــة دولا كبرى ولا دول صغرى ، بل الجميع متساوي في المرتبة وقد تعاملت علـــى هـــذا الأساس .بالنظر إلى المعاهدات التي عقدت مع فرنسا أو هولندا أو هامبورغ مثلا نجد أن

---

[1] بوسلطان (محمد): فعالية المعاهدات الدولية ،د.م.ج ،الجزائر ، 1995 ،ص-ص 258-266

[2] Raynal (G.T) : Histoire des Etablissements du Commerce des Européens dans l’Afrique Septentrionale,Ed/, la Découverte, Paris, pp 40-41.

الامتيازات والالتزامات واحدة سواء بوضعية القناصل أو التعريفة الجمركيـــة أو تلـــك الالتزامات التي يقوم بها الرعايا أو القضاء القنصلي وصلاحياته وفقا للأعراف والتقاليـــد كما كرست مبدأ التسامح الديني مع الرعايا الأجانب.

ز- مبدأ عدم مساعدة الجزائر لطرف يكون في حالة حرب مع دولة تم التعاقد معها حـــتى ولو كان هذا الطرف قريب جدا منها [1]وهو ما يبين النضج الذي وصـــلته العلاقـــات الدولية في منظور الدبلوماسية الجزائرية ، ويكرس هذا المبدأ، مبدأ الحياد في الـــصراعات الأوربية الأوربية إحدى الدعائم الهامة التي يستند عليها القانون الدولي العادل في تطوره الايجابي لصالح المجموعة الدولية.[2]

(1) وهذا لا ينطبق على الدول الإسلامية خاصة الخلافة العثمانية وقد احتجت بريطانيا وفرنسا ضد الجزائر في عدم التزامها بهذا المبدأ في الحرب الدائرة في البلقان خاصة في معركة نافرين 1827.

[2] قنان: المرجع السابق ،ص- ص 43-57.

استنتاج نهائي:

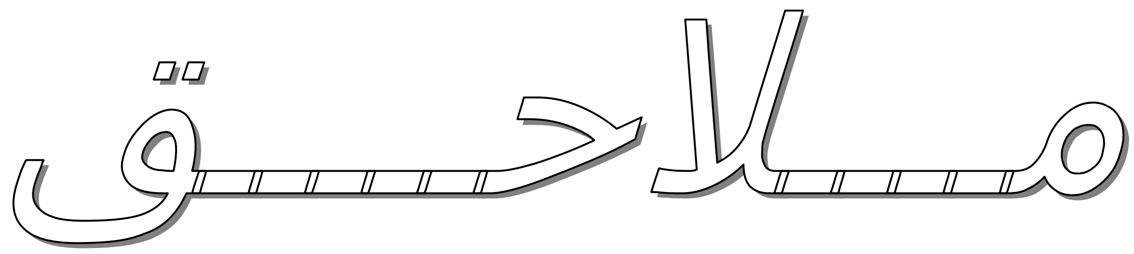
شكل التوسع والسبق الاستعماري منذ 1415 خاصة في المحيط الأطلسي والبحر المتوسط من هذه المنطقة وحدة عملية للصراع بين قوى تقليدية استعمارية كاسبانيا والبرتغال ودول المغرب الإسلامي المفككة من جهة ،والخلافة الإسلامية الناشئة من جهة أخرى .فكانت مداخل هذه المنطقة التي تشكل محيط سياسي نقطة تجمع للصراعات وهو ما شكل بداية ظهور مشروعي البرتغال والأسبان في استعمار المنطقة ، خاصة مع ظهور العلاقات الجنوب الإسلامي مع الشمال المسيحي .

إذا كان المحيط الأطلسي الذي شكل الحامي للمسيحية بالحدود الجديدة للتوسع، فانه مع بداية التوسع البحري تم تحويل حدود القارة الأوربية لتبني في أفريقيا، في المغرب بالنسبة للبرتغال والجزائر وتونس بالنسبة للأسبان ،وأيضا بعيدا نحو الجنوب في أفريقيا .هذه الحدود رغم أنها جديدة فقد شكلت نهاية مع الأساليب التقليدية ، التي بدأت منذ عملية إعادة الفتح ضمن سياسة الأسبان وبداية ظهور أساليب جديدة في الصراع من خلال قيادتها للتوسع فشكلت خطا أماميا للتوسع الأوروبي رغم أن هذا التوسع يعود إلى سنوات متقدمة ضمن إطار الحرب بين الإسلام والمسيحية والذي سيواصل خلال العصر الحديث في أفريقيا الشمالية .ليأخذ صبغة جديدة بعد ظهور الإخوة أبناء يعقوب الذين سيكون لظهورهم الفضل الأكبر في إجهاض المشروع البرتغالي – الاسباني وإقامة دولة ذات أسس عقائدية – إدارية – وذات مكانة دولية.

لقد استطاع خير الدين مجابهة الهجمة الصليبية في أشرس مراحلها، مرحلة تصفية الأندلس الإسلامية و استطاعت الجزائر المحروسة مجابهة الهجمة الصليبية وهي في ذروة قوتها وجبروتها . ونشأ عن هذا التلاحم الصادق بين تيار الأحداث و مجهود بحار، ظهور الملحمة الخالدة . ملحمة بناء الجزائر دولة وقوة . غير أنه في مرحلة التحول الحاسم كان من المحال إعادة العجلة إلى الوراء، والعودة بالأندلس إسلامية . ومن هنا تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به خير الدين و من ورائه الخلافة العثمانية في إيقاف الهجمة الاسبانية، والتصدي لها والعمل على إحباطها . و هنا أيضا تظهر كفاءة خير الدين السياسية و تفكيره السليم، عندما ربط جهوده بجهود المسلمين في الجزائر- و في المغرب العربي- الإسلامي من جهة مع جهود ا الخلافة العثمانية من جهة أخرى.

كان القضاء على أعداء الداخل هو المرحلة الأساسية لتحقيق انتصار خارجي وهكذا فقد كان للانتصار الخارجي دوره بإضعاف أعداء الداخل و كشف خياناتهم ، الأمر الذي ساعد على تصفيتهم .بقيت هذه العلاقة الجدلية الثابتة بين القوة الخارجية والقوة الداخلية هي العلاقة الثابتة و المميزة لقوة الأنظمة وقدرتها على البقاء والاستمرار، ، فالتمزق الداخلي وبروز أعداء الداخل هما إلا دليل في الواقع على مرحلة احتضار الدول ومن هنا أيضا تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به خير الدين في إنقاذ المغرب العربي الإسلامي من المحنة التي كان يجابهها ، برا وبحرا .

فقد أدت الهجمة الصليبية إلى ظهور الطبقة المتسلطة من أعداء الداخل ، و لم يكن هناك من أمل لتحويل التيار إلا بظهور قوة يمكن لها مجابهة القوى الصليبية ، الأمر الذي فسح المجال للقوى الحقيقية المتمثلة في أبناء يعقوب لممارسة دورها التاريخي و الاضطلاع بمسؤولياتها القومية والدينية و تمكنت الجزائر بأرضها وشعبها استغلال تلك القوى التي عملت على تحويل تيار الاستسلام إلى تيار المجابهة و الانتصار.



- ملحق رقم1 :رسالة الاستنجاد من الأندلسيين إلى الخليفة سليمان (بتصرف)
- ملحق رقم 2 :الأسر الأوربية المتصارعة
- ملحق رقم 3 :اتفاقية غرناطة بين الأسبان والمسلمين
- ملحق رقم 4: خطاب حسن أغا
- ملحق رقم 5: رسالة شارل الخامس لحسن أغا وجواب حسن أثناء حملة 1541
- ملحق رقم 6 : اتفاقية سالم التومي إلى الأسبان
- ملحق رقم 7: الرسائل واتفاقية سلطان تلمسان مع ملك اسبانيا
- ملحق رقم 8 :نطاق العمليات البحرية الجزائرية
- ملحق رقم 9 :أنواع السفن الجزائرية
- ملحق رقم 10:رسالة الخليفة سليمان إلى ملك فرنسا فرنسوا الأول
- ملحق رقم 11 :الاتفاقية الفرنسية العثمانية (بنود مثار الخلاف الجزائري العثماني)
- ملحق رقم 12 : بعض البنود الاتفاقية العثمانية الهولندية
- ملحق رقم 13:المعاهدة الجزائرية الاسبانية

ملحق رقم :1 قد أوردنا الرسالة بعد التصرف في محتواها

(الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز أنصارها ، وأذل أعدائها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا ، والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الإسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب ، والعجم ، والترك والد يلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البريين وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيثنا ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقرونا بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها ، ما يروي صدور السحر والصفاح ، وألسنه السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخيار مفارقة الأرواح للأجساد ،سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهار.وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد ، ويدعو للدولة بدوام البقاء ؛ ثم وصفت القصيدة الحالة التي يعاني منها المسلمون وما تعرض له الشيوخ والنساء من هتك للإعراض وما يتعرض له المسلمين في دينهم حيث استطر قائلاً :

ســــــلام عليكم من عبيد تخلفوا**** بأندلس بالغرب في أرض غربة

أحـــــاط بهم بحر من الردم زاخر*** وبحر عميق ذو ظلام ولجة

ســــــلام عليكم من عبيد أصابهـــم**** مـــصاب عظيم يالها من مصيبة

ســـلام عليكم من شيوخ تمزقت**** شيوخهم بالنتف من بعد عـــــــزة

ســـلام عليكم من وجوه تكشفت **** على جملة الأعلاج من بعدة سترة

ســـلام عليكم من بنات عوائق**** يـــسوقهم اللباط قهراً لخلوة

ســـلام عليكم من عجائز أكرهت **** على أكل خترير ولحم جيـــــــفة

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا*** ظلمنا وعوملنا بكل قبيحـــة

وكـــنا على دين النبي محمد*** نقاتل عمال الصليب بنيــــة

وتلقي أموراً في الجهاد عظـــــيمة *** بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جـــانب *** بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم *** بجد وعزم من خيول وعـــدة

فكنا بطول الدهر نلقي جموعـــهم *** فنقتل فيها فرقة بعد فرقـــــــة وفرسانها تزداد في كل

ساعـــة *** وفرساننا في حال نقص وقلـــــــة

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم*** فينا بنقص العزيمة

وخان عهوداً كان قد غرنا بها*** ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف *** وخلطها بالزبل أو بالنجاسة

وفي رمضان يفسدون صيامنا*** بأكل وشرب مرة بعد مرة

ثم تتوجه القصيدة باستجداء السلطان لإنجادهم ، وإنقاذهم من تلك المحنة فتقول :

فلوا أبصرت عيناك ما صار حانا*** إليه لجادت بالدموع العزيـــزة

فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابـــنا*** من الضر والبلوى وثوب المذلة

سألناك يا مولاي والله ربـــنا*** وبالمصطفي المختار خير البرية

عسى تنظروا فينا وفيما أصابـــنا*** لعل إله العرش يأتي برحــــــمة

فبا لله يا مولاي منوا بفضلكـــم *** علينا برأي أو كلام بحجــــــة

فأنتم أولوا الأفضال والمجد والعلا *** وغوث عباد الله في كل آفـــــــــــة.[1]

---

[1] نبيل عبد الحي رضوان – جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده ط1– مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ،1988، ص118

ملحق رقم 2

1- أسرة هاسبورغ: (Maison de Habsbourg) عائلة ألمانية تكونت في البداية في إقليم السواب (Souabe) أو الالمانية (Schwaben) الذي كان دوقية و أصبح اليوم يشكل القسم الجنوبي- الغربي من بافاريا و عاصمته أوغسبورغ (Uagsbourg). و قد عرفت هذه الأسرة بثرائها الفاحش. و قد اشتقت الأسرة اسمها من قصر حصين كانت تمتلكه في سويسرا (إقليم اوكانتون ارغوفي: (Argovie) و قد و سعت هذه الأسرة حدودها فضمت إليها سويسرا و الالزاس منذ سنة 1153و شكلت بعد ذلك مملكة (إمبراطورية) في عهد رودلف هابسبورغ ضمت بالإضافة إلى أملاكها السابقة أقاليم بوهيميا و هنغاريا و اسبانيا و سيطرت على النمسا و البلاد المنخفضة و قسما من إيطاليا و العالم الجديد - أمريكا- و في عهد الإمبراطورة ماريا تيريزا- إمبراطورة النمسا التي شنت الحروب السيليزية ضد فريدريك الثاني في حرب السبع سنوات توطدت عرى الصداقة مع آلا لورين ثم جاءت عملية زواج ابنة ماريا تيريزا من لويس السادس عشر لتغير من علاقات هذه الأسرة، و تشكل لها فروعا جديدة.

2- آل بوربون: (Maison de Bourbon) يعود تاريخ هذه الأسرة إلى القرن العاشر الميلادي، و قد انتقلت سيادة البوربيين عن طريق المصاهرة الى الدامبيير (Dampeirre) ثم اكابسيين (Capetienne) و بدأ فرع من هذه الأسرة بحكم فرنسا منذ حكم هنري الرابع 1589م،و ابنه لويس الثالث عشر. و منهم الفرع الذي يحكم اسبانيا حاليا خوان كارلوس.[1]

[1]Dominique et Fremy(Michele):LeQuid 98,Edt/Robert Laffont,France,1998,pp751-912

ملحق رقم 3

- يحتفظ سكان غرناطة المسلمين بأملاكهم خلال 3 سنوات و لا يدفعون أي ضريبة باستثناء تلك التي كانت تدفع في السابق.
- إطلاق سلاح الأسرى المسيحيين.
- يحتفظ المسلمون بحرية العقيدة وأداء الشعائر الدينية بحرية.
- يحتفظ الأمير" عبد الله" بلقب أمير في منطقة الألب جراس[2].
- يسلم الأمير500 رهينة كضمان لتنفيذ هذا الإلتزام[3]

---

[2] وهي جبال البشرات التي كانت ملجأ للمسلمين الفارين من القتل الجماعي

[1]Gaignard :op-cit ,p128

ملحق رقم 4-5

كتب شارل الخامس لحسن أغا وهو يقود أرمادا من 90 ألف جندي و4000 من الفرسان بقيادة اندريا دوريا قائلا :" أنا ملك اسبانيا الذي يستولى على تونس وأخرج منها خير الدين بربروس الثاني، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك "فأجابه حسن قائلا:

"إن اسبانيا غزت الجزائر مدة عروج بربروس الأول مرة وفي مدة خير الدين مرة و لم تتحصل على طائل بل انتهت أموالها وفنيت عساكرها وهذه المرة الثالثة كذلك إنشاء الله".

وكتب شارل ثانية إلى حسن : " أني استوليت على تونس مع عظمتها، قد انتزعتها من يد خير الدين وما بالك الجزائر وأن لم استطع أن أخذها في هذه الدفعة أطاول حصارها شتاء هذه السنة.. فأنظر إلى نفسك ودبر على من معك فإن أنت عاندت رفعت رأسك و لم تمتل ما دعوتك إليه ... العسكر يدفعون إلى المدينة دفعة واحدة ويطلعونها حجرا حجرا ويقتلون كل من فيها كبيرا وصغيرا. وهاأنا قد أعذرت إليه".[1]

---

[1]Berbrugger:op-cit,p338-340

ملحق رقم 6

- دفع ضريبة(جزية) بنفس المبلغ الذي كانت تدفعه الجزائر لحاكم بجاية.
- إطلاق سراح جميع الأسرى والعبيد المسيحيين.
- بناء قلعة على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر.
- أن يقوم حاكم مدينة الجزائر شخصيا بالإعلان عن خضوعه وطاعته لملك اسبانيا رفقة مولاي عبد الله حاكم مدينة تنس أمام الملك الاسباني.
- يسمح لحاكم مدينة قرطبة (ديغو فرناندير) احتلال حصون مستغانم ومزفـــران باسم أميرة قرطبة
- تقديم السكان للمؤن والغذاء للجنود بيعا أو هبة.
- تقديم السكان لمساعدات لترميم الحصون والقلاع وإعارة الحيوانـــات بأســـعار معقولة.
- أن لا يسمح بشحن أو تفريغ أي باخرة في الميناء دون الحصول على إذن الملك أو الملكة.
- منع ممارسة القرصنة[2] على السفن المسيحية[3]

---

[2]كانت القرصنة من الناحية الشرعية موجهة ضد الدول المسيحية ن فقد انشأ المجاهدون الأتراك أسطولا للقرصنة النظامية تحارب إلى جانب الخلافة أما في الغرب فكانت موجهة لإنقاذ المسلمين الأندلس وضرب السواحل الاسبانية

[3]Laroui:op-cit ,p240

ملحق رقم 7

معاهدات اسبانية:

كان رد ملك اسبانيا (فرديناند) على اقتراح قائده (دون بيدرو) هو التالي:

«لتكن المعاهدة مع مولاي عبد الله مبنية على الواقع الحاصل و لتكن ذات مفعول دائم . و بما أن بجاية قد أصبحت ضمن ممتلكاتها تنفيذا للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية، فلا يمكن أن يعطى لمولاي عبد الله لقب -ملك بجاية- بل ليكن ملكا على أي مكان يختاره فيما عدا البلاد الساحلية، إذ أن مدينة (بجاية) ملحقاتها و مداخ يلها و تولي الإحكام فيها، و كذلك كل البلاد الأخرى و المدن و القرى الموجودة على ساحل البحر، يجب أن تكون لنا وحدنا خالصة بصفة تامة مطلقة، و لا يحق لمولاي عبد الله أن يدعي أي حق له عليها، أو أي حكم على سكانها من النصارى أو المسلمين . و بما أن البلاد المذكورة و مدنها و قراها هي من ممتلكاتها الخاصة، فإننا نعترف لمولاي عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية من المملكة مع مداخيلها و أحكامها، إنما نحتفظ لأنفسنا بالحق الأعلى في الإشراف وعلى القضاء الذي هو من حق السيادة. يجب أن يلتزم الملك بدفع جزية سنوية تترك له حرية تقديرها . و يسمح لعبد الله مائة من أعوانه أن يسكنوا مؤقتا بربض بجاية إلى أن يجد عاصمة لملكه، و على شريطة أن لا يبني بذلك الربض مسجدا».

ماي 1510

و نظرا لسحب بيدرو نفارو من المغرب و مغادرته بجاية في 7 جوان و استبداله بحاكم جديد هو دون أنطونيو فقد اضطلع هذا المعاهدة التي جاء نصها كالتالي:

بين الملك (فرناندو) ملك إسبانيا و الصقليين.

و بين مولاي عبد الرحمان ملك جبال البربر.

و بين مولاي عبد الله حفيده.

انعقدت المعاهدة على القواعد و الأسس التالية:

أولا: انعقد بهذه المعاهدة صلح دفاعي هجومي في سبيل مصلحة اسبانيا، و بين الملك عبد الرحمان و الملك عبد الله كما انعقد بينهما معا من جهة، و بين الملك فرديناند من جهة أخرى حلف دائم المفعول.

ثانيا: يستمر مولاي عبد الرحمان على جبال القبائل.

ثالثا: يعترف عبد الرحمان علنا بامتلاك اسبانيا لمدينة بجاية و صخرة الجزائر و تـادلس و كـل المراسي التي على البحر و ما يتبعها. [1]

رابعا: إرجاع كامل الأسرى المسيحيين إلى الأسبان دون أدنى مقايضة.

خامسا: العمل على إصلاح كل القلاع و المعاقل الموجودة في المملكة

سادسا: يبعث الملك عبد الرحمان بولده محمد رهينة عند الأسبان، كما يبعث الملك عبد الرحمان بولده محمد رهينة عند الأسبان، كما يبعث الملك عبد الله بولده البكر رهينة أيـضا[2]، ذلـك لضمان تنفيذ المعاهدة.

سابعا: يتعهد العرب بتزويد مدينة بجاية الاسبانية سنويا بالمواد و المقادير الآتية:

3600 فنيق من القمح [3]

100 فنيق من الشعير.

50 فنيق من الفول.

1000 رأس من الغنم.

50 بقرة.

1000 حمل من الحطب.

فأما أحمال الحطب فتسلم مجانا لحامية بجاية . و أما بقية المواد فإن المـوردين يتقاضـون ثمنها.[4]

معاهدة ملك تلمسان مع الإمبراطورية الاسبانية:

خاض ملك تلمسان محمد السابع حربا ضد أخيه عبد الله الذي كان يدعمه جده لأمـه عبـد الرحمن بن رضوان . و كان الأسبان يقفون من وراء الطرفين المتصارعين، فكتب محمد رسالة إلى

---

(1) لم يأت هنا ذكر مدن الناحية الغربية لأنها داخلة ضمن نطاق التعاقد مع بني زيان في تلمسان.

(2) سلم الملك عبد الله ابنه البكر إلى الأسبان - و هو صغير السن - فسلمه هؤلاء للرهبان كي يتولوا تعليمـه و تثقيفـه و تعميده، فنشأ و شب و هو لا يعرف غير النصرانية دينا . و أطلقوا عليه أسم (فيرناندو) و منحه ملك اسبانيا لقب (الطفـل -انفانت) و مات مسيحيا في اسبانيا.

(3) الفنيق يعادل (36-50) كيلو غرام.

(4) مدني :حرب الثلاثمائة سنة .....المرجع السابق ،ص 131.

الحاكم الإسباني، عرض فيها إقامة تحالف فيما بينها . و كان نص الرسالة و المعاهدة المقترحة كالتالي:

تلمسان 5 سبتمبر 1535

((تعلمون جلالتكم أنني كاتبتكم مرارا قبل هذا، التمس منكم قبولي ضمن حلفائكم و خدامكم، أنني لم أتلق منكم أي جواب، و الله يعلم شدة رغبتي في أن أكون من أصدقاء جلالتكم. و في هذه الأثناء حاربني بن رضوان، و جاء يهاجمني و معه جماعة من المسيحيين، فكنت مضطرا للدفاع عن نفسي، و لقد كلفني هذا كثيرا، و لكن لم أكن أستطيع غير ذلك، و لا أعتقد أن لجلالتكم عتبا علي إذا أنا دافعت عن مملكتي و عن نفسي. و إني أرسل لجلالتكم معاهدة أمضيتها بنفسي و ختمتها بخاتمي و ألتمس من جلالتكم المصادقة عليها.

(خلاصة المعاهدة)

1-أن يعترف بي الإمبراطور صديقا حليفا، و لا ينصر علي عدوا.

2- أتعهد بأن أدفع أربعة آلاف (دوبلاس)[1] سنويا، و في نفس الآجال التي تعهد بها والدي من قبلي، على شريطة أن مداخيل باب تلمسان تكون لي كما كانت لوالدي.

3- إذا زادت مداخيل باب تلمسان عن الأربعة آلاف (دوبلاس) فإن الزيادة منها تكون خاصة لي.

4- أتعهد مقابل ذلك بأن ارجع الكونت دي الكودات السبعين أسيرا مسيحيا الذين هم الآن بتلمسان، و يوجد منهم خمسة أسرى عند عائلات تلمسانية، لها خمسة أسرى بوهران فالرجاء الأمر بالمبادلة.

5- لا يقبل في مدينة وهران ابن رضوان و لا حفيده، و لا أحد من رجاله، فإن دخلوا وهران فرجائي إلى جلالتكم أن يبقوا بها أسرى.

6- إذا تم فتح جلالة الإمبراطور مدن الجزائر و شرشال و تنس، فله أن يبقى تحت سلطاته المدن المذكورة و غيرها من المراسي التي يود جلالته الاحتفاظ بها، أما داخلية البلاد المذكورة فيجب أن ترجع لي، لأنها كانت من ممتلكات آبائي و أجدادي.

---

[1] دوبلاس عملة تساوي 5ريالات.

لم يقبل الكونت (دي الكوديت) بهذا النص، فأرسل للملك محمد مشروعا إسبانيا، استثمر فيه فزع الملك محمد و رعبه، و هذه خلاصة المعاهدة الجديدة التي فرضها الأسبان:

1- أنا محمد ملك تلمسان، أتعهد و التزم بمحض اختياري، بأن أكون الصديق و الحليف و التابع لجلالة الإمبراطور إذا ما رضي أن يشملني بحمايته، و ألتزم بتنفيذ الشروط الآتية:

2- أكون صديقا لمن صادق جلالته، و عدوا لمن يعاديه، و لا أسمح مطلقا لأعدائه عربا أو مسيحيين باجتياز مملكتي.

3- إذا جاء جلالة والإمبراطور بنفسه إلى مملكة تلمسان لمحاربة بقية الملوك في البلاد . فأنا التزم السير معه واضعا تحت تصرفه كل القوى التي لدي.

4- و مقابل ذلك يتعهد صاحب الجلالة بإعانتي ضد من يحاربني أو يريد بي سوءا و ذلك بواسطة الجيوش التي لجلالته بمراكز الحدود.

5- و إذا جاء جلالته لمملكة تلمسان بنفسه، أو أرسل جيشا لقتال أعدائه، فأنا أتعهد بأن أمده بالأقوات و حيوانات الجر بأرخص الأثمان.

6- أتعهد بأن أعيد لوهران في مدة ثمانية أيام، كل الأسرى المسيحيين الموجودين بتلمسان، و هم على أحسن حال من الصحة و السلامة.

7- لا أقبل في بلادي، لا بربروس و لا أي أحد من قراصنة الأتراك، و إذا حل بربروس أو جماعته ببلادي، فأبذل جهدي لأسرهم و تسليمهم لحاكم وهران.

8- أمنع العرب وزناته في مملكتي من إلحاق أي ضرر بمدينتي وهران و المرسى الكبير أو سكانها من العرب و اليهود و كذلك عرب الجبال-الخاضعين لاسبانيا-.

9- أعطي أوامري لكي تمر كل تجارة تلمسان بمدينة وهران دون غيرها من المراسي، إلا إذا سمح الإمبراطور بذلك.

10- يسمح لي جلالة الإمبراطور بأن أضع في وهران عددا من المتصرفين لكي يتولوا قبض ما يرد لتموين مدينة وهران، ما عدا التمر التي هي بضاعة.

11- يستطيع العرب و اليهود من سكان مدينة تلمسان و مملكتها القدوم إلى وهران و غيرها من ممتلكات جلالة الإمبراطور و يستطيعون سكناها بصفة مسالمة دون أي اعتراض شريطة إحرازهم على إذن بذلك من حاكم وهران . و لسكان وهران و المرسى الكبير مثل هذا الحق في سكني تلمسان ومدن مملكتها , على شرط إحراز الإذن مني .

12- لا يمكن إجبار أحد رعايا مملكتي , عربا أو يهودا , على اعتناق الدين المسيحي , ويسمح لهم بأن يعيشوا أحرارا حسب قوانينهم و أن تحترم ديارهم وممتلكاتهم , وأن يباشروا أعمـــالهم التجارية مع كل ممالك ورعايا جلالة الإمبراطور .

13- مدة هذه المعاهدة خمسة أعوام ‘ابتداء من يوم إعلانها .

14- التزام بأن أدفع لجلالة الإمبراطور الذي اعترف بتبعيتي له . مقدار أربعة ألاف (دوبلاس) كل سنة من الذهب الصافي معيار 17 قيراطا وموازنة وزنا دقيقا .

15- يضع الإمبراطور تحت تصرفي , عند الحاجة , وكما فعل مع والدي , خمسمائة رجـــل لمشاركتي في الدفاع , وأتعهد بأن أدفع مرتباتهم منذ اليوم الذي يغادرون فيه مملكة قشتالة .

16- يحدث كثيرا أن يصل إلى وهران تجار من العرب وال يهود من تلمسان لشراء بـــضاعة , ويعطون بدلها رقاعا تدفع عند وجوعهم إلى وهران .لكنهم لا يعودو ن ولا يـــدفعون , فأنـــا التزام بدفع قيمة تلك الرقاع ويجب إرغام كل عربي أو يهودي من سكان وهران على تسديد دينه لتجار تلمسان .

17- إذا حل ابن رضوان أو حفيده مولاي عبد ا لله بوهران , فإن حاكم وهران يبقيهم بها , ولا يخرجون منها طوال مدة الصلح .

18- سأعلن عن هذه المعاهدة في كل مملكتي للجميع . ولأعدائي الذين ثاروا ضدي وانضموا إلى أخي مولاي عبد الله وجده ابن رضوان . فمن قبلها وأطاعها فهو مني ويدخل في خدمتي . ومن عصاها وخالفها فهو عدو لا يجب أن يقبل في مدينة وهران .

19- هذه المعاهدة وقعتها بنفسي وختمتها بخاتمي ووضعت عليها طابع الدولة .[1]

[1] المدني :حرب الثلاثمائة سنة...المرجع السابق ،131-132.

ملحق رقم8

العمليات البحرية من 1519 - 1556	مضيق جبل طارق والشواطئ الغربية والشرقية	يستمر نشاطهم مدة شهرين إلى ثلاثة أشهر في البحر في حالة عدم احتياج رئيس الدولة او الخلافة لهم وكانت السفينة تمول بكل ما تحتاجه من مئونة لثلاثة أشهر
	خليج مولان بصقليةMoulin	
	خليج بالوس Palos البحر الادرياتيك	
	خليج قاتGatte بريانو ايطاليا	
	خليج سان مارتان	
	خليج سان سيباستيان في المحيط الأطلسي	
العمليات البحرية من 1556 إلى 1700	جزر البليار	
	خليج كريت (روك)	
العمليات البحرية من 1711-1830	جزر سان بيار	
	جزر الكناري	
	سواحل نابل	
	جزر بحر ايجة	
	بريطانيا وايسلاندا	
	سواحل هولندا	

ملحق رقم9

كان للأسطول أنواع من السفن الشراعية منها الجذافية ول كل سفينة مصطبات يجلس عليها البحارة وتتراوح عددهم من 8إلى 10:

القليرة: سفينة حربية وتجارية ذات أشرعة ومجاذيف كبيرة الطول.

الغليون:مركب ضخم اسباني مخصص للحرب كما يحمل فيه الأسبان المعادن الثمينة

والفلوكة :وهي فلك أو الزورق الصغير يستعمل في المسافات القريبة وفي السواحل.

الشطية أوة الشبطية: وهي مركب صغير لحمل الأثقال لمسافة قصيرة أيضا، والمناطق الساحلية.

الشباك: سفينة صغيرة وعريقة الأصل معدة للأسفار القصيرة والبسيطة ذات ثلاثة صواري(صورة)

العاشرية: فلوكة صغيرة

الغراب:corvetteوهي سفينة حربية ذات ثلاث صواري ضيقة تحمل سلعا خفيفة بين الفرقاطة والبريك.

القواق: وهي سفينة كما كانت تسملى كبيرة وعالية وضيقة في أعلاها ومستديرةتصل حمولتها حتى 2000 طن.

الفرقاطة: سفينة كبيرة ضخمة بثلاثة صواري و مجدافيه وهي معدة للأسفار الطويلة والحروب وكانت حربية بالدرجة الأولى،لعدةا من المدافع والوسائل الحربية.

الفوسطة: سفينة صغيرة شراعية مجدافيه سريعة جدا وخفيفة، كانت كثيرة الاستعمال في المناطق ذات الجزر الصغيرة.

الفلوته: سفينة حربية معدة لحمل المتاع والأثقال الحربية.

الكارقو:مركب معد لنقل البضائع من محل لأخر قريب منه وخصوصا من السفن الكبيرة التي لا تستطيع الرسوا في الميناء.

الشلوتو: خاصة بصيد الأسماك.[1]

---

[1] ابن أبي زيان بن اشنهو: المرجع السابق ،ص.ص105-106.

ملحق رقم10

رسالة الخليفة سليمان القانوني إلى ملك فرنسا

كتب ملك فرنسا (فرا نسوا الأول) رسالة على السلطان سليمان القانوني , يطلب التحالف معه ضد إمبراطور إسبانيا والغرب (شارلكان) وأجاب السلطان سليمان بالرسالة التالية.

الله العلي المعطي المعين:

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته ,وعلت كلمته و وبمعجزاته سيد زمرة الأنبياء , وقدوة فرقة الأصفياء , محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات . وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وجميع أولياء الله .

أنا سلطان السلاطين , وبرهان الخواقين ، متوج الملوك ظل الله في الأرضيين , سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والرميلي وقرمان الروم وولاية ذمي القدرية وديار بكر وكرديستان و أذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس .وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر , أنا السلطان سليمان خان إبن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان .

إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا .

وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع (فرا نقيان) النشيط مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفهيا , وأعلمتنا أن عدوكم استولى على بلادكم , وأنكم الآن محبوسون , وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم . وكل ما قلتموه وعرض على أعتاب سرير.[1]

---

[1] المحامي :المرجع السابق،ص 208.

ملحق رقم 11

***البند العاشر:** تعطى الأوامر المشددة الصارمة في اقــرب وقــت إلى حكــام وولاة الــدولتين المتعاقدتين العاملين على المقاطعات الواقعة على تخوم الدولتين بإعــادة الــسكينة و الطمأنينــة العمومية و مراعاة حقوق الجوار على جميع الحدود و احترام ما وضعته لجان التحديد من الحدود و عدم تعديها و ارتكابا لسلب و النهب فيما و راءها ،و التعويض عما ينشا عنها من الضرر و مجازاة المخالفين لذلك و المذنبين بنسبة ذنوبهم و جرائهم ، مع مراعــاة القواعــد و المبــادئ القرارات لذلك في المعاهدات و الاتفاقات السابقة بين الطرفين المتعاقدين و بالاختصار ترســل إليهم الأوامر بإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من النظام و الهدوء قبــل الحــرب و جعلــهم مسئولين عن جميع ذلك شخصيا.

***البند الحادي عشر :** و يصير التنبيه أيضا على الولاة المذكورين و التأكيد عليهم بحماية رعايا لطرف الأخر الذين تضطرهم تجارتهم أو أشغالهم إلى اجتياز الحدود أوالسفر في داخ ل الولايات و أن يساعدوهم على السفر في الأنهر ذهابا أو إيابا بكمال الحرية مراعين و ملــزمين غيرهــم بمراعاة واجبات الوفادة و الضيافة و جميع بنود و مواد المعاهدات و الاتفاقات و غيرها ، المؤيدة في البندين الثاني و الثالث من هذه المعاهدة بدون أن يطلبوا أو يسمحوا لأي احــد أن يطلــب منهم أي مكوس أو ضرائب أخرى على أشخاصهم أو بضائعهم غير المحــددة في المعاهــدات المذكورة. [1]

---

[1] المحامي :المرجع السابق ،ص 225-228.

ملحق رقم 12

نص المادة 21 من المعاهدة العثمانية مع هولندا في 06 جويلية 1621

" انه فيما يخص قراصنة الجزائر وبلاد البربر الداخلين لموانئ الأراضي المنخفضة ،بما انـــه مـــن العادة إظهار اللياقة وتزويدهم بدقيق البارود وحتى بالشراع وكل ما يحتاجونه فانه لـــيس مـــن رغبتي انه يجب حين يلتقون بسفن الأراضي المنخفضة أن ينتزعو ا بضاعتها ويقودونها للأسر بل يجب إطلاق سراح كل المقبوض عليهم وإرجاع كل م الخذ من سفنهم ، وإذ ا عصى قرصان **...** الجزائر وبلاد البربر أوامري فيجب أن لا يستقبلوا بسلام في موانئكم **...**"[2]

---

[2] سبنسر:المرجع السابق، ص 146.

ملحق رقم 13:

الحمد لله

في 17 من شعبان 1200 هـ . انعقدت معاهدة سلم وصداقة دائمة بين أسبانيا والجزائر وعليه فقد تمت الاتفاقية في الانسجام الكامل وبالإرادة الحسنة – مجاملة للسلطان – بين صاحب الجلالة المعظم دون كارلوس الثالث إسبانيا والهند بفضل الله من جهة وصاحب السمو محمد باشا داي والديوان والانكشارية بمدينة الجزائر ومملكتها من جهة أخرى.

البند الأول: تكون السلم دائمة بين صاحب القوة ملك أسبانيا وأصحاب السمو الداي والديوان والإنكشارية بمدينة الجزائر ومملكتها كذلك بين من ينتمي إلى الدولتين والذين يستطيعون أن يتعاطوا التجارة بناء على المعاملة تضر الطرف الآخر أو تزعجه متذرعا بحجة ما

البند الثاني: إن قراصنة الإيالة – أو العاملين لحسابهم بالجزائر – والذين إذا لقوا في البحر سفنا تجارية اسبانية ليس عليهم أن يتركوها تسير إلى حيث تشاء فحسب دون أن يعوقها عائق بل سيقدمون لها المدد والإسعاف اللذين تحتاج إليهما.

البند الثالث: يسمح للمراكب الجزائرية بالإرساء في جميع موانئ أسبانيا وفرضها إذا اضطرت إلى ذلك بسبب زوبعة أو من أجل إصلاح أو هربا من الأعداء وتقدم لها المعونات وكل ما تحتاج إليه في مقابل الثمن العادي .

البند الخامس : إذا كان معادون للجزائر في مراكب اسبانية أو أسبان في مراكب معادية للجزائر فإنهم يقعون في الأسر مهما كانت الحجة ولو استعصت هذه المراكب ونشب قتال،ويحترم الجانب الإسباني نفس القرار بالنسبة لأعداء أسبانيا الموجودين في مراكب معادية لأسبانيا .

وعلى المسافرين أن يبرهنوا أنهم جزائريون أو أسبان بإظهار جواز سفر يسلمه إياهم قنصل بلادهم في موانئ الإقلاع وأن يعلنوا عن أمتعتهم وعن كل ما هو تابع لهم .

البند السابع : يستطيع جميع التجار الأسبان بالموانئ والسواحل الجزائرية أن يترلوا بضائعهم وأن يتاجروا بحرية دون أن يدفعوا أكثر ما يدفعه الأهالي عادة .

ويتمتع التجار الجزائريون بنفس الحقوق في المراسي الخاضعة للسيادة الأسبانية والمنصوص عليها في البند الثالث .

وإذا ما أنزل التجار المذكورون سلعهم لقصد الإيداع فقط فإن لهم الحق في شحنها من جديد من غير أن يدفعوا عليها أية ضريبة .

ويدفع الجزائريون بأسبانيا والاسبانيين بالجزائر نفس الرسوم الجمركية التي يدفعها الفرنسيون في هذين البلدين ويتمثل الطرفان إلى ما تعامل به هذه الدولة .

البند الثامن : لا يقدم الجزائريون أي مدد لمراكب دولة تكون في حالة حرب مع أسبانيا كما أنهم لا يعينون من حصل على شهادة ضريبة المهنة من طرف هذه الدول المعادية ولا يستطيعون استعمال هذه الشهادات للدخول في الغزو البحري ضد الأسبان . وتتعهد أسبانيا باتخاذ نفس الموقف إزاء الجزائريين .

البند التاسع : ليس لأحد أن يكون الأسبان بأي سبب أو دعوى على شحن (بضائع) في مراكبهم في موانئ الجزائر وفرضها إذا رفضوا ذلك ولا أن يجبرهم على القيام بأسفار إلى نواحي لا يرغبون في الذهاب إليها .

البند العاشر : سيقيم قنصل الأسبان بالجزائر و يكون له نفس الامتيازات التي يتمتع بها قنصل فرنسا ويشتغل بجميع شؤون الإسبانيين بنفس الكيفية التي يعالج بها قنصل فرنسا قضايا مواطنيه وستكون له سلطة قضائية في الخلافات بين الأسبانيين دون ان يتدخل فيها قضاة مدينة الجزائر .

البند الحادي عشر: لجميع الأسبان الموجودين بمملكة الجزائر كامل الحرية في ممارسة شعائر الدين المسيحي سواء أكانوا بالمستشفى الملكي الإسباني الذي تديره منظمة " الافتدائيين الثالوثيين لمنتعلين " بمدينة الجزائر – أو – في دور القناصل أو دور نوابهم.

البند التاسع عشر : ويستطيع الباشا الداي العظيم أن يعين – متى شاء – شخصا مناسب فيستقر بأحد مراسي إسبانيا بصفته ممثلا للدولة الجزائرية.

البند الحادي والعشرون : لا يمكن للمراكب الاسبانية أن تقصد مراسيو يعتبر ذلك عملا عدوانيا إلا بعد النفي البات للحق .

البند الثاني والعشرون : لا يمكن للمراكب الاسبانية أن تقصد مراسي مملكة الجزائر خارج العاصمة لكي تشحن أو تفرغ حمولتها إلا برخصة من حكومة الجزائر كما هو معمول به في جميع الدول الأخرى .

نشر هذا النص بقصرنا يوم 17 من شهر شعبان 1200 هـ/ 14 جوان 1786 ميلادي .[1]

خاتم وتوقيع

محمد باشا .

أقلبت على الاقرار والموافقة على هذه الاتفاقية في الصيغة التي تمت بها كما أنني بمقتضى هذا المكتوب أقر وأوافق عليه أحسن الموافقة وأشملها وأتعهد ، أيمانا ووعدا من ملك ، بتنفيذه ومراعاته وآمر بتطبيقه واحترامه .

بسان الديفانسو: في 26 أوت 1786

خاتم وتوقيع

أنا الملك

(جوزيف مونير دي فلوريدا بلانكا)

---

[1] بلحميسي:"صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الاسبانية" ، المجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 11 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 6-11.


ببليوغرافيا

المراجع المعتمدة

I -الكتب

أ-بالعربية

1- آجقوا(علي) : محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة الجزائرية – النظام السياسي والمؤسسات - ط2 ، شركة باتنيت للمعلوماتية والخدمات المكتبية ،2002 الجزائر-2003

2- آجقوا (علي):المغرب الأوسط من المجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة الأمة ، شركة باتنيت للمعلوماتية والخدمات المكتبية، الجزائر،1999

3- آجقوا(علي): محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة 1514-1830 – العدالة – ، الباتنيت للمعلوماتية والخدمات المكتبية ، الجزائر، 2001 ،

4- الزياني(محمد بن يوسف) : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم بوعبدلي (المهدي) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1978

5- (احمد توفيق) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1976

6- المدني (احمد توفيق) : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ،الجزائر ، 1932

7- السليماني (احمد) :النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني ، مطبعة دحلب ،الجزائر 1993،

8- التنسي (محمد بن عبدالله) : تاريخ بني زيان ،ملوك تلمسان ، ترجمة محمود بو عباد ، م . و .ك الجزائر 1986

9- التر (عزيز سامح) : الأتراك العثمانيون في إفريقياالشمالية ، ترجمة عامر (محمود علي) ،ط1 ، دار النهضة العربية ، لبنان ، 1998

10- العربي(إسماعيل): تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984

11- العربي(إسماعيل) : العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة الأمريكية 1776-1816 المؤسسة الوطنية للكتاب، د.م.ج ط2 1984

والطباعة ،ط1، المنامة،1988

12- الميلي (محمد بن مبارك):تاريخ الجزائر القديم والحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1989

13- الميلي (محمد بن مبارك) : تاريخ الجزائر القديم والحديث ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر ، 1976

14- الميلي(محمد بن مبارك) : تاريخ الجزائر ،مكتبة النهضة الجزائرية، 1963

15- أوغلي (أكمل الدين إحسان): الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، تركيا ، 2002

16- النجار (سعيد) : تاريخ الفكر الاقتصادي ،دار النهضة العربية ، بيروت ،1985

17- الزبيرى (محمد العربي) : مدخل لتاريخ المغرب العربي الحديث ،الجزائر ،1975

18- الجمل(شوقي عبد الله): المغرب الكبير في العصر الحديث ،ط1 ، المكتبة الانجلو امريكية ، مصر ،1977

19- التميمي (الهادي): مفهوم الإمبريالية من عصر الاستعمار العسكري إلى العولمة ، دار محمد علي الحامي ، تونس 2004

20- الصلابي(لعلي محمد) : الدولة العثمانية ،ط 3،منشورات دار الشرق،بيروت

21- الجيلالي (عبد الرحمن محمد):تاريخ الجزائر العام ، ط 3 ، الجزء 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1982

22- التميمي (عبد الجليل):الولايات العربية ومصادرها ووثائقها في العهد العثماني ،ط 1 ، منشورات مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ، تونس ، 1984

23- الجيلالي (عبد الرحمن) والميلي(مبارك): تاريخ الجزائر القديم والحديث ،الجزء 2 ، مطبعة العصر ،بيروت ،

24- أبو علية(عبد الفتاح)و ياغي(إسماعيل) :تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر 1984

25- الزبيرى(محمد العربي) : مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث ،الجزائر، 1975،

26- المحامي (محمد فريد):تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ط1، تحقيق إحسان حقي ،دار النفائس، بيروت ،1981

27- النهروالي(قطب الدين محمد بن احمد): البرق اليماني في الفتح العثماني ،دار اليمامة ، الرياض 1967، ص —ص.70-81

28- الجزائري (محمد بن عبد القادر): تحفة الزائر في تاريخ الجزائر، شرح وتعليق ممدوح حقي دار اليقظة العربية بيروت ط 2 1964

29- ابن أبي الضياف(احمد) :أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،الجزء2 نشرة 2 ، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،تونس/ الجزائر ،1977،

30- العنتري (محمد الصالح) :تاريخ قسنطينة ، مراجعة وتقديم بوعزيز (يحي) ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1991

31- الصدوقي (علي احمد) : تاريخ الأندلس الإسلامي ،مطبعة الشروق ، عمان (الأردن)، 1981

32- الهندي (محمود إحسان) : الحوليات الجزائرية . العربي لإعلان والنشر والطباعة والتوزيع دمشق سورية 1977

33- الجرف (طعيمة)نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم – دراسة مقارنة- ،دار النهضة العربية، القاهرة ،1978

34- بوعزيز (يحي)مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية د .م .ج ،ط1 ،1999

35- بونار(رابح) :المغرب العربي ،تاريخه وثقافته ،ط3 ،دار الهدى ،الجزائر ،2000

36- بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه (أمين) و البعلبكي (منير) ،ط 5 ،دار العلم للملايين ،بيروت ،1968

37- بورويبة(رشيد) ، لقبال(موسى) ، حاجيات (عبد الحميد) ، دهينة(عطالله) ، **41-** بلقراد(محمد) : الجزائر في التاريخ الجزء 3 – العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني – المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984

38- بدوي(ثروت) : الإمارات الإسلاميةفي المحيط الهندي - زنجبار- والكشوف الجغرافية ،دار النهضة العربية ، القاهرة ،1977

39- بل (فريدريك وليام) : الصراع البحري والقرصنة العالمية ،ترجمة فؤاد السيد ، ط 2 ، مطبوعات الجامعة الجزء 1 القاهرة 1977

40- بن علي شغيب (المهدي) : أم الحواضر في الماضي والحاضر – تاريخ مدينة قـــسنطينة – مطبعة البعث، الجزائر، 1980

41- بن أبيزيان بن اشنهو (عبد الحميد):دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائـــر، المطبعـــة الشعبية للجيش ، الجزائر 1986

42- بوشعير (سعيد) : النظام السياسي في الجزائر، ط2، دار الهدى، الجزائر، 1993

43- بوسلطان (محمد):فعالية المعاهدات الدولية ،د.م.ج ،الجزائر 1995

44- تدمري (عمر عبد السلام):تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ،ط 1 ، المؤســـسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،1981

45- جلال(يحي) : تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصـــر ، المكتـــب الجـــامعي الحـــديث ، الإسكندرية ،1999

46- جلال (يحي) :المغرب العربي الكبير (العصور الحديثة للاستعمار) ، المكتب الجامعي الحديث ،ط2 ، مصر ، 1982 ،

47- جلال(يحي) : العالم العربي الحديث والمعاصر ،الجزء 1 المكتب الجامعي الحـــديث ، الإسكندرية ، 1998

48- جوليان (شارل أندري) : تاريخ إفريقيا الشمالية ، – تونس –الجزائـــر – المغـــرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ، 1830 تعريب محمد مزالي ، والبشير بـــن ســـلامة، الجزء 2، ط 2، الدار التونسية للنشر 1985

49- حليمي(علي عبد القادر) : مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972

50- خوجة(حمدان بن عثمان):المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق الزبيري محمد العـــربي ،ط2 الشركة الوطنية للنشر والإشهار ،الجزائر ،1982

51- رشيبالد (ر.لويس) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوســـط ، ترجمـــة عيسى(احمد محمد) و غربال (محمد شفيق)، مكتبة النهضة المصرية ،1951 مصر

52- زالر (غاستون).تاريخ العلاقات الدولية - العصر الحديث - الجزء 2 من لويس التاسع إلى عام 1789 ، ترجمة صادق(أنور)، دار النهضة العربية ،مصر ،1968

53- زيادة(خالد):اكتشاف التقدم الأوربي -دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن 18،دار الطليعة ،بيروت ،بدون سنة طبع.

54- سبنسر(وليم): الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة زبادية (عبد القادر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1980

55- سعدالله (ابو القاسم) : أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ، القسم الأول ،ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والإشهار ، الجزائر 1981

56- سعدالله (ابو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10الى 14 هـ / القرن 16/20 م الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985

57- سعدالله (ابو القاسم): شعوب وقوميات ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1988

58- سعد احمد (راشد) : الدول المغاربية –تاريخ وحضارة – دار البستان للنشر والطباعة – ط1 ، المنامة ، 1988

59- سالم(عصام سالم) :جزر الأندلس المنسية – التاريخ الإسلامي لجزر البليار - 1208-1687 ، ط2 ،دار العلم للملايين،بيروت،1984

60- سعيدوني(ناصر الدين) وبوعبدلي(المهدي) : في التاريخ الجزء 4العهد العثماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984

61- سعيدوني(ناصر الدين) : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر – العهد العثماني – المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984

62- سعيدوني(ناصر الدين) : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830 الجزائر 1979

63- شوفالييه(كورين): الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر ، ترجمة حمادنة(جمال)، ديوان المطبوعات الجامعية ،1991

64- عصام الدين (عبد الرؤوف الفقي): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،دار الفكر العربي القاهرة ،1999

65- عمرعبد العزيز(عمر): دراسات في تاريخ العرب الحديث ،ط 1،دار النهضة العربية ،بيروت ،1981

66- علي ناصر(محمد): تاريخ الاكتشافات الإسلامية ، دار العلم للملايين ،بيروت ،1956

67- عمر(محمد عبد العزيز) و القوزي(محمد علي): دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815-1950 ،ط1 ،دار النهضة العربية ،بيروت 1999

68- عبد الرحيم(عبد الرحمن عبد الرحيم) : المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، تونس، 1982

69- عوض(محمد مؤنس) تقديم البيشاوي (سعيد عبد الله) : الحروب الصليبية ،دراسة تاريخية نقدية ،ط1 ،دار الشروق ،عمان الأردن ،1999

70- عبد العزير(سالم) و العبادي (احمد مختار) : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس ،دار النهظة العربية ،بيروت 1969

71- فيشر(هربرت) :أصول التاريخ الأوربي الحديث ، ترجمة ،راشد (زينب)و احمد عبد الرحيم (مصطفى) مراجعة احمد عزب (عبد الكريم) القاهرة ، 1970

72- فركوس (صالح) : الحاج احمد باي قسنطينة (1826-1850) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1993

73- فرج(محمد الصغير): تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة 1954 ، ترجمة زمولي (موسى) ، منشورات مطبعة تالة، 2002 ،

74- قنان (جمال)قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر ، منشورات المتحف الوطني للجهاد، الجزائر، 1994

75- قنان(جمال) : نصوص ووثائق في التاريخ الجزائر الحديث 1500-1830 المؤسسة الوطنية للطباعة الجزائر 1987

76- كارديلاك(لوي) : المورسيكيون الأندلسيون والمسيحيون ،تعريب وتقديم التميمي(عبد الجليل)،منشورات المجلة التاريخية المغربية ود.م.ج الجزائر 1983

77- كوران(ارجمنود): السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، ط2، ترجمة ،التميمي(عبد الجليل) تونس،1974

78- كاثكارت(جيمس.ليدر) مذكرات أسير الداي قنصل أمريكا في المغرب ،ترجمة العربي(إسماعيل) ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر 1982

79- كوبرلي(محمد فؤاد) قيام الدولة العثمانية ،ترجمة سليمان (احمد سعيد)، مؤسسة الكتاب ، القاهرة سنة 1967

80- محمود (السيد) : تاريخ دول المغرب العربي ،مؤسسة الشباب الجامعة، مصر، 2000
81- مدبولي (احمد عز) : تاريخ الحروب الصليبية – الدينية – المؤسسة الانجلو امريكية ، ط1 ، بيروت ، 1962
82- مؤنس(حسين) : تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي الى الغزو الفرنسي ، ط1 ، مجلد2 ، الجزء 2و3 ن العصر الحديث للنشر والتوزيع ،بيروت ،1992
83- موريت(بيار)وسانياك(فيليب) : الفتوحات الاسبانية –من الاسترداد الى الفتح - الجزء 3 ،ترجمة احمد زكي(عطا) ، الدار المغربية للنشر ، دمشق ، 1968
84- محمد كامل (ليلى):النظم السياسية –الدولة والحكومة – دار النهضة العربية ،بيروت ،1969
85- منير (شفيق) : الإسلام في معركة الحضارة ، الشركة الساحلية للطباعة والنشر والتوزيع ،تونس، 1988
86- نوشي(أندري) بريان (أندري) لاكوست (ايف) : الجزائر بين الماضي والحاضر ،ترجمة ،اسطنبولي (رابح) و عاشور (منصف) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1984
87- نايت بلقاسم (مولود قاسم) : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ،ط1 ، الجزء الأول دار البعث للطباعة والنشر ن الجزائر 1985
88- نور الدين (عبد القادر): غزوات عروج وخير الدين، المطبعة الثعالبة ، الجزائر ،1934
89- وولف (جون.ب) : الجزائر وأوروبا ترجمة وتعليق أبو القاسم (سعد الله) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،

ب-باللغة الأجنبية

1-Aurelia(Casares) :les conflits politiques et commerciaux, au15[eme] séicle -,Fayard ,1966

2-Amoura (Amar) : Résume de l'Histoire de l'Algérie , traduit par ,Maaradji(Ali) ,Edition ,Raïhana,Alger, 2002

3-Altamira(Rafael) :Histoire d'Espagne, édition /collection universitaire,Paris, 1931

4-Alarcia (Tellez Diego) :El papel de norte de África en la politica exterior luspãna (ssXV-XVI),Tiempos Modernos, Espagna,2000

5-Bertrand(Louis): Histoire d'Espagne, Coll- Gayard, Paris 1936

6- Braudel(Fernand**):**la Méditerranée et le Monde Méditerranéenne à l'époque de Philippe II ,Ed/ l'Etoile , Paris,1966

7-Babelons (Jean):Charles-Quint,Epoques et visage(1500-1559),Paris 1990
8-Brett(Michel) : les Espagnoles et la Civilisation Islamique, Atlas, Paris ,1981
9-Belhamissi (Moulay) : les Captifs Algériens et l'Europe chrétienne,1518-1830,ANAL,Alger 1988
10-Belhamissi :Histoire de la Marine Algérienne (1515-1830) ,ENAL,Alger1986
11-Belhamissi :les Navires et les Hommes(la Marine et les Marins d'Alger)1518-1830, tome1-2-3,3^{eme} Edition ,Bibio/Nationale,Alger ,2003
12- Belhamissi:Alger la Ville aux mille canons,ENAL,Alger,1990.
13-Contereras (J) et Dedieu(J.P) : Formation de l'Inquisition Espagnole 1470-1820 ,Espagne, 1980
14-Cortés (Alonso Vicenta) : La Esclavituden valencia durante et reinado de reyes catôlicos Publicaciones del Archiveo municipale de valencia, 1964
15-Christophe(Picard): la Mer et les Musulmans d'Occident au Moyen Âge VIII-XVI siècle , PUF, Paris, 1997
16-Christophe (Picard) :la course à l'Océan Atlanthique ,Centre culturel Portugais ,1987
17-Christophe (Picard): L'Océan Atlantique Musulman , Louis Edition, UNESCO, 1997
18-Culvillier (Jean-Pierre) : Histoire de l'Europe Occidentale au Moyen Âge IV Siècle auXVI Siècle,Edition Ellipses,Paris ,1998
19-De Grammont(H.D) : Histoire d'Alger sous la domination Turque(1515-1830)), Ernest Leroux ,Editeur ,Paris, 1887 .
20-De Cavalho (Vasco) : la domination Portugaise au Maroc 1514-1789 ,Lesbone,1936
21-Dominique (Joly) :Le Dico des Pirates et de Corsaires ,Edition de la Martinien ,Paris ,2005
22-Dhina (Attalah) : les Etats de l'Occident Musulman aux XIV et XV^{em} Siècle Institution – gouvernement et Administration- , O.P.U –ANAL ,Alger ,1984
23-Dhina (Attalah) : le Royaume Abdelouadide à l'Epoque d'Abou Hammou Moussa 1er et d'Abou Tachfine, O.P.U Alger 1985
24-Doumerc(Bernard):Venise et l'Emirat Hafside de Tunis (1231-1535), Ed/Mare Nostrum, Paris,1999
25-Dupuy(Emile) et Blaudy(Alain) : Américains et Barbaresques 1776-1824 ,Bouchéne , Paris 2002
26-Emmanuelli (René):Gênes et l'Espagne dans la guerre de course (1559-1569), Société Médiévales Méditerranéennes ,Paris , 1964
27-Feredj(Mohamed Seghir) : Histoire de Tizi-Ouzou et de sa region des originesà1954 ,2emeEdition ,Hammouda ,Alger, 2002
28- Feraut(Charles) : Annales Tripolitaines ,Histoire de la prise de la prise de Tripoli,2Ed/,Bouslama,Tunis

29-Ferhat(H): Sabta des Origines aux XIV Siècle,Rabat,1993
30- Fisher(Sir Godfrey) :Légende Barbaresque,Traduit par Hellal(Farida),O.P.U,Alger,2000
31-Gaignard(Catherine):Maures et Chrétiens à Grenade 1492-1570 ,Edition le Temps , Lesbone ,1989
32-Goffman(D) :Britons in the Ottoman Empire1542-1660,Seatel and Landers publication ,1989
33-Gadard(Michel) : Histoire du Maroc, Edition le Berain, Paris,1996
34-Garcin(Jean-Claude) :Grandes Villes Méditerranéennes du Monde Musulman,Collection de l'école Française de Rome ,2000
35-Gareth (Austin) and Berger (Iris) and Mager (Anne) :The journal of African History, Royal Historical Society 2005
36-Godard(Leon) :Histoire du Maroc, Edition Atlas , Paris ,1965
37-Gonzalez(Raymond-Anita) :la Croix et le Croissant « les inquisiteurs des Iles face à l'Islame1550-1700,CNRS Edition ,Paris ,1992
38-Garrot(Marc) : les Annales de la prise des Barbarie, Tome 6 ,P.U.F, Paris,1995
39-Hawser (Henri) :la prépondérance Espagnole, Reed, Paris, 1933
40-Herré Coutau(Bigarie) : l'Emergence d'une pensée Naval en Europe au XVI et au début du XVII e Siècle ,Edition lemêre, 2000
41-Heers (Jacques): les Barbaresque : la Course et la guerre en Méditerrané , Coll ,Perrin ,Paris, 2001
42-Haedo (Diego .F) : Histoire des Rois d'Alger ,Traduit par De Grammont (Henri-Delmas) ,Bouchéne coll Saint Denis ,Paris, 1998
43-Laroui (Abdellah) :l'Histoire du Maghreb, Maspero, Paris, 1970
44-Ibn Khaldoun(Yahia) : Histoire de Berbères , Traduction de Slane ,Tome 3 ,Edition, Geuthner ,Paris ,1969
45-Jehel(Georges) :la guerre de course en Méditerranée 1515-1580,Actes des journée Universitaire,Presse de l'Université,Paris ,1990
46-Joy(Idward) : A complete History of Algeria,Vol.4 collection University de Brest,1982
47-Kaddache(Mahfoud) : l'Algérie durant la période Ottomane OPU,Alger,2000
48-Krieken(Gerard,Vun) et Belhamissi(Moulay) : Corsaires et marchands – Relations entre Alger et les Pays Bas 1604-1830 ,Bouchéne, Paris, 2002
49-Lopez (R-S) : Naissance de l'Europe,Casterman,Coll, (Moi,Mémoires),Paris ,1968
50-Merrien(Jean) : Histoire des corsaires du Moyen Âge jusqu'au 20^em^Siecle ,Edition l'Ancre de Marine, Paris,2001
51-Mercier(Ernest):Histoire de l'Afrique Septentrionale(Berberie),Tome3,Paris 1868
52-Mantran (Robert):Histoire de l'Empire Ottoman, Ed/Fayard ,Paris, 2003,pp21-23

53-Mezali(Houcine) :Alger trente deux siècle d'histoire , synergie,2003
54- Lesure(Michel): Lépante .la crise de l'Empire ottoman ,Edition Paris,1972
55-Nil Robin(Joseph) : la Grande Kabylie sous le régime Turc, Bouchéne,Biblio Histoire du Maghreb , Saint Denis,1998
56-Perrot(A.M) :Alger : Esquisse Topographique et historique du Royaume et de la ville,2eme Edt/ librairie ladvocat ,Paris, 1830
57-Pamuk Amonetary(S) :History of the Ottoman Empire ,Camberleym 2000
58-Prieu(Alain-Dour) :les Barberousse,corsaires et Rois d'Alger,Edition la Marine, Paris, 1943
59-Paul(Réné)et Michel(Colombe) : Les Relations Politico-économique , Méditerranéen Au 14-16 Siècle ,Ed/Belin , 1972
60-Rosseuw (saint – Hilaire) Histoire d'Espagne, Tome .S, Edition la presse Universitaire,1966, Madrid
61-Roland(claudine)et Gros(Jean Didieu) : Moi Barberousse pirate et Roi de Barbarie ,Casterman Collection,Bruxelle1984
62-Raynal (G.T) : Histoire des Etablissements du Commerce des Européens dans l'Afrique Septentrionale ,la Découverte, Paris
63-Rosenberger(Bernard) : Le Portugal et l'Islam Maghrébine au XV .XVI siècle, Centre Culturel Portugais, 1987
64-Rosseuw(Saint –Hilaire) :Histoire d'Espagne tome VII,la coronas presse , 1952
65-Raymonde(André):North Africa in the Pre-Colonial Pariod, combridge History of Islam , Combridge University Press ,1970
66-Sir Godfrey(Fisher) :Légende Barbaresque,Traduit par Hellal(Farida),O.P.U,Alger,2000
67-Sander(Rang)et Denis(Ferdinand) : Fondation de la Régence d'Alger – Histoire des Barberousse,Librairie de l'Evêche Orientale,Tome1et 2, 1837
68-Sandoval(D.F.P) :Histoire et la vie échos de l'empereurs Charles quints ,v 1 Librairie Armond Colin , Paris ,1973
69-Villiers (Paulline) :Marine royale,corsaires et trafic dans l'Atlantique de Louis XIV à Louis XVI, Presses Universitaires du septentrion , Lille ,1991

II-المقالات

أ- بالعربية

1 – آجقوا (علي) :الدولة الجزائرية الأولى (PEA) دراسة مؤسساتية ،مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية العدد2 ،جامعة باتنة الجزائر ، 1994
2- التميمي (عبد الجليل) :الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن 16، المجلة التاريخية المغاربية ،العدد 6 ،تونس ،1978 ،

3-التميمي (عبد الجليل):أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 ،المجلة التاريخية المغاربية ،العدد 6 تونس 1976

4- التميمي (عبد الجليل) : رسالة من أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ، المجلة التاريخية المغاربية ،عدد 3 ن تونس 1985 ،

5- بلحميسي (مولاي) :مشاكل المياه بالجزائر العاصمة في العهد العثماني ، مجلة البحوث العدد 2 ،جامعة الجزائر، 1994،

6- بلحميسي(مولاي): صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الاسبانية ، المجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 11 ،جوان 1974 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

7- بوعزيز (يحي) : علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا فيما بين القرن 16-19 ،مجلة الثقافة العدد 48 ،الجزائر، 1978

8- قداش (محفوظ): الجزائر في العهد التركي، مجلة الأصالة، العدد 52، الجزائر ، 1977

ب:باللغة الأجنبية

1-Pedro de Madrid : lettre de Mers el-kébir ,17-Sept-1505(Oran sous les Espagnoles Expédition et Razzias ,R.A, N° 90,1928

2-Fernand Braudel :les Espagnols et l’Afrique du nord de 1492 à 1577 R.A N° 69 1928

3-Charles Ferraud :Conquête de Bougie par les Espagnoles d’après un manuscrit arabe R.A N° 12 ,1868

4-Primaude (Elie de), Documents Inédits sur l’Histoire de l’Occupation Espagnole en Afrique ,R-AN°20,1875

5- Braudel(Fernand) :les Espagnoles et l’Afrique du nord de 1492-1577 ,R.A,N°69, 1928

6-De Sandoval :les inscription d’Oran et Mers el-kébir ,R-A N°9 1865

7-Ricard (R) : Les Etablissements Européens en Afrique du Nord du XV au XVIII siècle ,et la Politique d’Occupation restreinte, R.AN°42 1936

8- L.Charles : les Ben Djellab Sultans de Touggourt R.A N° 23 1879

9-Albert Devoulk : Alger .étude archéologique et topographique sur cette ville R.A N°20 1876

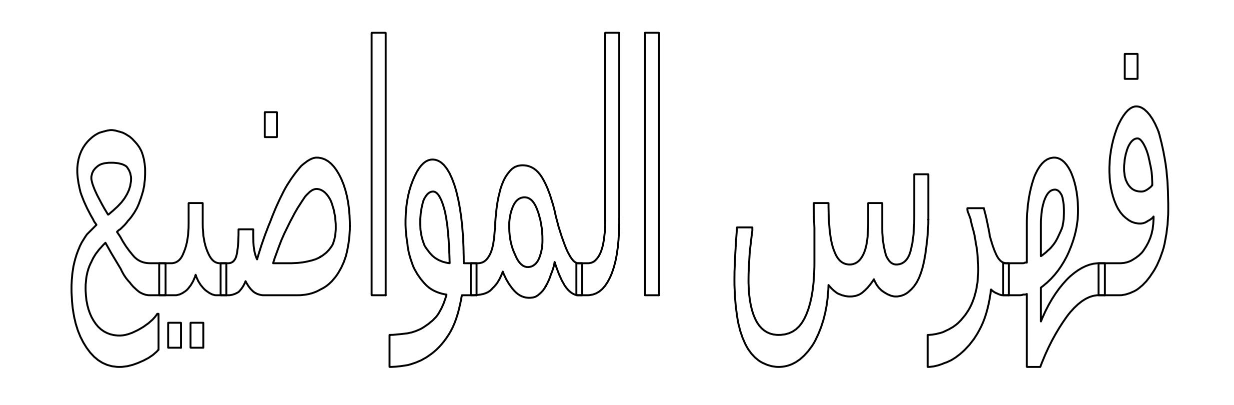
10-Feraut (Charles) : conquête de Bougie par les Espagnoles ,R.A N°12

11-De .Grammont .H.D / Quel est le lieu de la mort d’Aroudj Barberousse .R.A N°22, 1878

12-Elie de Primaudie : documents inédits sur l’histoire de l’occupation Espagnol en Afrique (1506-1574) R.A N°19, 1875

13-Berbrugger : la mort du fondateur de la Régence d’Alger R.A 1859 -60

14-Watbled(Ernest) :Etablissement de la domination Turque en Algérie ,R.A N°2 ,1878
15-Devoulx : Alger ,Etude Archéologique et Topographique sur cette ville ,R.A,N°20, 1876
16-Robin(N) : Note sur l'organisation militaire et Administration des Turcs dans la Grande Kabylie R.A N°17 ,1873
17-Lespinasse(L) . Notes sur Hachem; de Mascara R.A N° 21, 1877
18- Ferraud : les Ben Djellab Sultans de Touggourt R.A N° 23, 1879
19- Documents, Archives de Simancas : R.A N° 113 et N° 122
20-.Watbled(Ernest) et Monnerau :Négociation entre Charles Quint et Khair-eddine (1535-1540) R.A N° 15, 1871
21-Berbruger(A) :Négociation entre Hassan Aga et le Comte d'Alcaudete1541-1542,R.A N°9
22-De Grammont(H.D) :relation entre la France et la Régence d'Alger au XVII siècle ,R.A N°23,1879
23-R.L.Yfair : Episodes de l'histoire des relations de la Grande-Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française R.A N°22 ,1878


فهرس المواضيع

المواضيع	الصفحة